خطب الشيخ القرضاوى

إعداد

الشيخ خالد السعد

دكتور يوسف القرضاوى

الجزء الثانى

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

خطب الشيخ القرضاوي

(٢)

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت: ٤٨٢٧٨٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرا ، كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على معلِّم الناس الخير ، وهادى البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق للحق ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ٠

(أما بعد)

فهذا هو الجزء الثانى من (خطبى) التى جمعها وعلق عليها الأخ الباحث الفاضل الشيخ خالد خليفة السعد ، نفع الله به وجزاه عنى وعن العلم والإسلام خيرًا ٠

وقد تضمن هذا الجزء عشرين خطبة مثل الجزء الأول ، تنوعت موضوعاتها ومناسباتها و أزمنتها أكثرها خطب جمعة ، وبعضها خطب عيد ٠

ومما سرَّنى : أن يضم هذا الجزء خطبًا كنت ألقيتها فى مسجد (أبى بكر الصديق) منذ إنشائه من نحو ربع قرن فى قطر كنت أظنها قد ضاعت فيما ضاع، وكانت عن (صفات عباد الرحمن) كما بينتها الآيات الكريمة من أواخر سورة الفرقان ، فأحمد الله تعالى أن وجدتها ٠

هذا وقد راجعت جميع هذه الخطب ، وتعليق الأخ خالد عليها ، وقد أحسن وأفاد بتعليقاته ، وخرجت من الأحاديث ما توقف فيه ، وربما عدلت بعض العبارات أو أضفت إليها أحيانا قليلة ، خشية أن يكون الشريط لم يسمع جيدًا ، إذ تآكلت فيه بعض الجمل والكلمات ٠

ولا يسعني إلا أن أشكر للأخ خالد جهده ، وللأخ الحاج وهبه حسن وهبه حرصه على حسن إخراج هذا الكتاب وغيره من كتبي ، فجزاه الله خيرا ، وأثابه فى الدنيا والآخرة عن جهوده الطيبة والمستمرة والمتطورة فى نشر الكتاب الإسلامي ، ووفقنا جميعًا لما يحب ويرضى ، والحمد لله أولا وآخرا ٠

الفقير إليه تعالى

يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــدير

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ، أمّا بعد ٠

فهذا هو الجزء الثاني من (**خطب الشيخ القرضاوي**) ، التى هى قطعة من نفسه ،معبّرة عن فكره ومشاعره ، موصولة بكتاب الله وسنّة رسوله ، وتراث هذه الأمّة العظيم ، وأبطالها الغرّ الميامين فِى شتّى أدوار التاريخ ، كما أنّها موصولة بواقع العالم عامّة ، وواقع العالم الإسلامي اليوم خاصّة ٠

لقد ألهب الشيخ - ولا يزال - بخطبه عواطف المسلمين حيثما كانوا ، وأنار عقولهم ، وغرس فى نفوس الأجيال قيم الإسلام وتعاليمه ، وصحّح مفاهيم مغلوطة كثيرة علقت بعقيدتهم ، وكادت أن تفسد عليهم دينهم ، حتى غدت خطبه - إلى جوار كتاباته ومحاضراته - زادًا وغذاء ووقودًا للصحوة الإسلامية المعاصرة ٠

حفظ الله شيخنا الحبيب ، وأبقاه بيننا أعوامًا مديدة ، وسنين طويلة ، موفور الصحة والعافية ، قويّ العزم والإرادة ، راسخ العلم واليقين ٠

وأسأله سبحانه أن ينفع بهذه الخطب قارئها وسامعها ، ويثيب جامعها وناشرها، إنّه سميع مجيب ٠

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ٠

خالد السعد

صفات عباد الرحمن

١ - التواضع

• **الخطبة الأولى :**

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، خصّنا بخير كتاب أنزل ، وأكرمنا بخير نبىّ أرسل ، وجعلنا بالإسلام خير أمّة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ، وأتمَّ علينا النعمة بأعظم دين شرعه الله لعباده : دين الإسلام ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا . . ﴾ (١) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله ، أدّى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح للأمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده ، وتركنا على المحجّة البيضاء ، على الطريقة الواضحة الغرّاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاّ هالك ، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينًا ، اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبى الكريم ، وعلى آله وصحابته ، وأحينا اللهم على سنّته ، وأمتنا على ملّته ، واحشرنا في زمرته ،مع الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه وهو أصدق القائلين :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

---

(١) المائدة : ٣ . (٢) آل عمران : ٨٥ .

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا * خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (١) صدق الله العظيم .

هذه لوحة قرآنية رُسمت فيها شخصيّة (عباد الرحمن) ، وضّح الله فيها المعالم والتقاسيم لهذه الفئة المختارة من الناس ، جعلهم الله نموذجًا يُحتذى ، وأسوة بها يُقتدى .

عباد الرحمن: هم العباد المنسوبون إلى الله وحده ،إذا كان هناك عباد للشيطان أو للطاغوت أو للشهوات أو للدينار والدرهم«تعس عبد الدينار،وعبد الدرهم ،وعبد الخميصة ٠- زاد فى رواية«وعبد القطيفة»- إن أعطى رضى،وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس،وإذا شيك فلا انتقش٠ ٠ » (٢) ، إذا كان هناك عبيد الكاس والطاس ،

---

(١) الفرقان : ٦٣ - ٧٦ .

(٢) جزء من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة ﷺ ، و« القطيفة » : كساء له خمل يُجعل دثارا ، و« الخميصة » : ثوب مُعلّم من خزّ أو صوف ، و« انتكس » : أى انقلب على رأسه خيبة وخسارا ، و« شيك » : أى دخلت فى جسمه شوكة ، و« الانتقاش » : نزعها بالمنقاش ، وهذا مثل معناه : إذا أصيب فلا انجبر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٣٦٨ - ٣٦٩ ، الحديث ٦٥٨) .

إذا كان هناك عبيد المسكرات والمخدّرات ، إذا كان هناك عبيد المرأة والغريزة ، فإنّ هناك (عباداً للرحمن) .

هؤلاء العباد الذين أيس الشيطان نفسه أن يتسلّل إليهم ، أو يجد منفذاً لإغرائهم والسيطرة عليهم ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) . وقال عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (٢) .

هؤلاء هم العباد المنسوبون إلى ذات الله تعالى المقدّسة : عباد الرحمن ، وقد رضى الله أن ينسبهم إلى ذاته باسم (الرحمن) الذى يشعر بأنّهم أهل لرحمة الله عزّ وجلّ ، وأنهّم فى دائرة هذه الرحمة ، وأنّ الرحمة تحيطهم عن يمين وعن شمال ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فهم عباد الرحمن .

وقبل ذلك - فى هذه السورة - قال الله تعالى عن المشركين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾(٣) فإذا كان هؤلاء يجهلون: ما الرحمن ، فإنّ هناك أناساً يعرفون الرحمن ، ويَقدُرونه حقّ قدره، ويؤدّون له حقّه، وهم عباده المخلِصُون والمخلَصُون ، أخلصوا دينهم لله ، وأخلصهم الله لدينه .

أتريد أن تكون من عباد الرحمن ؟ أتريد أن تنتسب إلى الله عزّ وجلّ ؟ أتريد أن تكون واحداً من هؤلاء ؟ أتريد أن تكون عضواً فى هذه الجماعة ؟ وأن تكون عبداً من عباد الرحمن وحده ؟ إذن فاعرف مقوّماتهم وخصائصهم وصفاتهم ، اعرف من هم (عباد الرحمن) حتى تجتهد أن تكون واحداً منهم ، فالمسألة ليست بالكلام ، القضيّة ليست دعوى ، فما أكثر الدعوى وما أعزّ المعنى .

ما أكثر من يقول : أنا من عباد الرحمن ، ولكن أفعاله تنطق وتدلّ عليه وتقول له : أنت من عباد الشيطان ولست من عباد الرحمن .

عباد الرحمن لهم خصال وصفات وسمات ، ذكرها الله فى هذه الآيات ، وما أجدرنا أن نعيش فى رحاب هذه الآيات جُمَعًا وجُمَعًا .

---

(١) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ . (٢) الإسراء : ٦٥ . (٣) الفرقان : ٦٠ .

أوّل سمات عباد الرحمن : أنّهم يمشون على الأرض هونا · انظروا كيف بدأ الله أوصاف عباد الرحمن بهذه الصفة : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أللمشى هذا الاعتبار كلّه ؟! كيفيّة المشى ، صفة المشى ، لها قيمة عند الله ؟!

نعم ، لأنّها تعبرّ عن الشخصيّة ، تعبّر عمّا يستكنّ فيها من مشاعر وأخلاق ، فالمتكبرون الجبارون لهم مشية ، والمؤمنون المتواضعون لهم مشية ، كلٌّ يمشى معبّراً عمّا فى ذاته ·

عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا ، يمشون متواضعين هيّنين ليّنين ، يمشون بسكينة ووقار ، لا بتجبّر ولا استكبار ، لا يستعلون على أحد ، لا ينتفشون ولا ينتفخون ، لا يمشى أحدهم ،وكأنّه يقول : يا أرض انهدّى ما عليك قدّى · لا ، إنّه يمشى مشية من يعلم أنّه من الأرض خرج وإلى الأرض يعود ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١) .

وفى وصايا الله – الوصايا الحكيمة فى سورة الإسراء ، كان النّهى عن مشى المرح والأشر والبطر والاختيال والفخر إحدى هذه الوصايا : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّك لَنْ تَخْرِق الأَرْضَ ﴾ : مهما دببت برجليك ، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾ : مهما تطاولت بعنقك ، وشمخت برأسك ، فامش إذن متواضعًا حتى يحبّك الله ، وحتى يحبّك النّاس ، فالله لا يحبّ المختال الفخور ،ولهذا نجد القرآن فى آية ثالثة يحكى لنا عن وصيّة لقمان لابنه وهو يعظه ، فكان من وصاياه : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٣) .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ : لا تكلّم النّاس وأنت معرض عنهم، مشيح عنهم بوجهك ، ولا تجعلهم يكلّمونك وأنت معرض عنهم ، بل أقبل عليهم، وكلّمهم ووجهك منبسط إليهم ·

---

(١) طه : ٥٥ · (٢) الإسراء : ٣٧ ·
(٣) لقمان : ١٨ ، ١٩ ·

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ : المختال الذى يظهر أثر الكِبْر فى أفعاله ، والفخور الذى يظهر أثر الكبر فى أقواله، فهو يقول: أنا فلان ،وابن فلان ، ومن أسرة فلان .

الله لا يحبّ المختال ولا يحبّ الفخور ، إنّما يحبّ الله المتواضع الذى يعرف قدر نفسه ، ولا يحتقر أحدًا من النّاس .

﴿ .. الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ : ليس معنى مشى الهَوْن أنّهم يمشون متماوتين متمارضين ، كما يفعل بعض من ينتسب إلى التقوى والصلاح ، فهو يتماوت ويتصنّع ، لا ، ما كان هكذا رسول الله ﷺ ، ولا كان أصحابه .

كان النّبى ﷺ - كما روى عنه علىّ بن أبى طالب - إذا مشى تكفّأ تكفؤًا كأنّما ينحطّ من صبب(١) وهى مشية أولى العزم والهـمّة والشجاعة،كما قال ابن القيّم رحمه الله (٢) . وقال أبو هريرة ؓ : ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ ، كأنّ الشمس تجرى فى وجهه،وما رأيت أحدًا أسرع فِى مشيته من رسول الله ﷺ ، كأنّما الأرض تُطوى له ، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنّه لغير مكترث (٣) .

هكذا ، لم يكن ﷺ متماوتًا ولا بطيئًا ، وليس معنى (السرعة) هنا : السرعة التى تذهب بالوقار ، بل الوسط ، لا بالسريع المفْرط ، ولا بالبطىء المفْرط . هذا هو مشى المؤمنين ، مشى فيه قوّة ،وفيه - فى نفس الوقت - تواضع .

وهكذا كان عمر ؓ ، رأى شابًا يتماوت فى مشيته ، فقال : أأنت مريض ؟ قال : ما أنا بمريض ، قال : إذًا فلا تمشى هكذا ، وعلاه بدرّته .

أمره أن يمشى مشى الأقوياء المتواضعين .

ورأت إحدى الصحابيات شبانًا يمشون متهالكين متماوتين ، فسألت عنهم : من هؤلاء ؟ قالوا : هؤلاء نسّاك - عبّاد ، قالت : والله لقد كان عمر إذا مشى أسرع ، وإذا تكلّم أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان هو النّاسك حقا !

كلّ أفعاله تدلّ على القوة ، ليس بالمتماوت .

فليس معنى المشى الهون أنّهم يمشون متماوتين ، لا ، ما يريد الإسلام هذا الإنسان المتماوت المتمارض .

---

(١) أى : كأنّه ينزل من مرتفع إلى منحدر .

(٢) فى كتابه القيّم : (زاد المعاد فِى هدى خير العباد) .

(٣) يراجع فصل : (فى هديه ﷺ فى مشيه وحده ومع أصحابه) من كتاب (زاد المعاد للإمام ابن القيم : ١/١٦٧ - ١٦٩) بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط .

رأى عمر بعض النّاس يتخشّع فى صلاته ويتصنّع ويطأطىء رقبته ، فعلاه بالدّرة وقال : يا هذا ، ارفع رأسك ، لا تمت علينا ديننا أماتك الله ، إنّ الخشوع فى القلوب ليس الخشوع فى الرقاب !

فهذا ما نريده بالمشى الهون ·

﴿ . . . الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ : أى يمشون ليّنين متواضعين مع القوة أيضًا ، والسرعة المتوسّطة على حسب مقدرتهم وسنّهم واستطاعتهم ·

التحذير كلّه أن يمشى الإنسان فى الأرض مرحا ، وأن يمشى الإنسان فى الأرض مختالاً ، قد حذّر النبى ﷺ من ذلك أشدّ التحذير وقال : « من تعظّم فى نفسه أو اختال فى مشيته ، لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » (١) · وقال : « بينما رجل - ممّن كان قبلكم - يتبختر يمشى فى بُرديه ، قد أعجبته نفسه ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٢) ، يمشى متبخترًا فى بُرديه ، معجبًا بنفسه ، شامخًا بأنفه ، ثانيًا لعطفه ، مصعرًا لخدّه ، فخسف الله به الأرض ، كما خسف بقارون حينما خرج على قومه فى زينته ، مختالاً مفتخرًا ، فخسف الله ﴿ . . . بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٣) .

علام إذًا يستكبر النّاس ؟ علام يتجبّرون ؟ علام يستعلون على غيرهم ؟ لو نظروا إلى أنفسهم لوجدوا - كما قال الإمام الغزالى - أنّ أباهم الماء المهين وجدّهم التراب ،وكما قال تعالى : ﴿ . . وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ (٤) .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده عن ابن عمر بهذا اللفظ،وصحّحه الشيخ شاكر برقم(٥٩٩٥) ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح (١/ ٩٨) ، كما رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته محتجّ بهم فى الصحيح كما قال المنذرى ، وكذا رواه الحاكم بنحوه وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى (١/ ٦٠) ، ونسبه فى الجامع الصغير إلى أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ورمز لحسنه (٢/ ١٦٩) ، قال المناوى فى الفيض : وهو كما قال أو أعلى (٦/ ١٠٦ برقم ٨٥٩٨) ، وانظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢/ ٧٥٩ - ٧٦٠ برقم ١٧٦٦) ·

(٢) رواه مسلم فى كتاب (اللباس والزينة) عن أبى هريرة برقم(٢٠٨٨) ، ونحوه فى البخارى أيضًا فى اللباس (البخارى مع الفتح:٢٥٨/١٠) ، وانظر : اللؤلؤ والمرجان (١٣٥١) ·

(٣) القصص : ٨١ ، وأوّلها : « فخسفنا » · (٤) السجدة : ٧،٨ ·

رأى مطرّف بن عبد الله بن الشّخّير : المهلّب يمشى متبخترًا ، فغمزه ونهاه عن هذه المشية وقال : إنّ هذه مشية يبغضها الله عزّ وجلّ ، وكان المهلّب قائدًا من القوّاد الكبار فقال له : أما تعرفنى ؟ قال له : نعم ، أعرفك وأعرف أوّلك وآخرك ، أوّلك نطفة مذرة ،وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة !

أوّلك نطفة .. ماء مهين ، كما ورد عن بعض السلف : عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرّتين كيف يتكبّر ؟! لأنّه وهو نطفة خارج من أبيه جرى فى مجرى البول ، وهو أيضًا حينما وُلد جرى فى مجرى البول ، وقال الحسن : عجبت لمن يغسل الخُرء بيده مرّة أو مرّتين كلّ يوم كيف يتكبرّ على جبّار السموات .

لماذا يتكبّر الإنسان ؟ علام يتكبّر ؟ وعلام يختال ؟ وعلام يفتخر على غيره ما دام أوّله نطفة وآخره جيفة ؟! آخره الموت الذى يسوّى بين الكبيروالحقير ،والغنىّ والفقير ، الكلّ ينتهى عند هذه الغاية ، فعلام يتكبّر المتكبرّون ؟

الأرض التى يمشى عليها الإنسان مرحًا ، هذه الأرض تُرى ماذا وارت من الكبار؟ ماذا وارت من الأثرياء ؟ ماذا وارت من الأمراء ؟ ماذا وارت من الملوك؟

يقول الشاعر الصالح :

ولا تمش فوق الأرض إلاّ تواضعًا فكم تحتها قوم همو منك أرفع
وإن كنت فى عزّ وجاه ومنعة فكم مات من قوم همو منك أمنع

أبو العلاء المعرّى له قصيدة رائعة يقول فيها :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد ؟!
خفّف الوطء ، ما أظنّ أديم الأ رض إلاّ من هذه الأجساد !
سر إن استطعت فى الهواء رويدًا لا اختيالاً على رفات العباد !
فقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد !

ما يدريك لعلّ الأرض التى تمشى عليها مقبرة قديمة ذابت وبليت فيها عظام قوم كانوا من كبراء النّاس .

نحن على حداثة عهدنا رأينا مقابرواسعة فِى قطر فُتحتْ وامتلأت وأُغلقت ، وفتحت أخرى وتمتلىء وتُغلق .

فأين قبور من كان قبلنا ؟ من يدرى أنّ الأرض التي نمشى عليها هى مقابر

قديمة؟ من يدرى لعلّ الأرض التى تختال عليها برجليك أو بسيّارتك تنهب الأرض نهبًا ،إنّما هى مقابر لعظماء من النّاس من قديم .

لا تمش فى الأرض مرحًا ، اعرف قدرك أيّها الإنسان ، تواضع لله ، فمن تواضع لله رفعه (١) ، فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن تكبّر وضعه الله، فهو فى نفسه كبير وعند النّاس حقير .

إذا كان الإنسان يختال ويفتخر ويتعاظم ليكون عظيمًا عند الناس ، فالعكس هو الصحيح ،إنّ هذا يحقّره عند الناس ، ويجعله بغيضًا إلى النّاس كما هو بغيض إلى الله عزّ وجلّ .

ولهذا كان على الإنسان المؤمن أن يتواضع – وكما قالت عائشة ﵂ : أفضل عبادة للمؤمنين التواضع – كما كان رسول الله ﷺ أكثر النّاس تواضعًا ، على ما له من مقام عند الله وعند النّاس ، كان يمشى خلف أصحابه كواحد منهم ، وكان يجلس بينهم لا يتميّز عليهم ، حتى إنّ الرجل الغريب ليأتى فيقول : أيّكم محمّد ؟ أيّكم ابن عبد المطّلب ؟ لأنّه لا يتميزّ بشىء عن أصحابه ، وكان فى بيته يكون فى مهنة أهله ، يرقع ثوبه ،ويخصف نعله ، ويحلب شاته ،ويطحن مع الجارية والغلام ، بيديه الكريمتين ﷺ .

على الإنسان المؤمن أن يتعلّم التواضع ،وأن يمشى فى الأرض هونا ، هذه أوّل صفات (عباد الرحمن) .

التواضع يظهر أثره فى المشى ،وتزيد المرأة المسلمة فى صفة المشى، أنّها تمشى على استحياء ، كما وصف الله تلك المرأة ابنة الشيخ الكبير فقال : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ .. وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ... ﴾ (٣) .

إنّ القبول عند الله وعند النّاس ليس بالخيلاء ولا بالافتخار ، فالله لا ينظر إلى

---

(١) روى مسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ،وما زاد الله عبدًا بعفو إلاّ عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٧٥٥ برقم ١٧٥١) .

(٢) القصص : ٢٥ .

(٣) النوّر : ٣١ .

من جرّ إزاره خيلاء ،٠لا ينظر إلى من استكبر على عباد الله ، ويحسب امرئ من الشرّ أن يستكبر على أخيه المسلم، إنّما ينظر الله إلى المتواضعين ، الذين تواضعوا لله، وتواضعوا لعباده، حتى انّ الله تعالى مدح الذلّة على المؤمنين بقوله فى وصف عباده المخلصين : ﴿ . . أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ . . ﴾ (١) .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من عباد الرحمن ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

استغفروا ربّكم إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم .

* *

● **الخطبة الثانية :**

الحمد لله ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحـــده لا شريك له ﴿ . . بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (٤) .

وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله ، السراج المنير ، والبشير النذير ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بسنّته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

فى هذا الأسبوع حضرت المؤتمر العالمىّ الثانى للدعوة الإسلامية والدعاة المسلمين فى المدينة المنورّة ، فى رحاب حرم رسول الله ﷺ ، وبدعوة من الجامعة الإسلاميّة هناك، واتخذ المؤتمر توصيات هامّة كثيرة .

ومن هذه التوصيات توصية أقولها لكم الآن وهى :

نداء إلى جميع الحكومات والمؤسّسات والشركات والأفراد المسلمين، أن يستغنوا عن العمالة الأجنبيّة بالعمالة الإسلاميّة ، وأن يستخدموا المسلمين قبل غيرهم ، فإنّ العمالة الأجنبيّة الوافدة قد كثرت فى بلاد المسلمين ، وخاصّة فى بلاد الخليج .

---

(١) المائدة : ٥٤ . (٢) الزمر : ١٨ . (٣) غافر : ٣ . (٤) الملك : ١ ، ٢ .

وهذا خطر على الطابع الإسلامى لهذه البلاد ،وخطر على البيوت الإسلامية أن يدخلها غير المسلمين وغير المسلمات ، وبخاصّة المربّيات والمشرفات على تربية الأبناء والبنات ، وقد قال النبى ﷺ : « لا تصاحب إلاّ مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلاّ تقىّ »(١) ، فالذى يدخل بيتك ويعاشرك ويصاحبك ويأكل طعامك ، ويطّلع على عوراتك ، ويعرف أمورك ، ينبغى أن يكون مسلمًا ، بل ينبغى أن يكون من أصلح المسلمين كلّما استطعنا ذلك .

فهذا النداء إلى الناس أن يتحرّوا فى هذه النقطة ،وأن يبادروا إلى اختيار المسلمين قبل كلّ شىء والمسلمات قبل كلّ شىء ، فهذا نداء وهذه توصية أحببت أن أبلّغها إليكم لكثرة ما أرى من دخول غير المسلمين وغير العرب إلى هذه البلاد وإلى غيرها .

فليتحرّ كلّ مسلم وكلّ مسلمة يسمع هذا ،وخاصّة فى البيوت ، والإشراف والتربية ، فلا ينبغى أن نعطى أولادنا وأطفالنا لغير المسلمين ولغير المسلمات يلقّنونهم مالا نعرف ، أوما نعرف أنّه ضدّ الدين .

النّبىّ ﷺ يقول : « كلّ مولود يولد على الفطرة ، حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهوّدانه أوينصّرانه أو يمجّسانه »(٢) .

والمربية تصبح بمنزلة الأبوين ، فلهذا ينبغى أن نعى هذا الخطر ،وأن ندركه، وأن نحاول العمل بهذه التوصية .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا فى ديننا ،وأن يعلّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علّمنا ، إنّه سميع قريب .

اللّهمّ أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ، ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد،ووافقه الذهبى،من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه . (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٧٩٠ ، الحديث ١٨٥١) .

(٢) رواه أبو يعلى ، والطبرانىّ فى الكبير ،والبيهقىّ فى السنن،عن الأسود بن سريع ، ورمز له السيوطى بالصحة فى الجامع الصغير (٢/ ٩٤) وانظر تعليق المناوىّ عليه فى الفيض (٥/ ٣٣- ٣٤ برقم ٦٣٥٦) .

معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كلّ خير ، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شرّ .

اللّهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

اللّهمّ أكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا .

اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ إنّا نجعلك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم ، اللّهمّ اجمع كلمتنا عليهم .

اللّهمّ اجمع كلمة المسلمين على الهدى والتقى ، والجهاد فى سبيلك يا ربّ العالمين .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وصلّ اللّهمّ على عبدك ورسولك محمّد ، وعلى آله وصحبه ، وسلّم تسليمًا كثيراً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأقم الصلاة .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) الحشر : ١٠ .

(٣) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
٢ - الحِلمُ

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

كنّا نتحدث عن صفات عباد الرحمن ، الذين ذكرهم الله تعالى فى أواخر سورة الفرقان ، وتحدثنا عن الصفة الأولى من صفاتهم وهى أنّهم : ﴿ .. يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .. ﴾ (١) .

ثمّ ذكر الله الصفة الثانية من صفاتهم فقال : ﴿ .. وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ (٢) ، صفتهم فى أنفسهم : التواضع ، أنّهم هيّنون ليّنون ، متواضعون غير مستعلين ولا مستكبرين ، « .. وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله » (٣) .

والصفة الثانية : حالهم مع النّاس وخاصّة مع أهل الجهل والسفه : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ .

قالوا قولاً يسلمون فيه من الإثم ، ويسلمون فيه من اللّوم ، ويسلمون فيه من سوء العاقبة ، لا يردّون على السيّئة بالسيّئة وإن كان هذا من حقهم ، وإن كانوا يقدرون على أن يكيلوا الصاع صاعين ، وأن يردّوا اللّطمة لطمتين ، ولكنّهم لا يشغلون أنفسهم بالردّ على الجهّال والسفهاء ، لا ، إنّهم : ﴿ .. إِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ : قالوا قولاً سديدًا يليق بهم ، يليق بحالهم مع الله ، يليق بحالهم مع الآخرة ، يليق بما نصبوا أنفسهم له من نصرة الدين وإقامة الحق فى الأرض .

---

(١) ، (٢) الفرقان : ٦٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب البرّ والصلة والآداب ، باب استحباب العفو والتواضع - من حديث أبى هريرة - ﷺ ، وأوّله : « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو إلاّ عزًّا .. » .

﴿ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ : قالوا لهم سلام عليكم ، كما حكى الله تعالى عن جماعة من المؤمنين : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) :

لنا طريق ولكم طريق ،ولا نحبّ أن نتنازل عن طريقنا لنمشى فى طريقكم ·

هذا هو شأن عباد الرحمن: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ ، والجهل هنا ليس هو (الجهل ضدّ العلم) ، ولكنه أكثر ما يكون (الجهل ضدّ الحلم) ·

الجاهل السفيه قد يحمل شهادة عالية ، قد يتسنّم أرفع المناصب ، ولكنّه جاهل فى نفسه ، سيّىء الخلق · قد يكون له لسان ،وقد يكون له قلم يكتب به فى كبريات الصحف ، ولكنّه سفيه جاهل ، يمكّن لسانه وقلمه من أعراض الشرفاء من النّاس ·

هؤلاء إذا خاطبوا عباد الرحمن ﴿ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ ، قالوا : ﴿ ·· سَلاَمٌ عَلَيْكُم لاَ نَبْتَغِى الجَاهِلِينَ ﴾ ، هؤلاء هم الجاهلون كما قال الشاعر الجاهلّى :

ألا لا يجهلنّ أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(الجاهل) فى نظر القرآن هو : كلّ من عصى الله عزّ وجلّ ، كلّ من غلّب الهوى على الحق ، كلّ من غلّب الشهوة على العقل ·

يوسف عليه السلام لمّا راوده النّسوة عن نفسه قال : ﴿ ·· وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

موسى عليه السلام حينما أمر قومه أن يذبحوا بقرة ﴿ ··· قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) :

أى أن يهزأ فى موضع الجدّ ، وأن يتكلّم بالسخرية فى موضع الحق ،هذا شأن الجاهلين ·

فكلّ من عصى الله – كما قال السلف – فهو جاهل ، وكلّ سيىّء الخلق فهو جاهل ·

عباد الرحمن لا يشغلون أنفسهم بمعركة دائمة مع الجاهلين ·

---

(١) القصص : ٥٥ ·   (٢) يوسف : ٣٣ ·
(٣) البقرة : ٦٧ ·

الجاهلون ملء الأرض ، لو شغل الإنسان نفسه بهم ، فلن تستقيم له حياة ، ولن يستطيع أن يؤدّى عمله ، ولن تستريح له نفس ، أو يطمئنّ له قلب ، سيتعب وسيشغل نفسه بالباطل ، ولهذا ينزّهون أنفسهم عن الردّ على هؤلاء ، وإن كان لهم الحقّ فى أن يردّوا السّيّئة بمثلها ، ولكنّهم يعفون ويصفحون ولا يقولون إلاّ حقًّا ، فكلّ إناء بالذى فيه ينضح .

قالوا : إنّ المسيح عليه السلام مرّ على جماعة من اليهود ، فقالوا فيه شرًّا ، وقال فيهم خيراً ، فقالوا له : يقولون فيك شرًّا وتقول فيهم خيرا !! قال لهم : كلّ ينفق مّما عنده .

من كان عنده الخير أنفق الخير ، ومن لم يكن فى جعبته إلاّ الشرّ والخبث أنفق الشرّ والخبث ، وهذا ما قاله الشاعر العربىّ قديمًا :

ملكنا فكان العفو منّا سجيّة فلمّا ملكتم سال بالدم أبطح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكلّ إناء بالذى فيه ينضح

عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون ﴿ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ ، نزّهوا ألسنتهم أن تُلوّث باللغو من الكلام ، فلسان المؤمن جدير أن يملأه ويرّطبه بذكر الله عزّ وجلّ ، بتلاوة القرآن ، بالتسبيح ، بالتحميد ، بالتهليل ، بالتكبير ، بالاستغفار ، بشىء من هذا .

أمّا بالرّدّ على الجهّال - وما أكثرهم ! - فينزّه لسانه عنه ، ويحرص على وقته . . على عمره أن يضيع فى هذا الباطل .

العمر ثمين ، والوقت نفيس ، وهوكالسيف إن لم تقطعه قطعك ، ولهذا كان على عباد الرحمن أن يعمروا أوقاتهم بالخير ، وأن يعرضوا فيها عن اللّغو .

ومن هنا كان من أوصاف المؤمنين الأولى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (1) .

ينزّهون ألسنتهم ، يحفظون أوقاتهم وأعمارهم ، يحفظون صحائف حسناتهم ، يريدون أن تمتلىء بالحسنات والخيرات ، بدل أن يُكتب عليهم شىء من السّيّئات أو شىء لا لهم ولا عليهم .

يريدون أن يكونوا أصحاب الفضل يوم القيامة ، فقد جاء فى الحديث الذى

---

(1) المؤمنون : ٢، ٣ .

رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه : « إذا جمع الله تعالى الخلائق نادى منادى : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس هم يسير (أعداد قليلة ، ليسوا جمًّا غفيرًا) فينطلقون سراعًا إلى الجنّة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إنّا نراكم سراعًا إلى الجنّة فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : ما كان فضلكم؟ فيقولون : كنّا إذا ظُلمنا صبرنا ،وإذا أُسيىء إلينا غفرنا ،وإذا جُهل علينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين » (١) .

عباد الرحمن يريدون أن يكونوا من أهل الفضل هؤلاء .

هناك مرتبتان: مرتبة العدل ومرتبة الفضل .

مرتبة العدل: أن تقابل السيّئة بمثلها ، **ومرتبة الفضل:** أن ترتفع عن ذلك ، فتقابل السيّئة بالحسنة ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـــدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢) .

إذا كانت هناك طريقتان : طريقة حسنة وطريقة أحسن منها ، فادفع بأحسن الطرق ،وبأحسن الوسائل ، بالكلمة الطيّبة ، بالفعل الجميل ، بالإحسان ، بتقديم خدمة حتي لمن أساء اليك: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ :كأنّه صديق قوىّ الصداقة ،وذلك لأنّ الإنسان أسير الإحسان .

إذا أحسنت إلى إنسان، فإن إحسانك إليه يشدّه إليك ويقرّبه منك، كما قال القائل :

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهم　　فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

جاء رجل إلى ترجمان القرآن وحبر الأمّة : عبد الله بن عباس ﷺ ، فسبَّه وتطاول عليه ، فنظر ابن عباس إلى مولاه عكرمة وقال : يا عكرمة ، أنظر هل للرجل من حاجة فتقضيها له ؟ فنكّس الرجل رأسه واستحى وانصرف .

وتطاول رجل على علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ ﷺ ، فكان عليه قميصه فأعطاه إيّاه ، وأمر له بألف درهم .

---

(١) قال البيهقىّ : هذا متن غريب وفى إسناده ضعف والله أعلم (شعب الإيمان : تحقيق محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، ٦/٢٦٣ برقم ٨٠٨٦ ، باب فى حسن الخلق / فصل فى التجاوز والعفو وترك المكافأة) .　　(٢) فصّلت : ٣٤ .

هكذا كان الأفاضل الشرفاء الأبرار من النّاس يقابلون السّيّئة بالحسنة ٠

سُئل أنس بن مالك – خادم رسول الله ﷺ – عن هذه الآية : ﴿ ٠٠٠ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١) ما معناها ؟ قَالَ : هو الرجل يشتمه أخوه فيقول له : إن كنت صادقًا فغفرَ الله لِى ، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك !! ٠

أنظروا إلى هذه النفس الكبيرة ، يقول له : يا ظالم أو يا فاسق أو يا مرائى أو يا كذّاب أو يا كذا ، فيردّ عليه هذا الرد : إن كنتَ صادقًا وأنا ظالم أومراء أو فاسق فغفر الله لِى ، وإن كنتَ كاذبًا فغفر الله لك كذبك ٠

وبهذا تنطفىء نار الغضب ،والغضب جمرة من النّار يلقيها الشيطان فى جوف ابن آدم ، فعليه أن يطفئها بالحلم ، بكفّ النفس واللسان ٠

ومن هنا كانت وصيّة النبى ﷺ لكثير ممّن استوصوه من الصحابة : « لا تغضب » ٠

سأله رجل وصيّة وقال له : أقلل يا رسول الله (يعنى أريد كلامًا قليلاً ، لا أستطيع أن أحفظ الكلام الكثير) فقال له : « لا تغضب » فأعاد عليه السؤال وأعاد عليه النبى ﷺ الجواب (٢) ٠

ومعنى « لا تغضب » : لا تطع الغضب ، أى إذا غضبت فكفّ نفسك ، ألجمها بلجام التقوى ، لا تطع شيطان الغضب فتتصرّف تصرّف السفهاء ، ومعناها أيضًا : لا تضع نفسك مواضع الغضب ، ابعد عن أسباب الغضب ما استطعت ٠

هذا هو شأن الإنسان المؤمن ، لا يغضب ولا يعرّض نفسه للغضب ، وإذا غضب أمسك لسانه ويده ، فلا يتكلّم إلاّ بخير ، ولا يبسط يده إلاّ إلى خير ٠

سبّ رجل رجلاً عند النبى ﷺ فقال المسبوب لسابّه كلّما شتمه : عليك

---

(١) فصّلت : ٣٤ ٠

(٢) جاء ذلك فى حديث جارية بن قدامة الذى رواه أحمد ، ورواته رواة الصحيح ، وابن حبّان فى صحيحه ، ولفظ أحمد : أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ، قل لى قولاً واقلل لعلّى أعيه ،قال:«لا تغضب» فأعاد عليه مرارًا ، كلّ ذلك يقول : « لا تغضب » أنظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٧٢٦ ، الحديث ١٦٥٣) ٠

السلام ، عملاً بهذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (١) ، فقال النبى ﷺ : « أما إنّ ملكًا بينكما يذبّ عنك ، كلّما يشتمك هذا ، قال له : بل أنت وأنت أحقّ به ، وإذا قال له: عليك السلام قال: لا بل لك أنت أحقّ به»(٢) .

أى أنّ الله يبعث من الملائكة من يذود عن هذا المظلوم الذى كفّ لسانه وغضبه، ولم يردّ على الجهل بمثله .

جاء فى صحيح البخارى(٣) : أنّ ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدم عيينة ابن حصن بن حذيفة (أحد جفاة الأعراب وكان سيّدًا فى قومه) فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر - رضي الله عنه - ومشاورته كهولاً كانوا أو شبّانا ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه ، فاستأذن الحرّ لعيينة ، فأذن له عمر، فلمّا دخل عليه قال : هِيْ يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجَزْل ،ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همّ به ، فقال له الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إنّ الله تعالى قال لنبيّه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤) وإنّ هذا من الجاهلين .

« خذ العفو » : أى ما عفا لك وتيسّر من أخلاق النّاس ، عامل كلّ إنسان على قدر طاقته، ولا تتطلّب الكمال فِى النّاس .

« وأمر بالعرف » : ما تعرفه الفطر والعقول السليمة .

« وأعرض عن الجاهلين » : لا تشغل نفسك بهم .

وكان عمر - رضي الله عنه - وقّافًا عند كتاب الله عزّ وجلّ ، فما كاد يتلو هذه الآية ، حتى هدأ كلّ ما فى نفسه ، وأعرض عنه .

وهكذا ينبغى أن يكون الإنسان المؤمن : يعرض عن الجاهلين ، لا يشغل نفسه بهم ، إنّه مشغول بما هو أعظم من ذلك ، ليذكر الله تبارك وتعالى ، وليذكر الآخرة، وليذكر الحساب والجزاء .

---

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٤٥) ، وذكره الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٥) وقال : رجاله رجال الصحيح غير أبى خالد الوالبى وهو ثقة .

(٣) كتاب التفسير ، باب : « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . أنظر : (البخارى مع الفتح) برقم (٤٦٤٢) .

(٤) الأعراف : ١٩٩ .

أغلظ رجل لعمر بن عبد العزيز - وهو خليفة وأمير المؤمنين - فى القول ، ففكّر عمر وأطرق مليًا ، ثمّ قال له : أردت أن يستفزّنى الشيطان بسيف السلطان ، فأنال منك اليوم ما تناله منّى غدا ، لا والله ·

أراد أن يستفزّه الشيطان لما له من سلطة ونفوذ ، فيعاقب الرجل بما عنده من قدرة وسلطان، وإذا عاقبه اليوم فقد يُنال منه غدًا ، لأنّ هناك قصاصًا يوم القيامة ، حتى يقتصّ للشاء الجمّاء - التى لا قرن لها - من الشاة القرناء ، إذا نطحت صاحبتها(١) ·

هكذا كانت أمتّنا : أمّة حلم ،وأمّة علم ·

كانوا لا يشغلون أنفسهم بالتوافه ، ولا يشغلون أنفسهم بمعارك ·

عباد الرحمن يقولون : (سلاما) إذا خاطبهم الجاهلون ، لأنّهم مشغولون بما هو أعظم، مشغولون بدينهم ، مشغولون بآخرتهم ، مشغولون بأمر أمّتهم ، وليسوا مشغولين بالانتصار للنفس ·

الذين ينتصرون لأنفسهم ، الذين يدورون حول ذواتهم ،الذين جعلوا من أنفسهم أصنامًا يُطاف بها ، هؤلاء هم الذين يعيشون فى معارك دائمًا ·

من أجل كلمة يقيم أحدهم حربًا،من أجل لفظة يقولها هذا أو ذاك يمتلىء قلبه حقدًا ، ويدير الحياة من وراء ذلك على هذا الأساس ، يتخذ من هذا خصمًا ومن هذا عدوًّا من أجل كلمة قيلت ،ولعلّها قيلت فى ثورة غضب ·

عباد الرحمن ليسوا كذلك ، إذا غضبوا فإنّما يغضبون لله ، يغضبون لذات الله، يغضبون لحقّ العقيدة ، يغضبون لحقّ الشريعة ، يغضبون لحقّ الأمّة ·

وهكذا كان رسول الله ﷺ ، لا يغضب لنفسه ، ولا يغضب للدنيا ·

خدمه أنس بن مالك عشر سنين ، وقال فى ذلك : « خدمت رسول الله

---

(١) فقد جاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أنّ رسول الله ﷺ قال : « يُقتصّ للخلق بعضهم من بعض ، حتى للجمّاء من القرناء، وحتى للذرّة من الذرّة » ورواته رواة الصحيح كما قال المنذرى ، وقال الشيخ القرضاوى معلّقًا على هذا الحديث : المقصود بهذا القصاص - والله أعلم - إبراز العدل الإلهى المطلق فى أبلغ صورة ،وأنّ أحدًا لن يضيع حقّه يوم القيامة،وإلاّ فإنّ هذه الحيوانات ليست مكلّفة،ولا ثواب لها ،ولا عقاب عليها (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٩٣٠ برقم ٢٢٥٩) ·

ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لى أفًا قطّ ،ولا قال لى لشىء لم فعلت كذا وهلاّ فعلت كذا » (١) .

هذا الخلق العظيم ، وهذه النفس السمحة ، وهذا الطبع الكريم ، كان فى شؤونه الشخصيّة ، ولكنّه كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله عزّ وجلّ ، كان - كما قال علىّ - : « لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له » (٢) .

كان يغضب لله ولا يغضب لشخصه ، وهذا هو شأن عباد الرحمن ، لا يغضبون لأنفسهم فى الشؤون الشخصيّة .. فى شؤون الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ،والتعامل والتحاسب ،والصحبة والجوار ، ولا يشغلون أنفسهم بمعارك جزئيّة ، إنّما يشغلون أنفسهم بمعركة الإسلام والوجود الإسلامِى وهذا ما ينبغى أن يعرفه المسلمون فى عصرنا .

من أراد أن يكون من عباد الرحمن ، فليدع هذه المعارك التى يفتعلها الناس بعضهم مع بعض .

الدنيا - والله - أهون من أن يتعارك عليها النّاس ، إنّها لا تزن عند الله جناح بعوضة ،والنفس أهون من أن يتقاتل عليها النّاس .

لماذا ينتصر الناس لأنفسهم ؟ من أنت أيّها الإنسان ؟ أيّها التراب الذى يمشى على التراب ويصير إلى التراب .

لا تغضب لنفسك ولكن اغضب لربك ، لا تغضب لدنياك ولكن اغضب لدينك .

فأين منّا من يغضبون لربهم ؟ وأين منّا من يغضبون لدينهم ؟ وأين منّا من يتنازلون عن حقوقهم لإخوانهم ؟ أين الأذلّة على المؤمنين ، الأعزّة على الكافرين ؟

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقّهنا فِى ديننا ، وأن يجعلنا من عباد الرحمن ﴿ الَّذِينَ

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم فى كتاب(الفضائل) باب (حسن خلقه ﷺ) . انظر (صحيح مسلم بشرح النووى : ١٥/٦٩) .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى (١٧١/٣) ط. دار المعرفة ببيروت ، وعزاه الحافظ العراقى فى تخريجه إلى الترمذى فى الشمائل .

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ،أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١) .

أقول قولى هذا واستغفر الله لِى ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

من معارك الإسلام اليوم : معركة المسلمين فى أفغانستان .

قدّر الله لأمتنا الإسلاميّة فى هذا العصر أن تخوض معارك شتّى : معارك مع اليهودية العالميّة ، ومعارك مع الصليبيّة الغربيّة والشرقيّة ، ومعارك مع الشيوعيّة الدوليّة ، معارك فِى كلّ مكان .

ومن أعظم هذه المعارك : معركة إخواننا فى أفغانستان ، معركتهم مع الشيوعيّة الحمراء ، مع الإلحاد الأحمر ، الذى ينكر وجود الله عزّ وجلّ ، وينكر الآخرة ، وينكر النبوّات والرسالات ، وينكر القيم الأخلاقية ، وينكر الإسلام خاصّة .

الإلحاد الشيوعى يحارب الأديان جميعًا ، ولكنّه يخصّ الإسلام بمزيد من الحرب والنقمة لعداوات تاريخيّة .

هذا الإلحاد الشيوعى الأحمر لم يكتف بالتسلّل إلى بلاد المسلمين ، وغزوها من الداخل عن طريق التضليل الماركسىّ والغزو الفكرى ، الذى اصطاد ضحاياه من أبناء المسلمين الذين جهلوا دينهم ، وجهلوا حقيقة رسالتهم .

لم يكفه هذا حتى أراد أن يغزو المسلمين بالسلاح ، وبدأ هناك فى أفغانستان ، وأقول لكم : إنّ أفغانستان تمثّل خطّ الدفاع بالنسبة للمسلمين جميعًا ، لو انهار هذا الخط سيزحفون على ما بعدها ويهدّدون هذه البلاد كلها .

ولذلك فإنّ المجاهدين فى أفغانستان لا يدافعون عن أرض الإسلام فى أفغانستان فقط ، ولكنّهم يدافعون عن شرف الإسلام ، وعن شرف الأمّة الإسلاميّة كلّها ، يدافعون عن كرامة هذا الدين ، وهم يقاتلون وليس لهمْ نصير إلاّ الله عزّ وجلّ .

---

(١) الزمر : ١٨ .

لقد بدأوا معاركهم بما معهم من مال قليل وسلاح ضئيل ·· ببندقيّات قديمة ، ثمّ بدأوا يأخذون أسلحتهم من أعدائهم ، غنائم يغنمونها ، فكانت عندهم بعد ذلك دبابات وغيرها ·

هؤلاء يحتاجون إلى العون ·· إلى أن نعينهم بما نقدر عليه ، إذا كانوا يجودون بالدم ، فلا أقلّ من أن نجود بشيء من المال ، والله تعالى يقول : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ·· ﴾ (١) ، قدّم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس، لأنّه لا جهاد إلاّ بمال ·وكما قال تعالى : ﴿ ·· وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ·· ﴾ (٣) .

ومن فضل الله أنّه اشترى أنفسًا هو خالقها ، وأموالاً هو رازقها ، ثمّ أعطى الثمن غاليًا : جنّة عرضها السموات والأرض ·

ويقول النبى عليه الصلاة والسلام : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم » (٤) .

الجهاد بهذه الثلاث :

الجهاد بالنفس ، والجهاد بالمال ، والجهاد باللسان، وفي عصرنا بالقلم أيضًا ، كلّ هذه الألوان من الجهاد ·

ويقول عليه الصلاة والسلام - فيما جاء فى الصحيحين - : « من جهّز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا » (٥) « من مات

---

(١) التوبة : ٤١ ، وتتمّتها : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ·

(٢) البقرة : ٢٧٢ ·

(٣) التوبة : ١١١ ·

(٤) رواه أحمد ، وأبو داود، والنّسائى ، وابن حبان ، والحاكم ، عن أنس ﷺ ، ورمز له السّيوطىّ بالصّحّة فى الجامع الصغير (١/ ١٤٣) قال المناوى : قال الحاكم على شرط مسلم ، وأقرّه الذهبى ، وقال فى الرياض بعد عزوه لأبى داود : إسناد صحيح (فيض القدير : ٣/ ٣٤٤ برقم ٣٥٧٨) ·

(٥) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، عن زيد بن خالد الجهنى ﷺ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٧٣ برقم ٦٦٦) ·

ولم يغز ولم يحدّث به نفسه ،مات على شعبة من النفاق »[1] ، ولكن إذا لم تستطع أن تغزو ، ولم تتح لك الفرصة لتغزو ، تستطيع أن تغزو بصورة أخرى : أن تجهّز غازيًا فى سبيل الله ، أو تساهم فى تجهيزه، أو تخلف أهله بخير .

مليون ومائتا ألف شهيد فى أفغانستان !!

لأنّ هؤلاء من يقاتلون ؟!

إنّهم يقاتلون القوّة الثانية فى العالم ، إنّهم يقاومون إحدى الدولتين العظميين فى هذا العالم، إنّهم يقاومون (الاتحاد السوفيتى) بأسلحته وخبراته وما عنده ، وهو لا يبالى أن يضربهم بالقنابل العنقوديّة ،والقنابل النابالم ، وبكلّ سلاح محرم دوليًا، لأنّه لا يخاف الله ولا يستحى من النّاس .

ولهذا كان علينا واجب نحو إخواننا هؤلاء : أن نمدّ لهم يد العون ، أن نكون وراءهم بقلوبنا وألسنتنا وأموالنا حتى ينصرهم الله ، ونصرهم نصر لنا .. نصر للإسلام .. نصر لـ « لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله » ، ليظلّ الأذان مرتفعًا فى تلك البلاد التى فتحت منذ عهد الصحابة ، لتظلّ المئذنة ترسل : الله أكبر الله أكبر ، حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح .

هؤلاء الذين يقفون على رؤوس الجبال والثلج يغطّيهم عن يمينهم وعن شمالهم ، ويعيشون بكسرة من الخبز ، أو حبّات من التمر، أو كأس من الشاى ، لا يطلبون فخرًا ولا يطلبون بهرجًا ، إنّما يريدون القليل والأقل من القليل

إنّ لهؤلاء - كما قال عبد ربّ الرسول سيّاف رئيس اتحاد المجاهدين فى أفغانستان - حقًّا علينا .

فجودوا لهم - أيها الإخوة - وادفعوا ما استطعتم ،فالقليل على القليل كثير ، ﴿ .. وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[2] ﴿ ... وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، والنّسائى ، عن أبى هريرة ﷺ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٤٠٩ برقم ٧٥٧) .

(٢) سبأ : ٣٩ . (٣) المزمّل : ٢٠ .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يتقبّل منّا ، وأن يقبلنا ، وأن يغفر لنا ما مضى ، وأن يصلح لنا ما بقى .

اللّهمّ انصر أمّة الإسلام ، اللّهمّ ارحم أمّة الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على اليهود ، اللّهمّ انصرنا على الشيوعيين ، اللّهمّ انصرنا على الصليبيين المستعمرين ، اللّهمّ انصرنا على الكفرة الملحدين ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الدين ، اللّهمّ إنّا نجعلهم فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وصلّ اللّهمّ على عبدك ورسولك محمّد ،وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
٣ - قيام اللّيل

● الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لا زلنا نعيش مع عباد الرحمن ، مع هذه اللّوحة القرآنية التى رسمها الله تبارك وتعالى لعباده ، ليصوّر فيها نموذجًا لنا من النماذج الراضية المرضية عند الله تبارك وتعالى ، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾(١) .

حدّثنا الله تعالى عنْ حالهم فى أنفسهم ، وحالهم (التواضع) لا الفخر ولا الكبرياء : « يمشون على الأرض هونا » .

وحدّثنا عن حالهم مع النّاس ، وهى حالة من لا يشغل نفسه بالسفهاء ،ولا يخاطب الجاهلين إلاّ سلاما : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ .

وهو هنا يحدّثنا عن حالهم مع ربّهم ،وتتجلّى حالهم هذه فى جنح اللّيل ، إذا أرخى اللّيل سدوله ، إذا أوى النّاس إلى فرشهم ولحفهم ، كان لهم حال مع الله : «يبيتون لربّهم سجدا وقيامًا » ، والخليّون هُجّع ، والناس فِى غفلاتهم نائمـــون ، أو فِى سهرهم ماجنون ، أو فِى مجونهم ساهرون .. هناك «يبيتون لربّهم سجّدًا وقياما» .

إنّهم فى ليلهم بين سجود وقيام ، وهذه أظهر حال الصلاة : السجود والقيام «أقرب ما يكون العبد من ربه - عزّ وجلّ - وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » (٢) .

---

(١) الفرقان : ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) رواه مسلم ،وأبو داود،والنّسائى ، من حديث أبى هريرة ﷺ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ١٩٣ ، ٩٢٣) .

وُصفوا بالسجود حيث يضعون جبهاتهم على الأرض لله تبارك وتعالى ، هذه الجباه التى علت وارتفعت فلا تنحنى لمخلوق ، إنّما تنحنى لله سبحانه وتعالى ، راكعة ساجدة ، خاشية خائفة ، طامعة فى رحمة الله عزّ وجلّ .

« يبيتون لربهم سجّدًا وقياما » : فهم بين سجود وقيام ، يقومون يتلون كتاب الله ، يقرأون كلام الله ، يسألونه الرحمة ، ويستعيذون به من النّار .

إنّهم يفعلون ذلك ليس طلبًا لمرضاة أحد ، ولا ابتغاء محمدة أو شهرة ، وإنّما يفعلون ذلك لله : « يبيتون لربهم » .

إنّهم يبيتون لله ، يبتغون وجهه ، يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، وصدق الله العظيم حينما وصف أمثال هؤلاء فقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ . ﴾ [1] هذا هو العلم ، العلم بما أعدّه الله لعباده الصالحين فى الآخرة من نعيم ، وما أعدّه للآخرين من عذاب أليم .

« يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه » : كان لبعض السلف غلام ، خادم عندهم، فكان يقوم اللّيل ، فقال له مولاه (سيّده) : إنّ قيامك بالليل يؤثّر على عملك فى النّهار .

قال : وماذا أعمل ؟ إنّى إذا تذكرت الجنّة طال شوقى ،وإذا تذكرت النّار طال خوفى ، فكيف لى أن أنام بين خوف يزعجنى وشوق يقلقنى ؟! .

هؤلاء هم الذين ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [2] ، رغم أنّ المضجع هنيىء والفراش ليّن ، فإنّهم يَدَعُون ذلك كلّه لله .

روى الإمام أحمد [3] عن ابن مسعود عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : « عجب ربنا تعالى من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبّه إلى صلاته ، فيقول الله جلّ وعلا : أنظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبّه وأهله

---

(١) الزمر: ٩، وتتمّتها: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ . (٢) السجدة: ١٦ .

(٣) ورواه أيضًا أبو يعلى والطبرانى وابن حبان فى صحيحه. ، وحسّن الهيثمى إسناده (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٢١ ، الحديث ٣٢٣) .

إلى صلاته رغبة فيما عندى ، وشفقة ممّا عندى . ورجل غزا فى سبيل الله ، وانهزم أصحابه ، وعلم ما عليه فى الانهزام ،وما له فى الرجوع ، فرجع حتى يُهريق دمه ، فيقول الله : أنظروا إلى عبدى رجع ، رجاء فيما عندى وشفقة ممّا عندى ، حتى يُهريق دمه » .

الخوف والطمع ، أو الرغبة والشفقة ، الرغبة فيما عند الله من المثوبة ، والشفقة ممّا عنده من العقوبة ، هو الذى جعله يترك الفراش اللّيّن والمضجع الطيّب إلى الله عزّ وجلّ .

الرجل الآخر : الذى غزا لله ، وحينما رأى أصحابه انهزموا ، وعلم ماله فى الرجوع وما عليه من الفرار ، رجع وقاتل حتى أهريق دمه ، يعجب الله منه ويُباهى به ملائكته .

كلاهما مجاهد ، كلاهما مكابد ، هذا جاهد النّفس حتى أهراق دمه فى مرضاة الله ، وهذا كابد اللّيل وقام يرضى الله سبحانه وتعالى .

الله تعالى وصف المتقين بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) ، قلّ هجوعهم ، وقلّ نومهم باللّيل ، وفى آخر اللّيل يستغفرون ، يشعرون بالتقصير رغم قيامهم ومكابدتهم لليّل وطوله ،وبأنهمّ مفرّطون فى جنب الله ، مقصّرون فى حقّ الله ، فيطلبون المغفرة من الله عزّ وجلّ .

كان بعض السلف يقوم من اللّيل حتى إذا جاء السحر قال : يا ربّ إنّ مثلى يستحى أن يسألك الجنّة ، فأسألك برحمتك أن تجيرنى من النّار .

يرى أنّه ليس أهلاً لأن يطلب الجنّة ،فحسبه أن يسأل النّجاة من النّار !

هؤلاء هم الذين حدا بهم الخوف والطمع - الخوف ممّا عند الله والطمع فيما عند الله - إلى أن يَصفّوا أقدامهم لله راكعين ساجدين ، يُناجونه قائلين :

سهر العيون لغير وجهك باطل وبكـــــاؤهنّ لغير فقدك ضائع !

توفى سيّد الصوفيّة فى عصره ، وشيخ المربّين الروحيين : الجنيد رحمه الله ،

---

(١) الذّاريات : ١٥ - ١٨ .

فرآه بعض أصحابه فى المنام ، فسأله عن حاله ، فقال له : ذهبت الإشارات ، وطاحت العبارات ، وضاعت العلوم ، وفنيت الرسوم ، ولم ينفعنا إلاّ ركيعات كنّا نقوم بها فِى جوف اللَّيل !

وصف الشاعر ابن الرومى هؤلاء القوّام ، المستغفرين بالأسحار فى قصيدة له وصفًا مُبدعًا حينما قال :

تتجافى جنوبهم   عن وطِىء المضاجع
كلّهم بين خائف   مستجير وطامع
تركوا لذّة الكرَى   للعيون الهواجع
ورعوا أنجم الدُّجى   طالعًا بعد طالع
لو تراهم إذا هُمُ   خطروا بالأصابع
وإذا هم تأوّهوا   عند مرّ القوارع
وإذا باشروا الثرى   بالخدود الضوارع
واستهلّت عيونهم   فائضات المدامع
ودعوا : يا مليكنا   يا جميل الصنائع
اعف عنّا ذنوبنا   للوجوه الخواشع
اعف عنّا ذنوبنا   للعيون الدوامع
أنت - إن لم يكن   لنا شافع - خيرُ شافع
فَأُجِيبوا إجابة   لم تقع فِى المسامع
ليس ما تصنعونه   أوليائى بضائع
تاجرونى بطاعتى   تربحوا فى البضائع
وابذلوا لى نفوسكم   إنّها فِى ودائعى !(1)

(1) ديوان ابن الرومى : ٤/١٤٨٢ ، ١٤٨٣ ، طبعة دار الكتب المصريّة .

هؤلاء هم قوّام اللّيل تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، واللّيل للنّاس فيه أحوال ومنازل :

هناك من يقضى اللّيل فى طاعة الله ، وهناك آخرون يقضونه فى نوم إلى الصباح ، وهناك من يسهرون اللّيل ، ولكن فيم يُسهرون الجفون ؟ وفى أىّ حال يعيشون ؟

إنّ هناك من يسهر فى اللّهو والمجون ، هناك من يسهر فى لهو وعبث حتى قُرْب الفجر ، فإذا قَرُب الفجر نام ، ولم يقم إلاّ فى الضحى أو فِى الظهر .

هناك من يبيت ليله ليلاً أحمر فى شهوات ومنكرات ، يعبّ من الشهوات ، ويقارف المنكرات ، لا يخشى خالقًا ، ولا يستحى من مخلوق .

هناك من يقضى اللّيل فى إجرام ، يُبيّتُ المكايد والشرور والأذى للنّاس .

وهناك من لا همّ له إلاّ الأكل والشرب والنوم ، فنهاره شراب وطعام ، وليله رقود ومنام ، على نحو ما قال القائل :

إنّما الدنيا طعـــــام وشـــــراب ومنام
فإذا فاتـك هـــــذا فعلى الدنيا السلام !

هذه أنواع من اللّيل لأصناف من الناس ، وأمّا ليل هؤلاء : فهم « يبيتون لربهم سجّدا وقياما » .

كان رسول الله ﷺ - كما وصفته عائشة - : « يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه » أى : تتشقّق ، وفِى بعض الروايات : « حتى تتورّم قدماه » فقالت له : لم تصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ قال : « أفلا أحبّ أن أكون عبدًا شكورًا » (١) .

دخل عليها يومًا عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح فسألاها : أخبرينا بأعجب شىء رأيته من رسول الله ﷺ ؟ فسكتت ، ثمّ قالت : لما كان ليلة من الليالى قال : « يا عائشة ، ذرينى أتعبّد الليلة لربّى » ، قلت : والله إنّى أحبّ قربك ، وأحبّ ما يسرّك ،قالت: فقام فتطهرّ ، ثمّ قام يصلىّ ، قالت : فلم يزل يبكى حتى بلّ حجره ،

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، عن عائشة رضي الله عنها (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢١٨/١ برقم ٣١٢) .

قالت : وكان جالسًا ، فلم يزل يبكى ﷺ حتى بلّ لحيته ، قالت : ثمّ بكى حتى بلّ الأرض ، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فلّما رآه يبكى قال : يا رسول الله ، وتبكى وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ لقد نزلت علىّ الليلة آية ، ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) - الآية كلّها - » (٢) .

هكذا كان ليله ﷺ ، وهكذا كان أصحابه ٠

كانوا يشمّرون عن ساعدهم ، كانوا يحاولون أن يقوموا الليل كلّه ، وكان منهم من لا يكتفى بقيام نصف اللّيل أو ثلثيه ،ويريد أن يقوم اللّيل كلّه ، والنّبىّ ﷺ يحاول أن يردّهم إلى الاعتدال حتى يدوموا عليه ، فـ « أحبّ الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قلّ » (٣) .

كانت أشواقهم عالية ، كانت هممهم رفيعة ، فلم يكونوا يقتصرون على الفرائض ، بل كانوا يحبّون أن يتنفّلوا وأن يستزيدوا ،وأن يكثروا من رصيدهم عند الله عزّ وجلّ ، هكذا كان سلف هذه الأمّة ٠

باع الحسن بن صالح - من فقهاء السلف - جارية كانت عنده لقوم ، فلمّا كان الثلث الأخير من الليل قامت تنادى فيهم : الصلاة ٠٠ الصلاة ، فقالوا لها : أأصبحنا ؟ أطلع الفجر ؟ قالت لهم : وما تصلّون إلاّ الفجر ؟! قالوا : بلى ما نصلّى إلاّ المكتوبة ، فرجعت إلى سيّدها الأوّل وقالت له : بعتنى لقوم ليس لهم حظّ من اللّيل ، بالله عليك إلاّ رددتنى !

هكذا كانوا ، أحرارًا وعبيدًا ، حرائر وإماء ، ورجالاً ونساء ، كانوا يقومون اللّيل كلّه ٠

مرّ أبو حنيفة - وكان يقوم بعض الليّل - على قـوم فقال بعضهم وأشار إليه :

---

(١) آل عمران : ١٩٠ وما بعدها ٠

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث عبيد بن عمير ﵁ ، ونسبه ابن كثير فى تفسيره أيضًا إلى ابن أبى حاتم وابن مردويه وابن أبى الدنيا ، وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرًا على جزء من آخر الحديث ،وانظر نصّ الحديث فى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ١/٤٢٨ - ٤٢٩ برقم ٨١٠) ٠

(٣) متفق عليه من حديث عائشة ﵂ (الجامع الصغير : ١/١١) قال المناوى : ورواه أحمد بلفظ : « أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قلّ » والله أعلم (فيض القدير: ١/١٦٥ - ١٦٦ برقم ١٩٧) ٠

هذا هو الرجل الذى يُحيى اللّيل كلّه ، فقال : والله إنّى لأستحيِ من الله أن أُوصف بما لا أفعل ، فكان بعد ذلك يحيى اللّيل كلّه .

وكان منهم من يقوم جزءاً منه ، وهذا هو الأوفق للسنّة والأرفق للبدن . قال النبى ﷺ : « أحبّ الصلاة إلي اللهّ صلاة داود ، وأحبّ الصيام إلي الله صيام داود ، كان ينام نصف اللّيل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه .. » (١) .

أى ينام الجزء الأخير من الليل حتى يقوم بنشاط .

فكانوا حريصين على جوف اللّيل ، كما جاء في الحديث : « أفضل الصلاة بعد المكتوبة الصلاة في جوف الليل » (٢) .

وقد ورد أنّ الله سبحانه وتعالى ينزل إلي عباده ويتجلّى عليهم في الثلث الأخير من الليل ويناديهم : هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فَيُعطى سُؤله ؟ هل من كذا هل من كذا حتى يطلع الفجر (٣) .

إنّها ساعات الأسحار .. ساعات التجلّى : « أقرب ما يكون الرب من العبد

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢١٨ برقم ٣١٣) ، وتتّمة الحديث : « ويصوم يوما ، ويفطر يوماً » .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ ، والرويانى في مسنده ، والطبرانى في الكبير عن جندب (الجامع الصغير : ١ / ٥٠) قال المناوى : ووهـم الطبراني في عزوه له (فيض القدير : ٢ / ٤١ - ٤٢ برقم ١٢٧٤) وتتمّة الحديث : « وأفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرّم » .

(٣) عن أبى هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا كلّ ليلة إلي سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له ؟ » رواه مالك والبخـارى ومسـلم والترمذى وغيرهم ، وفي رواية لمسلم : « إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله - تبارك وتعالى - إلي السـماء الدنيا ، فيقول ; هل من سائل فيعطى ؟ هل من داع فيُستجاب له ؟ هـل من مستغفر يُغفر له ؟ حتى ينفجر الصبح » . قال الشيخ القرضاوى معلّقًا على الحديث : والمؤمن يسلم بصّحة الحديث ، ويوقن بمضمونه ، ولا يخوض في كنهه ، وينزه الله تعالى عن مشابهة خلقه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٤٧٦ - ٤٧٧ برقم ٩٢٤) .

في جوف اللّيل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممّن يذكر الله في تلك الساعة فكن » (١) .

ومن لم يستطع أن يكون له حظّ من الليل ، لا نصف ولا ثلث ، ولا سدس ، فليحرص على أن يُصلّى العشاء في جماعة والصبح في جماعة ، فإنّ النبى ﷺ قال : « من صلّى العشاء فِى جماعة فكأنّما قام نصف الليل ، ومن صلّى الصبح في جماعة فكأنّما صلّى الليّل كلّه » (٢) .

ومن لم يفعل ذلك ، من كان أدنى من هذه المنازل ، فليحرص على الصلوات في أوقاتها ، ولا يضيع الصلاة حتى تشرق عليه الشمس وهو نائم .

ذُكر عند النبى ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح ، قال : « ذاك رجل بال الشيطان فِى أذنيه » (٣) ، قال الحسن : إنّ بوله واللّهّ لثقيل .

وما أكثر الذين جعلوا من آذانهم مباول للشيطان !

لقد فسد على النّاس نظام حياتهم ، كان النّاس من قبل ينامون مبكّرين ، ويستيقظون مبكّرين ، فلمّا جاءت الأجهزة الحديثة - أجهزة الإعلام والأفلام والمسلسلات - التى تُسهر الناس إلي ما بعد نصف الليل ، أصبح من العسير على الناس أن يقوموا في الصباح الباكر .

ينبغى أن تكون الصلاة هى المنظّم لحياة المسلمين ، ولمواعيد يقظتهم ونومهم ، ليستقبلوا الصباح الباكر من يد اللهّ طهوراً قبل أن تلوثّه أنفاس العصاة ، ففى الحديث : « اللّهمّ بارك لأمّتِى فِى بكورها » (٤) .

---

(١) رواه الترمذى واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح غريب ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ، والحاكم وصحّحه على شرط مسلم ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢٢٠ برقم ٣٢١) .

(٢) رواه مالك ، ومسلم واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٧٤ برقم ٢٠٣) .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، والنّسائى ، وابن ماجه ، عن ابن مسعود ورواه أحمد بإسناد صحيح عن أبى هريرة وقال : « في أذنه » على الإفراد وزاد في آخره قول الحسن (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢٢٣ - ٢٢٤ برقم ٣٣١) .

(٤) رواه الأربعة ، وحسنّه الترمذى ، وصحّحه ابن حبان من حديث صخر بن =

ورد عن النبى ﷺ فيما رواه البخارىّ : « يعقد الشيطان على قافية رأس [1] أحدكم - إذا هو نام - ثلاث عقد ، يضرب على كلّ عقـدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلّت عقدة ، فإن توضأ انحلّت عقدة ، فإن صلّى انحلّت عقده كلّها ، فأصبح نشيطاً طيبّ النفس ، وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان » [2] لازالت عقد الشيطان على رأسه ، ولذلك قال النبى ﷺ : « فحلّوا عقد الشيطان ولو بركعتين » [3] .

هكذا يريد منّا رسول الله ﷺ : ألاّ نستسلم للشيطان .

إنّ الذى يعين الناس على قيام الليل - كما قال الإمام الغزالى رضي الله عنه [4] - أن يتخفّفوا من المآكل والمشارب ، وقد قال بعض الصالحين : لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسّروا عند الموت كثيراً .

ومّما يعين - أيضًا - على ذلك : ألاّ يجهد الإنسان نفسه بالنّهار فلا يستطيع القيام بالليل ، وأن يستعين كذلك على قيام الليل بالقيلولة كما ورد في الأثر [5] .

دخل الحسن البصرى السوق فوجد أهله في شغل شاغل بدنياهم ، وعجب من لغطهم ولغوهم فقال : ما أظنّ ليل هؤلاء إلاّ ليل سوء فإنّهم لا يقيلون .

= وداعة الغامدى ، وزاد : وكان - أى النبى ﷺ - إذا بعث سريّة أو جيشاً بعثهم أول النهار ، قال : وكان صخر تاجراً ، فكان يبعث في تجارته فِى أوّل النّهار ، فأثرى وكثر ماله ، أنظر (المقاصد الحسنة للسخاوى : حديث ١٧١) .

(١) قافية الرأس : مؤخّرة ، ومنه سمّى آخر بيت الشعر قافية .

(٢) رواه مالك ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنّسائى وابن ماجه ، وابن خزيمة في صحيحه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢١٦ برقم ٣٠٧) .

(٣) هذه الزيادة أوردها ابن خزيمة في صحيحه .

(٤) في الباب الثانى من كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل ، وهو الكتاب العاشر من (إحياء علوم الدين) ، وبه اختتام ربع العبادات .

(٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما : « استعينوا بطعام السحر على صيام النّهار ، وبالقيلولة على قيام الليل » رواه ابن ماجه ، والحاكم وصحّحه ، والبزار ، والطبرانى في الكبير ، والبيهقى في الشعب ، ورمزله السيوطى بالصّحّة ، لكن فيه زمعة بن صالح ضعيف لخطئه ووهمه وإن كان صدوقاً (فيض القدير للمناوى : ١ / ٤٩٤ برقم ٩٨٦) (كشف الخفاء للعجلونى : ١ / ١١٩ برقم ٣٣٠) .

ثمّ على الإنسان بعد ذلك أن يبتعد عن الحرام ، وأن يجتنب الذنوب ، قال سفيان الثورى : حرمت قيام الليل خمســة أشهر بذنب أذنبته ، قيل : وما ذاك الذنب ؟ قال : رأيت رجلاً يبكى فقلت في نفسى : هذا مراء يرائى النّاس ·

وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد إنّى أبيت معافي وأحبّ قيام اللّيل وأعدّ طهورى فما بالى لا أقوم ؟ قال : لعلّ لك ذنوباً قيدّتك ·

وعلى الإنسان المسلم الذى يريد أن يتشبّه بهؤلاء :

فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم   إنّ التشبّه بالرجـــــال فلاح

عليه أن يتذكّر الآخرة ، يتذكّر الموت وما بعده ، كان بعضهم يقول لنفسه إذا أراد النّوم :

يا طويل الرقاد والغفـلات   كثرة النّوم تورث الحسرات

إنّ في القبر إن نزلت إليه   لرقاداً يطول بعـــــد الممات

عليه أن يتذكّر الجنّة والنّار ، قال طاووس : إنّ ذكر جهنمّ طيّر النّوم من أعين العابدين ·

على الإنسان أن يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، يقول ﷺ : « عليكم بقيام اللّيل فإنّه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلي ربّكم ، ومكفرة للسيّئات ، ومنهاة عن الإثم » (١) ·

قيام اللّيل يبدأ من بعد صلاة العشاء إلي الفجر ·

تستطيع أن يكون لك حظّ في هذا الوقت ، وإذا لم تكن تستطيع أن تقوم قبل الفجر ، فصلّ بعد العشاء ·

صلّ ما استطعت من ركعتين ، إلي أربع ، إلي ستّ ، إلي عشر ، إلي اثنتى عشرة ركعة ، واختم بالوتر (٢) ، فإنّ آخر صلاة اللّيل مشهودة ·

---

(١) رواه الترمذى ، وابن أبى الدنيا في كتاب التهجدّ ، وابن خزيمة في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢١٨ - ٢١٩ برقم ٣١٥) ·

(٢) عن عبد اللهّ بن عمر ، عن النبى ﷺ قال : « اجعلوا آخر صلاتكم باللّيل وترا » متفق على صحته (شرح السنة للبغوى : ٤ / ٨٦ برقم ٩٦٥) ·

على المسلم أن يستفيد من الليل ، من هذا الوقت الذى يتجلّى الله سبحانه وتعالى فيه لعباده ، وألاّ يضيع حظّه من الليل ، فإذا لم يكن له حظّ من اللّيل ، فكما قال بعض السلف : إذا لم يكن لك حظّ من اللّيل ، فلا تعصى ربّك فى النّهار ·

وهذا أدنى المنازل ·

أقلّ ما يطلب منك أن تؤدّى الفرائض ·

الله وصف (عباد الرحمن) بأنّهم : « يبيتون لربّهم سجّداً وقياما » ، ولم يصفهم بأنّهم يحافظون على الفرائض ، فهذه منزلة دون منزلتهم ، وهم أعلى من ذلك وأرفع ·

ذكر النبى ﷺ الجنّة فقال : « فِى الجنّة غرفة [١] يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » ، فقال أبو مالك الأشعرى : لمن هى يا رسـول الله ؟ قال : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات قائماً والنّاس نيام » [٢] ·

وقال عبد الله بن سلاّم : أوّل ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل النّاس إليه (أى أسرعوا ومضوا إليه) فكنت فيمن جاءه ، فلمّا تأمّلت وجهه ، واستبنته ، عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذّاب ، فكان أوّل ما سمعت من كلامه أن قال : « أيّها النّاس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والنّاس نيام تدخلوا الجنّة بسلام » [٣] ·

نسأل الله أن يجعلنا من هؤلاء ، إنّه سميع قريب ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، ادعو الله يستجب لكم ·

* *

---

(١) في المستدرك : « إنّ فِى الجنّة غرفا » والغرف : المنازل المرفوعة ·

(٢) رواه الطبرانى في الكبير بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢١٧ برقم ٣١٠) ·

(٣) رواه أحمد ، والترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه والدارمى ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢١٧ برقم ٣٠٩) ·

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد :

يقول النبى ﷺ : « من استيقظ من الليل ، وأيقظ أهله فصلّيا ركعتين ، كتبا من الذاكرين اللهّ كثيراً والذاكرات » (١) .

وقال : « رحم اللهّ رجلاً قام من الليل فصلّى ، وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلّن ، وأيقظت زوجها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء » (٢) .

ولا شكّ أنّ هذا النضح - وهو الرّشّ الخفيف - من باب الممازحة ، وهو إنّما يكون بناء على اتفاق بينهما ، فهما متفاهمان على طاعة اللهّ تعالى ، ولا يحبّ أحدهما أن ينفرد بالخير دون الآخر .

إنّها الأسرة المسلمة ، الأسرة التى تعيش في ظلال الرحمن ، في مرضاة الله تبارك وتعالى ، يعين كل منهما صاحبه على تقوى الله تعالى ومرضاته ، ونعم الزوجة تعين زوجها على أمر دينه ، ونعم الرجل يعين زوجته على طاعة اللهّ .

أين هذا ممّا نراه اليوم من أسر مفكّكة لا يكاد يعرف أحدهم الآخر ، وإذا تعارفوا فإنّما يتعارفون على أشياء غير ما يرضى اللهّ تبارك وتعالى ؟

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣) .

ورد أنّ فى يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له ، ولعلّها تكون هذه الساعة (٤) .

---

(١) رواه أبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢١٩ برقم ٣١٧) .

(٢) رواه أبو داود ، وهذا لفظه ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحيهما ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢١٩ برقم ٣١٦) .

(٣) التحريم : ٦ .

(٤) يشير الشيخ إلي حديث أبى هريرة المتفق عليه ، أنّ رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال : « فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئًا إلاّ أعطـاه إيّاه » =

اللهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة .

اللهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهمّ استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا [1] .

اللهمّ اغفر لنا ما مضى ، وأصلح لنا ما بقى .

اللهمّ أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [3] .

وصلّ اللهمّ على عبدك ورسولك محمدّ ، وعلى آله وصحبه وسلّم : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [4] .

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [5] .

* * *

= وأشار بيده يقللها ، والمراد بالساعة هنا معناها اللغوى وهو (برهة من الزمن) ولهذا قال : وأشار بيده يقلّلها ، ليسارة وقتها ، وأمّا تعيين هذه الساعة فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيرا ، أنظر في ذلك (زاد المعاد لابن القيم : ١ / ٣٨٨ - ٣٩٧) و (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ١ / ٢٤١ - ٢٤٣) .

(١) وهى من الكلمات التى لم يكن رسول الله ﷺ يدعها حين يمسى وحين يصبح ، كما ذكر ابن عمر رضى الله عنهما فيما رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، والحاكم . وانظر تعليق الشيخ على هذا الدعاء في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢٢٨ برقم ٣٤٣) .

(٢) الحشر : ١٠ .
(٣) آل عمران : ١٤٧ .
(٤) الأحزاب : ٥٦ .
(٥) العنكبوت : ٤٥ .

صفات عباد الرحمن
٤ - الخوف من النّار

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش مع عباد الرحمن ، مع أخلاق هؤلاء الربانيّين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، يقول اللهّ تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّها سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (١) .

وصف الله هؤلاء العباد :

وصف حالهم في أنفسهم بأنّهم : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ .

ووصف حالهم مع غيرهم بأنّهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ .

ووصف حالهم معه سبحانه فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا﴾ .

حيث يغفل الغافلون ، وينام النائمون ، ويغطّون في سبات عميق ، هؤلاء : ﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ .

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (٢) .

ما الذى دفعهم إلي هذا ؟ .

إنّه الخوف والطمع ، إنّه الرغب والرهب ، إنّه الخوف والرجاء ، خوفهم من الله ، تذكّرهم للآخرة ، أنّها كانت دائماً تجاههم ، وأنّ جهنّم كانت نصب أعينهم .

لم ينسوا قضيّتهم المصيريّة الأولى : أنّهم إلي الله صائرون ، أنّهم مهما عاشوا في هذه الدنيا فإنّهم ميّتون ، وأنّهم بعد الموت مبعوثون ، وأنّهم بعد البعث محاسبون ، فإمّا إلي جنّة ، وإمّا إلي نار ، ولهذا كانت جهنّم دائماً أمامهم .

---

(١) الفرقان : ٦٣ - ٦٦ . (٢) الذاريات : ١٧ ، ١٨ .

لهذا وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [(١)] والغرام هو : الملازم الدائم المقيم ، كلّ شيىء يزول عنك فليس بغرام ، إنّما الغرام : ما لزمك وأقام معك [(٢)] .

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ : وأىّ مقام أسوأ ، وأىّ مستقرّ أقبح من جهنمّ .. الدار التى أعدّها اللهّ للعصاة والمكذّبين من عباده ؟ .

يا أيّها الناس :

اتقوا هذه النّار ، اتقوا جهنّم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [(٣)] .

لو كان الموت نهاية المطاف لكان الأمر هيّنا ، ولكن الموت (أشد ما قبله وأهون ما بعده) .

هناك بعد الموت بعث ، وهناك بعد البعث حشر ، وهناك بعد الحشر موقف ، وهناك بعد الموقف حساب وميزان وصحف تتطاير ، ولا تدرى أتأخذها باليمين أم بالشمال ؟ ولا تدرى إليْ أين يميل لسان الميزان : إلي جانب الحسنات أو إلي جانب السيئات ؟ أيثقل ميزانك فتكون ممنّ عيشته راضية ؟ أم يخفّ ميزانك فتكون أمّك هاوية ؟ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [(٤)] .

هناك الموت وسكرته ، هناك القبر وضمّته ، هناك الموقف وزحمته ، هناك الميزان ودقّته ، هناك الحساب وسرعته ، هناك الرّبّ وغضبته ، وهناك الجنّة ونعيمها وهناك النّار ولهيبها .

عباد الرحمن وضعوا نصب أعينهم (جهنمّ) ، وكأنّها تريد أن تلفحهم ، كأنّها تفتح فاها لتلتهمهم ، ولذلك دعاؤهم : ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ ، لأنّ كلّ النّاس واردٌ عليها ، مارٌّ بها ، الصراط فوقها ، منصوب عليها ، يا ترى أتنجو

---

(١) الفرقان : ٦٥ .

(٢) قال في (مختار الصحاح) : (الغرام) : الشرّ الدائم والعذاب وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ قال أبو عبيدة : أى هلاكاً ولزاماً لهم .

(٣) التحريم : ٦ . (٤) القارعة : ١٠ ، ١١ .

أم تسقط ؟ أتسلم أم تهلك ؟ أتمرّ عليها مرًّا سريعاً أم تختطفك الكلاليب حتى تهوى إلي جهنمّ ؟ ·

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (١) ·

كان أحد الشباب الصالح - ابن أبى ميسرة - يبكى إذا أوى إلي فراشه ويقول : ليت أمّى لم تلدنى ، فقالت له أمّه : يا بنىّ إنّ اللهّ أحسن إليك حين هداك إلي الإسلام ، قال : ولكن يا أمّاه إنّ اللهّ أخبرنا أنّنا واردون على النّار ، ولم يخبرنا أنّنا صادرون عنها ·

كلّنا وارد على النّار ، تُرى من ينجو ومن لا ينجو ؟

إنّ المشكلة أيّها الإخوة ·· مشكلة النّاس كلّ النّاس : أنّ الآخرة بعيدة عن تفكيرهم ·

النّاس لا يفكّرون إلاّ فِى حاضرهم ·· في يومهم ·· فِى مصالحهم القريبة ·· في لذّاتهم العاجلة ، أمّا الغد وما بعد الغد ، فكلّ يبعده عن نفسه ·· عن فكره ·· عن ذهنه ·· عن تصوّره ·· عن خياله ، مع أنّ الأمر قريب قريب ، وكل آت قريب :

كلّ امرىء مصبّح فِي أهله والموت أدنى من شراك نعله !

﴿ ·· وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ·· ﴾ (٢) ·

إنّ مشكلات الحياة تتعقّد حينما نرى النّاس كالذئاب ، حينما نرى النّاس كالسباع في الغابة يأكل القوى الضعيف ، حينما نرى النّاس كالأسماك في البحر يلتهم الكبير الصغير ، ما العلّة ؟

العلّة أنّ الآخرة بعيدة عنهم ، أنّ الناس لا يفكرون إلاّ فِى دنياهم ·· هذا هو الإله المعبود ·

الدنيا وما فيها أصبحت الشغل الشاغل، أصبحت أكبر همّهم ، ومبلغ علمهم ، ومحور تفكيرهم ، ومدار اهتمامهم ·

---

(١) مريم : ٧١ ، ٧٢ · (٢) النّحل : ٧٧ ·

ولكن عباد الرحمن صنف آخر :

إنّهم يذكرون الآخرة ويذكرون جهنمّ : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [١] .

روى البخاري [٢] عن أنس رضي الله عنه - قال : كان أكثر دعاء النبى ﷺ : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [٣] ، رسول الله ﷺ يسأل الله تعالى أن يقيه عذاب النّار ، وهو الذى غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر !

وكان يعلّم أصحابه - كما روى ابن عبّاس - هذا الدعاء كما يعلّمهم السورة من القرآن : « قولوا : اللّهمّ إنّى أعوذ بك من عذاب جهنّم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » [٤] .

وهكذا كان يقولها دبر كلّ صلاة في آخر التشّهد وهذا ما يُسنّ لنا أن نفعله ، حتى رأى ابن حزم وجوب هذا الدعاء في آخر كلّ صلاة .

لابدّ أن يظلّ المسلم ذاكراً للنّار ، وما أدراكم ما النّار ؟ إنّ النبىّ ﷺ يقول : « نار بنى آدم التى تُوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنمّ ، قالوا: يا رسول الله ، إن كانت لكافية (نار الدنيا ليست هيّنة فمن يصبر على حرّها ؟) قال : فإنّها فُضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً » [٥] .

وكما روى عن داود عليه السلام : إلهى لا صبر لى على حرّ شمسك ، فكيف أصبر على حرّ نارك ؟!

---

(١) الفرقان : ٦٥ .

(٢) في كتاب (الدعوات) من صحيحه ، باب : قول النبى ﷺ : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة . . » . أنظر : البخارى مع الفتح (١١ / ١٩٥ برقم ٦٣٨٩) ، وانظره في : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٥٦ برقم ٢٢٩٧) .

(٣) البقرة : ٢٠١ .

(٤) رواه مالك ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنّسائى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٥٥ برقم ٢٢٩٤) .

(٥) متفق على صحته من حديث أبى هريرة رضي الله عنه (شرح السّنّة للبغوى بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٥ / ٢٣٩ برقم ٤٣٩٨) .

وكما قال القائل :

جسمي على الشمس ليس يقوى ولا على أهـــون الحرارة !

فكيف يقـــوى عـلى جحيم وقودها النّاس والحجـــارة ؟!

إنّ الله وصف أولي الألباب - الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض ، والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم - بأنّهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ أَنْصَارٍ ﴾ (١) .

« فقد أخزيته » : أهنته وأذللته ، فالنّار ليست عذاباً حسّيّاً فقط، ولكنّها عذاب معنويّ أيضاً : الخزى .. الذّلّ .. الهوان . حينما يُقال لهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونَ ﴾ (٢) أى خزى وأى هوان أشدّ من هذا ؟ .

النّار دار الخزى .. دار الهوان .. دار الحجاب عن الله ، فقد وصف المكذّبين بقوله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ (٣) .

كان بعض الصالحين يتعلقّ بأستار الكعبة ويقول : يا ربّ ، أما كان لك من عقوبة إلاّ النّار ؟ كيف لنا الصبر عليها ؟

روى أنّ النّبىّ عليه الصلاة والسلام كان يقول : « لا تنسوا العظيمتين : الجنّة والنّار » (٤) .

أىّ عظيم أعظم من هاتين العظيمتين ؟ أين أين يكون مصيرك ؟ دار النعيم أم دار العذاب ؟

وقال عليه الصلاة والســلام : « ما رأيت مثل النّار : نام هاربها ، ولا مثل الجنّة : نام طالبها » (٥) .

---

(١) آل عمران : ١٩١ ، ١٩٢ . (٢) المؤمنون : ١٠٨ . (٣) المطففين : ١٥ .

(٤) ذكره المنذرى في (الترغيب والترهيب) عن ابن عـــمر مرفــوعاً ، وقال : رواه أبو يعلى ، وسكت عليه ، الحديث (٥٢٥٥) بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة .

(٥) رواه الترمذى عن أبى هريرة ، والطبرانى في الأوسط عن أنس ، وحسّنه في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (٥٦٢٢) .

عش في الدنيا ما شئت ، عش سبعين سنة ، أو مائة سنة ، أو مائتـي سنة ، أو ألف سنة ، ثمّ ماذا ؟ ستموت ·

ثمّ ماذا بعد الموت ؟

إمّا إلي جنّة ، وإمّا إلي نار ، كما قال النّبيّ ﷺ : « والذى نفسيِ بيده ما بعد الموت من دار إلاّ الجنّة أو النّار » (١) .

وقال ﷺ يوماً لأصحابه : « والذى نفسى بيده لو رأيتم ما رأيت ، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا ، قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : رأيت الجنّة والنّار » (٢) .

فاختر أىّ الدارين ؟

الموت باب ، وكلّ النّاس داخله	يا ليت شعرى بعد الباب ما الدار ؟
الدار جنّات عدن إن عملت بما	يرضى الإله ، وإن خالفت فالنّار
هما محلاّن ما للمرء غيرهما	فاختر لنفسك أىّ الدار تختار ؟

إنّ على النّاس أن يكونوا بين الخوف والرجاء ، لا ينبغى أن يغلبهم الرجاء حتى يأمنوا مكر اللهّ ، ولا ينبغى أن يغلبهم الخوف حتى ييأسوا من روح الله ·

ولكن إذا كثرت الذنوب ·· إذا تزاحمت المعاصى ·· إذا امتلأت الصحف بالخطايا ، فعلى الإنسان أن يغلّب الخوف على الرجاء ، أن يتذكّر ذنوبه ولا ينساها ، أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، أن يزن أعماله قبل أن توزن عليه ، أن يسأل نفسه قبل أن يصير السؤال إلي غيره ·

عليه أن يتذكّر النّار فيحاسب نفسه : ماذا قدّمت ؟ وماذا عملت ؟ وفيم قصّرت ؟ وفيم فرّطت ؟ عيسى أن يصّحح ، عسى أن يتدارك ما فات ، عسى أن يتلافي ما فرّط ، عسى أن يجعل يومه خيراً من أمسه وغده خيراً من يومه ·

---

(١) لم أعثر له على مخرّج ، فيمكن أن يذكر على أنّه أثر لا حديث ·

(٢) رواه مسلم ، وأبو يعلى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٥٧ ، الحديث ٢٣٠٣) ·

هذا هو شأن المؤمنين : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ (١) .

حينما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) جمع أقاربه ودعاهم ، فعمّ وخصّ ، فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النّار ، يا معشر كعب أنقذوا أنفسكم من النّار ، يا معشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النّار ، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النّار ، يا فاطمة بنت محمدّ أنقذى نفسك من النارّ ، فإنّى لا أملك لكم من اللهّ شيئا ، إلاّ أنّ لكم رحماً وسأبُلُّها ببلاها » (٣) .

كلّ إنسان عليه أن ينقذ نفسه من النّار ، وإنّما ينقذ نفسه من النّار : بعمل الصالحات ، واجتناب السيّئات .

أنقذ نفسك من النّار بأداء الفرائض واجتناب المحارم : « اتّق المحارم تكن أعبد النّاس » (٤) .

أنقذ نفسك من النّار بأداء الحقوق : حقّ الله ، وحقوق النّاس .

أنقذ نفسك من النّار بالتوبة إلي اللهّ إذا أذنبت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ، عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . ﴾ (٥) .

---

(١) الفرقان : ٦٢ . (٢) الشعراء : ٢١٤ .

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الشعراء (٣ / ٣٥٠) طبعة الحلبى ، رواه أحمد عن أبى هريرة ، ورواه مسلم والترمذى من حديث عبد الملك بن عمير به ، وقال الترمذى : غريب من هذا الوجه ، ورواه النسائى من حديث موسى بن طلحة مرسلاً ولم يذكر فيه أبا هريرة ، والموصول هو الصحيح .

(٤) جزء من حديث رواه أحمد ، والترمذى ، والبيهقى في الشُّعب ، عن أبى هريرة رضي الله عنه (الجامع الصغير : ١ / ٨) ، وعزاه المناوى إلي أبى نعيم في الحلية ، قال الترمذى غريب منقطع ، وقال المنذرى : وبقيّة إسناده فيه ضعف ، وفيه جعفر بن سليمان الضبعى شيعى زاهد ، ضعفه الذهبى والقطان ووثقه آخرون ، وفيه أيضًا أبو طارق السعدى قال الذهبى : مجهول ، أنظر (فيض القدير : ١٢٤ - ١٢٥ برقم ١١٨) .

(٥) التحريم : ٨ .

كان عيسى ابن مريم - عليه السلام - يقول : كم من جسد صحيح ، ولسان فصيح ، ووجه صبيح ، غداً بين أطباق النّار يصيح !!

وعندما تصيح غداً لا تنفعك الصيحة ، ولا تنفعك الاستغاثة ، إنّما ينفع ذلك اليوم ٠

غداً حساب ولا عمل ، واليوم عمل ولا حساب ، فاعمل اليوم للغد ، لتنقذ نفسك من النّار ٠

كان من أدعية النبي ﷺ : « ٠٠ وأسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل » (١) ٠

وكان يعلّم أصحابه هذا الدعاء كما يعلّمهم السورة من القرآن : « قولوا : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنّم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجّال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » (٢) ٠

وكان يقول : « من سأل الله الجنّة ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار : اللهم أجره من النار » (٣) ٠

فاسألوا الله دائماً الجنّة ، واستعيذوا بالله تعالى من النّار ، فإنّ اللهّ أعدّها للكافرين ، ولكن يُلحق بهم عصاة المؤمنين ٠

إنّ الله سبحانه وتعالى حذّر وأنذر ، ووعظ وذكّر ، وأنزل في كتابه آيات بينات ، وصف لنا فيها هذه الدار المخوفة ووصف لنا عذابها ، وما أعدّ فيها ، فقال :

﴿ ٠٠ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٤) ٠

---

(١) قطعة من حديث رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه عنها أيضًا البخارى في الأدب المفرد ، وأحمد ، والحاكم وصحّحه (فيض القدير : ٢ / ١٢٨ برقم ١٤٩٧) ٠

(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، رواه مالك ، ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٥٥ برقم ٢٢٩٤) ٠

(٣) من حديث أنس رضي الله عنه ، رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، ولفظهم واحد ، والحاكم وصحّحه ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٥٥ برقم ٢٢٩٦) ٠

(٤) الكهف : ٢٩ ٠

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى الْبُطُونِ * كَغَلْىِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ (١) .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ (٢) .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٣) .

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (٤) .

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (٥) .

وصف الله لنا النّار حتى تكون واضحة المعالم أمام أعيننا ، وحتى لا تكون لنا حجّة ، ولا يكون لنا عذر ولا تعلّة (٦) .

حذّرنا الله النّار ، وحذّرنا رسوله النّار ، حتى نعمل على النّجاة منها ، أمّا أنْ نعيش فى غفلة لاهين ، وفى غمرة ساهين ، لا ندرى ماذا يُراد بنا ولا ماذا يُعدّ لنا ، فهذا شأن الغافلين الذين جعلهم الله أحطّ من الأنعام وأضلّ سبيلا .

استمعوا معى إلى قول الله تعالى فى وصف قوم جعلهم حطب جهنّم ووقود

---

(١) الدخان : ٤٣ - ٤٧ .
(٢) الواقعة : ٤١ - ٤٤ .
(٣) الواقعة : ٥١ - ٥٦ .
(٤) الحاقة : ٣٠ - ٣٢ .
(٥) إبراهيم : ٤٩ - ٥٠ .
(٦) أنظر كتاب : (التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار) لابن رجب الحنبلى (ت ٧٩٥ هـ) فقد أطال الحديث فيه عن النار ، وما أعدّ الله فيها لأعدائه من الخزى والنكال والبوار ، وقسمه ثلاثين باباً .

النّار ، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١) .

كانوا أضلّ من الأنعام لأنّ الأنعام لم تُؤت من العقول والمواهب ما أُوتى هؤلاء ، الأنعام لم يُنَزل عليها كتاب ، ولم يُبعث لها رسول ، الأنعام لم تُستخلف فى الأرض ، ولم يكرّمها الله بالعقل كما كرّم الإنسان .

ثمّ إنّ الأنعام تؤدى رسالتها فى الركوب والحلب والحرث والسقى ، ولكن رسالة الإنسان أن يعبد الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) ، فإذا لم يؤدّ هذه الرسالة رغم ما آتاه الله من الطاقات ، والإمكانات والمواهب ، فقد صار أضلّ من الأنعام سبيلا ، وصار أحطّ من الأنعام منزلة ، ولهذا جعل الله هؤلاء حصب جهنمّ ، سرّ هذا كلّه : الغفلة ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

أعين قلوبهم قد عميت ، أعمتها الشهوات وأعمتها الشبهات ، فعاشوا لا يدرون أماماً من خلف ، ولا يميناً من شمال .

هؤلاء الذين عميت بصائرهم ، وصمّت عن الحق آذانهم ، وضلّت عن الحقّ عقولهم ، فكانوا أضلّ من الأنعام سبيلا .

يا أيّها الإخوة المؤمنون :

كونوا كعباد الرحمن ، ضعوا نصب أعينكم (الآخرة) تنحلّ المشاكل ، تهن عليكم الدنيا ، ويصبح كلّ أمر عسير يسيراً أمامكم ، تُؤدّى الحقوق إلى أهلها .

كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : (من خاف الله لم يشف غيظه ، ومن اتقى الله لن يفعل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون) ، أى لكان كلّ إنسان يفعل ما يشتهى وما يحلو له ، ولكن هناك قيامة ، وهناك حساب ، كما قال النبى ﷺ للجارية : « لولا القصاص لضربتك بهذا السواك » (٣) .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .   (٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) الحديث ذكره المنذرى فى (الترغيب والترهيب) وقال : رواه أبو يعلى بأسانيد أحدها جيّد ، وذكره الهيثمى فى (المجمع) بعدّة روايات وقال : روى هذا كلّه أبو يعلى والطبرانى بنحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٣١ ، الحديث ٢٤٦١) .

ولكن هناك قصاص، وهناك عدل إلّهى مطلق يقتصّ للشاة الجمّاء من القرناء .

إنّنا فى هذه الدنيا لسنا مخلّدين ، ولكنّنا فيها ضيوف راحلون ، كلّنا فيها مسافر ينتظر الطائرة التى تقلّه ، أو القطار الذى يحمله إلى داره . . إلى دار المقامة .

نحن فى مقيلٍ ، نحن فى محطّة استراحة ، وبعد ذلك يذهب كلٌّ إلى حال سبيله ، ويذهب كلٌّ إلى داره الأصليّة .

تُرى ماذا تكون داره : أهى الجنّة أم هى النّار ؟ .

مرّ الحسن البصرى على شابّ مستغرق فى الضحك ، فقال له : يا هذا علام استغراقك فى الضحك ؟ أعرفت هل تأخذ كتابك بيمينك أم بشمالك ؟ قال : لا ، قال : أمررت بالصراط ونجوت منه ؟ قال : لا ، قال : أعرفت أنّك هاوٍ إلى النّار أو ناج منها ؟ قال : لا ، قال : فعلام ضحكك ؟ فبكى الشاب .

علام يضحك النّاس ، ويستغرقون فى الضحك وفى اللّهو ، وفى الغفلة ، والأمر خطير ؟

ليس معنى هذا أن يظلّ النّاس باكين ، ولكن ليذكر النّاس الآخرة الحين بعد الحين ، ساعة وساعة .

أذكروا الآخرة ، لا تطرحوها وراء ظهوركم ، لا تجعلوها نسياً منسيًّا ، لا تتخذوها وراءكم ظهريًّا .

أذكروها حتى تستقيم حياتكم ، وحتى تقوّم أعمالكم ، وحتّى تسدّد خطاكم فى الطريق إلى الله تبارك وتعالى : ﴿ . . رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

اللهمّ إنّا نسألك الجنّة ، ونستعيذ بك من النّار .

اللهمّ إنّا نسألك الجنّة ، وما قرّب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول وعمل .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم ، ادعو ربّكم يستجب لكم .

* *

(١) هو من أدعية القرآن الجامعة التى يحسن بالمرء أن يدعو بها . قال تعالى : ﴿ . . فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ، وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ (البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢) .

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

المفروض من المسلم أن يتوازن الرجاء والخوف فى قلبه ، أن يرجو رحمة الله وأن يخشى عذابه ، كما ذكرنا فى الخطبة الماضية قول الله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ . . ﴾ (١) .

وكما قال تعالى فى وصف المؤمنين : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٢) .

وكما وصف بعض الأنبياء المصطفين الأخيار :

﴿ . . إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ، وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٣) .

الرغبة : الرجاء فيما عند الله من رحمة .

والرهبة : الخوف ممّا عند الله من عذاب .

الله تعالى وصف نفسه بقوله : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

ووصف لنا الآخرة فقال : ﴿ . . وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ . . ﴾ (٦) ، ففيها العذاب وفيها المغفرة والرضوان .

---

(١) الزّمر : ٩ . (٢) السجدة : ١٦ .
(٣) الأنبياء : ٩٠ . (٤) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .
(٥) غافر : ٣ . (٦) الحديد : ٢٠ .

فلابدّ أن يسير الخطّان متعادلين متوازنين : الحذر والرجاء ، الرغب والرهب ، الخوف والطمع .

لا يغلب الرجاء حتى يصل الرجاء إلى الأمن : ﴿ .. فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١)، ولا يغلب الخوف حتى يصل الخوف إلى اليأس فـ ﴿ .. إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

وإنّما يرجو ويخاف .

ولهذا روى عن عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه - أنّه قال : لو نادى المنادى يوم القيامة : كلّ النّاس فى الجنّة إلاّ واحداً ، لخفت أن أكون ذلك الواحد ، ولو نادى المنادى : كلّ النّاس فِى النّار إلاّ واحداً ، لرجوت أن أكون ذلك الواحد .

فالرجاء والخوف متوازنان عنده ، وهذا هو المطلوب من الإنسان المسلم .

ولكن من كثرت خطاياه وتفاقمت ذنوبه ينبغى أن يغلّب الخوف ، ولكنّه خوف مشوب بالرجاء ، حتى إذا جاءه الموت كان كذلك الرجل الذى دخل عليه النبّى ﷺ - وهو يحتضر - فقال : « كيف تجدك ؟ » . قال : أرجو الله يا رسول الله وإنّى أخاف ذنوبِى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان فِى قلب عبد فى مثل هذا الموطن ، إلاّ أعطاه الله ما يرجو وأمنّه ممّا يخاف » (٣) .

إذا اجتمع الرجاء والخوف ساعة الاحتضار ، فهذا علامة القبول عند الله عزّ وجلّ .

نسأل اللهّ أن يجعلنا من الراجين الخائفين ، وأن يجعلنا من عباد الرحمن .

اللهمّ إنّا نسألك رضاك والجنّة ، ونعوذ بك من سخطك والنّار .

اللهمّ إنّا نسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول أو عمل .

---

(١) الأعراف : ٩٩ .   (٢) يوسف : ٨٧ .

(٣) رواه الترمذى عن أنس رضي الله عنه ، وقال : حديث غريب ، وفى بعض النسخ : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه ، وابن أبى الدنيا ، وذكره الألبانى فى الصحيحة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٧٥ ، الحديث ٢١١٢) .

اللهمّ اغفر لنا ما مضى ، وأصلح لنا ما بقى :

اللهمّ تُب علينا توبة نصوحا .

اللهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا .

اللهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ انصر المسلمين حيثما كانوا .

اللهمّ أيدّهم بروح من عندك ، وأمدّهم بملأ من جندك ، واحرسهم بعينك التى لا تنام ، واكلأهم فى كنفك الذى لا يضام .

﴿ .. رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (١) .

﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

وصلّ اللهمّ على عبدك ورسولك محمدّ ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٥) .

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ .. ﴾ (٦) .

* * *

(١) الفرقان : ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) البقرة : ٢٠١ .

(٣) آل عمران : ١٤٧ .

(٤) الحشر : ١٠ .

(٥) الأحزاب : ٥٦ .

(٦) العنكبوت : ٤٥ .

صفات عباد الرحمن

٥- الاعتدال في الإنفاق

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش في رحاب القرآن مع عباد الرحمن ، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، والذين وصفهم الله تعالي في سورة الفرقان .

وصف حالهم في أنفسهم ، ووصف حالهم مع النّاس ، ووصف حالهم معه سبحانه . ثمّ وصف حالهم في أموالهم فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (١) .

فليس المفترض في عباد الرحمن أنّهم قوم لامال لهم ، لا ، ليس الفقر من خصائص هذه العبوديّة للرحمن ، فقد يكونون أغنياء .

وقد وصف الله روّاد المساجد .. روّاد البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فقال : ﴿ ..يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذكر الله...... ﴾ (٢) فهم - بلغة العصر - (رجال أعمال) لهم تجارة ولهم بيع ، ولكن ذلك لا يشغلهم عن واجبهم نحو ربّهم .

وخاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ الله .. ﴾(٣) ومعني هذا: أنّ لهم أموالاً وأولاداً ،وليسوا رهباناً ولادراويش ، ولكنّهم مأمورون ألاّ تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله ، ذكره

---

(١) الفرقان : ٦٧

(٢) النّور : ٣٦، ٣٧ . وتمامهما : ﴿ فِي بيُوت أَذنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ .

(٣) المنافقون : ٩ . وتتمّتها : ﴿ .. وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

بالقلب ، وذكره باللّسان ، فعباد الرحمن لا بأس أن يكون لهم أموال ، والمال في نظر الاسلام نعمة يجب أن تُشكر (١)، وهو في نظر الإسلام أمانة يجب أن تُرعي ، وهو في نظر الإسلام ضرورة - من الضروريّات الخمس - يجب أن تُحفظ .

والمسلم في ماله مُستخلف ، هو في الحقيقة مال الله وهو أمين عليه . . خليفة عليه نائب عن ربه في حسن تنميته وإنفاقه ، ولذلك قال الله تعالي : ﴿ . . وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . . ﴾ (٢) .

وإذا كان المال مال الله ، والإنسان مُستخلفاً فيه كأمين الصندوق ، فيجب عليه أن يُراعي تعليمات صاحب المال وتوجيهاته : ماذا يريد منه ؟ وماذا يرضاه ؟ وماذا يسخطه؟ وماذا يأمر به ؟ وماذا ينهي عنه ؟

لايجوز لموظف في شركة أو مؤسّسة أن يخالف عن أمر صاحب المؤسّسة ويتصرّف كما يشاء ، فالمسلم موظف في مال الله ، أمين عليه .

ولله تعالى تعليمات في شكل المال :

تعليمات تتعلّق باكتسابه ، أن يُكتسب من حلّه ومن وجوهه المشروعة ، وتعليمات تتعلّق بتثميره وتنميته ، وتعليمات تتعلّق بإنفاقه واستهلاكه وتوزيعه ، والآية التي معنا ركّزت علي معني معيّن مهمّ ، هو : كيف ينفق المال ؟

قد يجمع المال من حلّه ، قد يكتسبه الانسان من وجوهه المشروعة ، ولكنّه بعد ذلك يبخل به عن حقّه يشحّ به أن يبذله لما يحب الله تعالي ويرضي ، أو يتلفه ويبعثره ذات اليمين وذات الشمال .

والأمّة قد تُصاب في أغنيائها من وجهين :

إما أن تُصاب من ناحية ذلك الغنيّ الشحيح الذي لا يعرف لله حقا ، ولا يعرف في ماله للناس حقًّا ،يبخل به عن كلّ واجب .

وإمّا أن تُصاب من ناحية ذلك المتلاف المبذّر الذي لا يبالي أين ذهب المال ؟ يبذله هنا وهناك ، لا يقف عند حدّ ، ولا يقف عند شرع .

---

(١) ولهذا بوّب الإمام النووي في (رياض الصالحين) باباً سّماه : باب فضل الغني الشاكر وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها .

(٢) الحديد : ٧ ،وتتمّتها : ﴿ . . فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

ولكن المال ينبغي أن ينفق في وجوهه المشروعة بلا إسراف ولا تقتير ، هذا هو خلق الإسلام : القصد والاعتدال .

لذلك جاء في آية أخرى من وصايا القرآن . . من وصايا الله لعباده في سورة الإسراء : ﴿ ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إن الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ [أشباههم في الشرّ والمعصية والجحود بنعمة الله] ، وكان الشيطانُ لربه كفوراً * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا [إذا أتاك القريب أو المسكين أو ابن السبيل يرجو منك شيئاً ولا تملكه وتبتغي رحمة من الله ورزقاً يسوقه إليك] فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً [عدهم وعداً جميلا إذا وسّع الله عليك وأفاء عليك من فضله] وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ [كناية عن البخل بما هو واجب] وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ [فتتوسّع وتسرف] فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾(١) . فإنّك إذا أسرفت قعدت محسورا ، وإذا بخلت وقتّرت قعدت ملوما ، وأنت ملومٌ محسورٌ علي كلّ حال إذا لم تتبع أمر الله ونهيه] .

هذا هو القصد والاعتدال ، هذا هو دستور الإسلام .

كان النبي ﷺ يسأل الله ويقول: « اللّهمّ وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الإخلاص في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغني » (٢)

والقصد : الاقتصاد والاعتدال .

روي الإمام البزّار من حديث حذيفة أنّ النّبيّ ﷺ قال : « ما أحسن القصد في الغني ، ما أحسن القصد في الفقر ، وأحسن القصد في العبادة » (٣).

حتي العبادة القصد والاعتدال فيها مطلوب .

وروي الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء أنّ النّبيّ ﷺ قال : « من فقه الرجل

---

(١) الإسراء : ٢٦-٢٩

(٢) رواه النّسائي والحاكم عن عمّار بن ياسر ، وذكره في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (١٣٠١) .

(٣) قال الهيثمي : رواه البزار من رواية سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلاّ ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه ، وبقيّة رجاله ثقات (مجمع الزوائد : ٢٥٢/١٠) .

رفقه في معيشته » (١) : هذا دلالة علي فقهه وعلي نور بصيرته ، إنّه يقتصد ، ولايبذّر ولا يسرف ، ولا يبخل ولا يقتّر ، فهو وسط من أمّة وســـط ، و « خير الأمور أوساطها» (٢) .

وروى الإمام أحمد كذلك من حديث ابن مسعود ، أنّ النبي ﷺ قال : « ما عال من اقتصد » (٣) ، أي: ما افتقر من اقتصد ، وذلك لأنّ الذي يقتصد ويعتدل في إنفاقه ، يدّخر بعض الشيء من شبابه لهرمه ، ومن صحّته لسقمه ، ومن غناه لفقره ، ومن اقتصد شيئاً للمستقبل فقلّما يفتقر .

الإسلام يطلب الإنفاق ، ومن صفات المتقين أنهّم ينفقون ، ولكنّ الله حينما وصف المتقين في مطلع سورة البقرة قال : ﴿ .. وِمَمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ ﴾ (٤) أي : ينفقون بعض ما رزقهم الله ، وليس كلّ ما رزقهم الله .

والله حين أوجب علي النّاس الزكاة ، أوجبها في بعض المال : ربع العشر ، وفي بعض المال : نصف العشــر ، وفي بعض المال : العشر ، ولم يكثّر علي الناس ، كما قال الله تعـــالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ (يشدّد عليكـــم) تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ (٥) .

---

(١) قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد، وفيه أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط(٤/ ٧٤) وعن جابر مرفوعا: « الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة » رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبد الله بن صالح المصري، قال عبد الملك بن شعيب : ثقة مأمون ، وضعفه جماعة (مجمع الزوائد : ١٠/ ٢٥٢) .

(٢) لم يذكره الأستاذ القرضاوي علي أنّه حديث نبوي ، وقد أورده ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن علي مرفوعا به ، وهو عند ابن جرير في التفسير من قول مطرف ابن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفي ، وكذا أخرجه البيهقي عن مطــرف ، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً : خير الأعمال أوسطها { المقاصد الحسنة للسخاوي : برقم ٤٥٥ } وتشهد له نصوص كثيرة في القرآن والسنة .

(٣) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، قال الهيثمي : وفي أسانيدهم : إبراهيم ابن مسلم الهَجَري وهو ضَعيف ، وعن ابن عباس مرفوعا : « ماعال مقتصد قط » رواه الطبراني فيهما ، ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد : ١٠/ ٢٥٢) .

(٤) البقرة : ٣ . (٥) محمّد : ٣٧ .

ولذلك لم يسألنا إلاّ العفو : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ . . ﴾ (١). ﴿ . . وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، قُلِ الْعَفْوَ . . ﴾ (٢) . أي : مافضل عن الحاجة .

ومن هنا جاء في الحديث : « لا صدقة إلاّ عن ظهر غني » (٣) . لم يطلب الاسلام منك أن تنفق مّما تحتاج إليه ، من فعل هذا إيثاراً فهذه فضيلة وليست فريضة ، كالذين مدحهم الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ . . وَيُؤْثِرُونَ عَلَي أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤) ، والأبرار الذين أثني عليهم فقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَي حُبِّه مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً ﴾ (٥) . يحبون الطعام ، ويتوقون إليه ، وهم في حاجة إليه ، ولكنّهم يبذلونه لله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (٦) .

المسلم ينفق ماله بغير إسراف ولا تقتير ، لا يبخل علي نفسه ، فإنّها أوّل ماينبغي النفقة فيه .

بعض النّاس يحوز المال فيقتّر علي نفسه وأهله ، المال في يده وهو محروم منه ! وهذا هو الذي قيل فيه : بشّر مال البخيل بحادث أو وارث : إمّا حادثة تأكل أخضره ويابسه ، وإمّا وارث يتمتع به من بعده ، وربّما يلعنه ويذمّه ، فما انتفع منه بشيء !

ككلب الصيد يمسك وهو طاو فريســـــــته ليأكلها سواه !

جاء رجل إلي النبي ﷺ فلم تعجبه هيئته ، فسأله : « ألك مال » ؟ قال : نعم، قال : « أيّ المال عندك » ؟ قال : من كلّ المال آتاني الله [أي عنده الإبل والبقر والغنم والزروع والثمار] ، قال : « فإنّ الله يحبّ أن يري أثر نعمته عليك »(٧) .

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٨) : والحديث ليس باللّسان فقط ، ولكن بالحال أيضاً .

---

(١) الأعراف : ١٩٩ . (٢) البقرة : ٢١٩ .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح . انظر : الحديث (٧١٥٥) ، وذكره البخاري معلقا في كتاب الوصايا من صحيحه .

(٤) الحشر : ٩ . (٥) الإنسان : ٨ . (٦) الإنسان : ٩، ١٠ .

(٧) رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو ، وحسّنه في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٧) ، ورواه البيهقي في (الشعب) جزءا من حديث عن أبي سعيد ، وصحّحه في المصدر السابق (١٧٤٢) . (٨) الضّحي : ١١ .

لاداعي أن تجوّع نفسك ، وأن تقتّر علي نفسك وأهلك والمال في يدك ، أنفق باعتدال علي نفسك وأهلك ، وفي الحديث : « أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه علي عياله ، ودينار ينفقه علي فرسه في سبيل الله ، ودينار ينفقه علي أصحابه في سبيل الله » (١) .

وقال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاصّ : « وإنّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاّ أُجِرْتَ عليها ، حتي ما تجعل في فِيِّ امرأتك » (٢) .

فالنفقة علي النفس وعلي البيت هى أوّل ما ينبغي أن يفعله الإنسان ، ثمّ بعد ذلك ينفق علي من حوله من الأقارب والجيران ، فهؤلاء لهم حقوق ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلي جنبه وهو يعلم » (٣) .

ليس من الإسلام في شيىء أن تأكل ملء بطنك ، وتضحك ملء سنّك ، وبجوارك إنسان يئنّ من الجوع ، ولا يجد من يقدّم له ما يقيم أوده ، وما يطفىء حرقه ، ليس هذا من الإسلام ولامن الإنسانيّة في شيىء ، ولذلك برىء منه النّبيّ ﷺ .

إذا كان لك قريبٌ فينبغي أن يكون لقريبك هذا عند عسره وفقره حظّ من مالك : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ . . ﴾ (٤) .

والأقربون أولى بالمعروف ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . . ﴾(٥) ، فبدأ بالوالدين والأقربين .

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى

---

(١) رواه مسلم ، والترمذي، عن ثوبان رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٦٠ برقم ١١٣٣) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم من حديث طويل (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٦٠ برقم ١١٣٤) وقد أورده بطوله النووي في باب الإخلاص وإحضار النيّة من كتاب (رياض الصالحين) .

(٣) رواه الطبراني ، والبزّار وإسناده حسن ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٩١ برقم ١٥٣٠) .

(٤) الإسراء : ٢٦ . (٥) البقرة : ٢١٥ .

ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة »(١) أي فيها أجران : أجر الصدقة ، وأجر صلة الرحم.

وأفضل ما تكون الصدقة علي القريب إذا كان بينك وبينه شيىء من الخصومة والجفوة ، كما في الحديث الصحيح : « أفضل الصدقة : الصدقة علي ذي الرحم الكاشح »(٢) . أي : الذي يضمر في كشحه لك خصومة أو عداوة ، لأنّك في هذه الحالة لا تعطيه مجاملة ولا مودّة بمودّة ولا إحسانا بإحسان ، بل تعطيه لله عزّ وجلّ ، ولحقّ القرابة بينك وبينه .

مع هذا كلّه هناك حقّ الزكاة ، الحق الماليّ الثابت الدوريّ المحدّد في نظر الإسلام.

الزكاة ثالثة دعائم الإسلام بعد التوحيد والشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة وإقامة الصلاة ، فلا بدّ أن تبذل من مالكَ ، وقد جاء في بعض الأحاديث :

« بريء من الشحّ من أدّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى في النائبة »(٣) .

يبرأ الإنسان من الشحّ : إذا أدّى الزكاة الواجبة عليه ، وقرى الضيف الذي يحلّ به ، وأعطى في النوائب التي تنزل بالمسلمين : زلازل ، جهاد ، مجاعة . . . الخ .

بهذا يبرأ الانسان من الشحّ ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٤).

وهناك أناس يعطون فوق هذا كلّه ، كان الإمام اللّيث بن سعد - وكان يُقارن بالامام مالك - من أغنياء المسلمين ، وقالوا : إنّ دخله السنوي كان ثمانين ألف دينار وما وجبت عليه زكاة قطّ ، لأنه ما كان ينتظر بالمال حتى يحول عليه الحول ، بل يتصدق

---

(١) من حديث سلمان بن عامر رضى الله عنه ، رواه النسائي ، والترمذي وحسّنه ، وابن خزيمة وابن حبّان في صحيحيهما ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٨٨ ، الحديث ٤٦١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح ، وابن خزيمة في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٢٨٩ ، الحديث ٤٦٢) .

(٣) ذكره ابن كثير في تفسير سورة الحشر نقلاً عن ابن جرير الذي رواه بسنده عن أنس رضي الله عنه (٤/ ٣٣٩) طبعة الحلبي .

(٤) الحشر : ٩ .

بكلّ ما يجمعه ، فالمال من الله وإلى عباد الله ، جاءت امرأة تسأله شيئا من عسل ، فأمر لها بزقّ (جرّة كبيرة) فقال له بعض جلسائه : تسألك أكلة عسل فتعطيها زقًّا ! فقال : إنها تسأل على قدر حاجتها ، ونحن نعطيها على قدر نعمة الله علينا !

وكذلك كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان من كبار الأثرياء ، ومن كبار الأسخياء أيضا ، وكان من خصاله وفضائله المشهورة أنه لا يردّ سائلاً يؤمّه في حاجة قط، ولما لامه بعض هؤلاء الذين يبخلون الناس ، قال : إن الله عوّدني عادة وعوّدت عباده عادة ، عوّدني أن يعطيني وعوّدت عباده أن أعطيهم ، وأخشى إذا قطعت عادتي عنهم ،أن يقطع عادته عنّي !

هكذا كان القوم ، لم يكونوا يقتّرون بل كانوا ينفقون ، والإنفاق في الخير لاسرف فيه ، كان بعضهم قد جاء بصرّة من فضّة في سبيل الله فقيل له : يا فلان لا خير في إسراف ، قال : ولا إسراف في الخير ، والصحابه - رضوان الله عليهم - كانوا يتسابقون في البذل عند الحاجة إلى تمويل العسكر المسلم في الغزوات ، كان هذا يدفع الآلاف ، وهذا يدفع عشرات الآلاف ، وهذا يدفع مئات الآلاف ، وهذا يجهّز جيشاً بأسره (١).

وفي إحدى الغزوات: جاء عمر - رضي الله عنه - بشطر ماله إلى النبي ﷺ ، وكان يظنّ أنّ أحداً لم يعط مثل هذا من قبل ، فإذا بأبي بكر - رضي الله عنه - يأتي بكلّ ماعنده ، فسأله النبي ﷺ : « يا أبا بكر : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله » (٢) ، لم يدع لهم شيئا .

وهذا يجوز إذا كان الإنسان قويّ الثقة بالله ، قويّ التوكل على الله ، ويعلم من أهله وأسرته مقدار توكّلهم وصبرهم أيضا .

أمّا إن كانوا لا يصبرون وليس عندهم مثل هذا اليقين والإيمان ، فلا ينبغي أن يبذل ماله كلّه ، لأنّهم لا يصبرون صبره .

---

(١) راجع في هذا (حياة الصحابة) للكاندهلوي ، باب (إنفاق الصحابة في سبيل الله).

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح ، والدارمي ، والحاكم ، والبيهقي، وأبو نعيم في الحلية (حياة الصحابة : ٢/ ١٥٠) ولفظ الترمذي : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدّق فوافق ذلك مالاً فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته يوما ، قال : فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : والله لا أسبقه إلى شيىء أبداً .

فأبو بكر علم أنّه وأهله قادرون على الصبر فلذلك أعطى ماله كلّه لله .

إنّ هؤلاء كانوا على ثقة أنّ الله تبارك وتعالى لا يضيع عليهم شيئاً « ما نقص مال من صدقة » (١) ، أو « ما نقصت صدقة من مال » (٢) ، على هذا حلف رسول الله ﷺ ، فالمال لا تنقصه الصدقة بل تزيده ، يقول الله تعالى : ﴿ .. وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ (إذا أنفقتم) وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ، (الخصلة القَبيحة البالغة القبح وهي البخل) ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ (أي في الآخرة) وَفَضْلاً (أي سعة في الدنيا) ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) ، وأكثر الناس يصدّقون وعد الشيطان ، ولا يصدّقون وعد الرحمن ! أو يصدّقونه ولكن لا يضعونه موضع التنفيذ ، بل يغفلون عنه .

عباد الرحمن « إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » لم يقتّروا على أنفسهم ، لم يقتّروا على أهليهم ، لم يقتّروا على أقاربهم ، لم يقتّروا على جيرانهم ، لم يقتّروا في النوائب والنوازل التي تنزل بالمسلمين ، وقبل ذلك كلّه : لم يقتّروا ولم يبخلوا بحق الله الأوّل عليهم وهو (أداء الزكاة) .

وهم - أيضاً - لا يسرفون إذا أنفقوا ، والإسراف : إمّا النفقة في معصية الله عز وجلّ ، كما جاء عن السلف : لو أنّ امرءاً أنفق ماله كلّه في الحقّ والخير لم يكن مبذراً، ولو أنفق مدًّا و مدّاً في باطل وشرّ كان مبذّراً .

من أنفق ماله في خمر .. في مخدّرات ... أو في ترف محرّم كأواني الذهب والفضّة ، وتماثيلهما ، في أي شيىء من الحرام ، فهذا إسراف وتبذير ولا شك .

---

(١) كما في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه مرفوعا : « ثلاث أقسم عليهنّ .. : مانقص مال عبد من صدقة ... » رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٣١) والترمذي وقال : حسن صحيح (٢٣٢٦) .

(٢) رواه مسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتتمتّه : « وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزّاً ، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله عزّ وجلّ »(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ١٤٦٢ ، ١٧٥١) .

(٣) سبأ : ٣٩ .

(٤) البقرة : ٢٦٨ .

وإمّا إنفاق المال وتبديده في المباحات ، فالمسلم إذا أنفق لا يتوسّع أكثر من طاقته ، يمدّ رجليه على قدر لحافه ، يوازن بين دخله وخرجه ، بين إيراده ومصروفه ، فلا يتوسّع ثمّ يورّط نفسه في الدَّين ، والدَّين همّ بالليل ومذلّة بالنّهار ، ولعلّ الأجل يوافيه قبل أن يوفيّ ما عليه ، ويكون مرهوناً بدينه ، فلماذا يورّط نفسه في هذا ؟؟ وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى من ضلع الدَّين وغلبة الرجال (١).

الناس يستهينون بالديون ، ويتوسّعون في الشراء بالتقسيط والآجال ، ويضيّقون على أنفسهم ، وأولى بالمسلم أن يوازن بين أحواله ، إلاّ إذا اقتضته حاجة إلى أن يستدين، فليستدن ولينظّم أموره حتى يقضي دَيْنه ، ولينو وليصمّم على أداء الدَّين ، والله تعالى إذا عرف صدق نيتّه أمدّه بمعونته ومساعدته ، ففي حديث البخاري : « من أخذ أموال النّاس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله» (٢) أي : أهلكه وأهلك ماله .

هذا هو شأن الإنسان المسلم : إذا أنفق لا يسرف . . لا يضيّع المال ، فقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال (٣) . . عن إضاعة هذه النّعمة . . عن تضييع هذه الأمانة .

أيّ درهم أو دينار في يدك ثق أنّه ليس لك ، إنّه للأمّة كلّها ، إذا ضيعتّه في غير حق فقد ضيعتّه على نفسك وضيعتّه على الجماعة . . على الأمّة الإسلاميّة .

ولهذا فالذي ينفق ماله في شرب الدخان - مثلا - يضيّع هذا المال على نفسه وعلى الأمّة ، يضرّ نفسه بحرّ ماله ، يشتري ضرره بفلوسه ، ولمن يدفع هذه الفلوس ؟ لشركات التدخين العالميّة الاستعماريّة !

المال نعمة يجب على المسلم أن يحافظ عليها .

---

(١) في الدعاء المأثور عنه ﷺ : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن ، والعجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضلَع الدين وغلبة الرجال » رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، كلّهم عن أنس بن مالك بألفاظ متقاربة ، واللفظ للبخاري (فيض القدير للمناوي : ٢/ ١٥١-١٥٢ برقم ١٥١٣) .

(٢) رواه البخاري ، وابن ماجه ، وغيرهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٢١ ، الحديث ١٠١٨) .

(٣) في حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه مرفوعا : « إنّ الله تعالى حرّم عليكم : عقوق الأمّهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٧٤٩) .

كم من مشروعات إسلاميّة في بلاد إسلامية تحتاج إلى تمويل ولا تجد من يموّلها ؟ كم من مدارس نحتاج إلى أن تقوم ؟ كم من مساجد نحتاج إلى أن تُشيّد ؟ كم من مكاتب لتحفيظ القرآن ، وكم من مراكز إسلاميّة نحتاج إليها ؟ كم من مرضى يفتقرون إلى الدواء ؟ كم من مشرّدين يفتقرون إلى البيوت ؟ كم من يتامى يفتقرون إلى من يكفلهم ؟ كم من جياع يريدون أن يأكلوا وليس هناك من يعطيهم ؟ !

ألقلّة المال لدى المسلمين ؟ لا والله ، المال كثير ، ولكنّه يُبعثر - للأسف - في غير وجهه .

كم من أناس ينفقون الألوف ، وعشرات الألوف ، ومئات الألوف في غير ما يرضي الله تبارك وتعالى ، فإذا طلبت منهم شيئاً لله كفّوا أيديهم وشحّت أنفسهم ؟!

ولا عجب أن وصف لنا القرآن قوماً من النّاس حينما قال : ﴿ .. إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِه ، وَأَعتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (١) .

أنظروا : وصفهم بالبخل .. البخل في أنفسهم ، وتحريض الآخرين على البخل، ووصفهم - في الوقت نفسه - بأنهّم ينفقون أموالهم رئاء النّاس ، أي في المظاهر الزائفة .. في الأحفال التي يتحدث الناس عنها .. في الولائم التي يتسامع النّاس بها ، حيث تُذبح الذبائح الكثيرة ، ولا يُؤكل منها إلاّ العشر أو أقلّ من العشر ، ثمّ يُرمى الباقي هنا وهناك ، وهناك أناس يحتاجون إلى اللّقمة فلا يجدونها !

أموال تُضيّع هنا وهناك رئاء النّاس ، الرياء الاجتماعي والرياء الديني : كم أفسدا النيّات وأفسدا القلوب ، وأضاعا الأموال على هذه الأمّة .

الإسراف - للأسف - أصبح سمةً من سماتنا ، نبخل عن الواجبات ونسرف في المحظورات أو فيما لا نفع فيه.

نحن في حاجة إلى أن نضبط أنفسنا .. أن نضبط استهلاكنا ، يتحدثون الآن عن ترشيد الإنفاق ، ونحن في حاجة إلي أن نرشّد الإنفاق والاستهلاك في كلّ شيء .

نحن نسرف في استهلاك الماء ، ونسرف في استهلاك الكهرباء ، ونسرف في

(١) النساء : ٣٦-٣٨ .

استهلاك الطاقة ، ونسرف في استهلاك السيّارات ، ونسرف في استهلاك الأجهزة والأدوات ،كل شيء لا قيمة له عندنا ، كأنّ هذه الأموال أموالنا نحن ليست أموال اللّه في أيدينا .

نحن في حاجة إلى أن نحافظ على هذا كلّه (١) .

وبعض الناس يحافظ على ماله هو ، الذي يملكه ، ولكنّه إذا كان موظّفا في حكومة ، أو موظّفاً فى مؤسّسة ، أو موظّفاً في شركة ، أسرف في المال الذي تحت يديه، وأنفق وبدّد ، وتوسّع وبعثر .

لا ،إنّ من صفات عباد الرحمن أنهمّ : ﴿ إِذَا أَنفَقُوا ﴾ من أموالهم أو من أموال غيرهم التي ائتمنوا عليها ﴿ لَمْ يُسرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ إنهمّ معتدلون في كلّ شيء ، والاعتدال خلق من أخلاق الإسلام .

مرالنبي ﷺ على سعد وهو يتوضّأ ، فقال له : « لا تسرف في الماء » فقال : وهل في الماء من إسراف ؟ قال : « نعم وإن كنت على نهر جار »(٢) : حتى لو توضّأت من نهر تجري مياهه ، ولا يضرّ النّهر إن أخذت منه أو زدت ، ولكن ليكن هذا خلقاً لك. . سمةً من سمات شخصيّتك .

هذه أخلاق عباد الرحمن ، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا منهم ، إنه سميع قريب ، ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* *

---

(١) أنظر : فصل (القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك) من كتاب الأستاذ القرضاوي (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الاسلامي) ص ١٩٥-٢٥٧ نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) رواه ابن ماجه ، وأحمد عن عبد الله بن عمرو ، وقال البوصيري في الزوائد : إسناده ضعيف لضعف حي بن عبد الله المعافري وابن لهيعة (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط : ١/١٩٢) ، وهو الحديث (٤٢٥) في ابن ماجه ، ولكنه يقويه حديث ابن عمر قبله (٤٢٤) : « لا تسرف ، لا تسرف » .

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيها الإخوة :

ورد أنّ في يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له ، ولعلّها تكون هذه الساعة .

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، اللّهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شرّ .

اللّهمّ إنّا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، ونسألك القصد في الفقر والغنى ، ونسألك الإخلاص في السّرّ والعلانية .

اللّهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللّهمّ اغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمنّ سواك .

اللّهم انصر أمّة الاسلام على من عاداها ، اللّهمّ عليك بالكائدين لها .

اللّهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللّهم ردّ عنا كيدهم ، وفلّ حدّهم ، اللّهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم .

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١) .

اللّهمّ آمين .

﴿. . وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ . . ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .   (٢) العنكبوت : ٤٥ .

صفات عباد الرحمن

٦- التوحيد

● الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش في رحاب القرآن ومع عباد الرحمن ، ومن منّا لا يحب أن يكون عبداً من عباد الرحمن ، من منّا لا يحبّ أن ينتمي إلى هذه الفئة الصالحة الصادقة ، التى رضيت عن الله تعالى ورضي الله عنها ، وجعل جزاءها الجنّة ﴿ أُوْلَئِكَ يجزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا ﴾ (١) ، وسجّل ذكرها في كتابه ، وذكرهم بهذه الأوصاف الكريمة ، وهذه السّمات الجليلة ، وهذه الأخلاق الجميلة .

فبيّن الله تعالى من أول الأمر حالهم في أنفسهم ، حال التواضع والسكينة : ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (٢) ، وحالهم مع النّاس وبخاصّة أولئك السفهاء والجاهلون : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ (٣) ، وحالهم مع ربّهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (٤) ، ثمّ ذكر حالهم في أموالهم ، فهم فيها متوسّطون معتدلون ، شأنهم شأنهم في كل أمورهم وفي كلّ حياتهم ، منهجهم الوسط ، وطريقهم الاعتدال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (٥) . ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . . ﴾ (٦) .

هكذا ذكرهم الله تعالى بتلك الصفات الإيجابيّة ، ولكنّ الدين أمر ونهي ، فإذا كان هذا حالهم مع أوامر الله تعالى وتوجيهات الدين ، فما هي حالهم مع ما نهى الله تعالى عنه ؟

هذا ما ذكرته هذه الآية الكريمة التى نقف عند الفقرة الأولى منها : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ

---

(١) الفرقان : ٧٥ . (٢)، (٣) الفرقان : ٦٣ .

(٤) الفرقان : ٦٤-٦٦ . (٥) الفرقان : ٦٧ . (٦) البقرة : ١٤٣ .

يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (١) . إنّ سيرتهم غير سيرة المشركين ، المشركون يعبدون مع الله آلهة شتّى ، اتخذوها أرباباً من دون الله أو مع الله ، والمشركون لا يتورّعون عن سفك الدماء وقتل الأنفس ، والمشركون لا يتورّعون عن هتك الاعراض وسفح الشهوات ، ولكن عباد الرحمن تورّعوا عن هذا كلّه .

فأوّل ما اتصفوا به هو التوحيد ، ولهذا « لا يدعون مع الله إلها آخر » : لا يتجهون إلى غير الله بالدعاء ، و « الدعاء مخّ العبادة » (٢) بل الدعاء هو العبادة .

روى الترمذيّ أنّ النبي ﷺ قال : « الدعاء هو العبادة » (٣) وقرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُـمُ ادْعُونِـي أَسْتَجِبْ لَكُـمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾(٤) ، فوضع كلمة(الدعاء) موضع كلمة (العبادة) وكلمة (العبادة) موضع كلمة (الدعاء) .

فـ ﴿ الَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ ﴾ أي لا يعبدون إلاّ الله ، ولا يقدّسون غير الله ، ولا يبتهلون إلى غير الله ، ولا يسجدون لغير الله ، ولا ينحنون لغير الله ، إلههم (الله) وحده .

قد أفردوا الله وحده بالعبادة وبالاستعانة ، فهموا سرّ قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٥) أي : لا نعبد إلاّ إيّاك ولا نستعين إلاّ بك : « . . إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله . . » (٦) ، وكما قال الله تعالى على لسان

(١) الفرقان : ٦٨ .

(٢) رواه الترمذي عن أنس بن مالك ، ثمّ قال : هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلاّ من حديث ابن لهيعة (صحيح الترمذي ، أبواب الدعوات : باب ما جاء في فضل الدعاء) .

(٣) ورواه مسلم والطبراني وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب المفرد ،وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن النعمان بن بشير ، وقال الترمذي : حسن صحيح (كشف الخفاء للعجلوني : ٤٠٣/١ برقم ١٢٩٥) .

(٤) غافر : ٦٠ . (٥) الفاتحة : ٥ .

(٦) قطعة من حديث ابن عباس ، الذي رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، وسيأتي نصّه كاملاً في صفحة (٨١) .

شعيب : ﴿.. وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(١) ، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ..﴾(٢) .

إن تفرد الله بالعبادة والإنابة ، وبالتوكل والاستعانة : هذه هي حقيقة التوحيد .

والتوحيد نوعان : توحيد الربوبيّة ، وتوحيد الألوهيّة .

توحيد الربوبيّة : أن تعتقد أنّه لا ربّ غير الله ، ولا خالق ولا رازق غير الله ، فهو خالق السموات والأرض ومالكهما .

وهذا النوع من التوحيد قد اعترف به المشركون ، كانت قريش ومشركو العرب يعترفون بأنّ الله ربّ السموات والأرض : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ..﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ..﴾ (٤) .

ومع هذا الاعتراف أشركوا مع الله آلهة أخرى ، عبدوا الأحجار وعبدوا الأوثان والأصنام ، ومن النّاس من عبد الشمس ومن عبد القمر ، ومنهم ومنهم .

ومن هنا قالوا : إنّ توحيد الربوبيّة لا يغني عن التوحيد الآخر : توحيد الألوهيّة .

توحيد الألوهيّة : أن لا تؤلّه غير الله ، ولا تتجه بالدعاء والعبادة والاستغاثة والرجاء والخوف إلاّ إلى الله وحده .

وهذا هو التوحيد الذي أنزل الله به كتبه ، وبعث به رسله ، ليدعوا إليه أقوامهم ، فإنّ الذي أضل البشريّة ليس هو الجحود والإلحاد ، بل هو الشرك والوثنيّة .

ولهذا كان النّداء الأول في رسالات الرسل : ﴿ .. يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ..﴾ (٥) ، وكان التوحيد هو القاسم المشترك بين رسل الله جميعاً : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٦) ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ..﴾ (٧) .

---

(١) هود : ٨٨ . (٢) هود : ١٢٣ .
(٣) لقمان : ٢٥ ، الزّمر ٣٨ . (٤) يونس : ٣١ .
(٥) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ ، هود : ٥٠ ، ٦١ ، ٨٤ .
(٦) الأنبياء : ٢٥ (٧) النحل : ٣٦ .

كان المشركون يعتقدون أنّ الله خالق كلّ شيء ويعبدون غيره ، ويقولون عن آلهتهم المزعومة : ﴿ .. مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى .. ﴾ (١) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ .. ﴾.(٢) ، فجاء الإسلام ليحرّر هؤلاء من عبادة غير الله ، سواء كان هذا الغير حجراً أو بشراً ، أو جنًّا أو ملَكاً ، أو حيواناً أو نجماً ، أو شمساً أو قمراً ، أو جماداً أو أيّ شيء .

كان النبيﷺ يختم رسائله إلى ملوك الأرض - إلى قيصر .. إلى أمراء النصارى .. إلى المقوقس .. إلى النجاشي .. إلى غير هؤلاء من أهل الكتاب - بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ .. ﴾(٣) .

إنّ الذي أفسد الحياة ، وأفسد المجتمعات ، هو : دخول الشرك عليها ، واتخاذ بعضهم بعضا أرباباً من دون الله ، فإنّهم لم يعبدوا الحجر فقط بل عبدوا البشر .

كان هناك مثل (النّمروذ) الذي قال : أنا أحي وأميت (٤) ، فقد حكم على رجل بالإعدام ثمّ أعدمه ، وحكم على آخر بالإعدام ثمّ عفا عنه ، أنذا أحيي وأميت !

و (فرعون) الذي ادعّى الألوهيّة ، وقال لقومه: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (٥) . ﴿ .. مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. ﴾ (٦) ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. ﴾ (٧) .

وهناك كثيرون ادّعوا لأنفسهم أو ادُّعي لهم أنّهم آلهة أو أرباب من دون الله ، وقد لا يدّعون ذلك بألفاظهم ولكن أعمالهم تنبيء عنهم ، وتصرّفاتهم تعبّر عن هذا التأليه الكامل ، فهم يريدون أن يذلّوا عباد الله ، وأن يصبح النّاس لهم عبيداً ، يأمرونهم فيطيعون ، ويشيرون إليهم فيسمعون ، ويشرّعون لهم فينفّذون ، ويحلّون لهم الحرام أو يحرّمون عليهم الحلال فيستجيبون !

---

(١) الزمر : ٣ (٢) يونس : ١٨ .

(٣) آل عمران : ٦٤ .

(٤) قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. ﴾ (البقرة : ٢٥٨) .

(٥) النّازعات : ٢٤ . (٦) القصص : ٣٨ .

(٧) الزخرف : ٥٤ .

لا يقولون : لم ، ولايقولون : لا ، يحرّمون عليهم ما شاؤوا ويحلّون لهم ما شاووا !

دخل عدي بن حاتم - وكان قد تنصر في الجاهلّية - على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١) ، فقال إنّهم لم يعبدوهم ، قال : « بلى ، إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم » (٢) .

هذا نوع من العبادة : أن تتخذ أناساً مشرّعين ، يشرّعون لك ما شاؤوا ، يحلّون ويحرّمون ، اغتصبوا سلطة الإلهية !

هناك أنواع شتّى من الربوبيّة تظاهر بها النّاس فى مختلف القرون وعلى مر العصور ، ودان الناس لهم وأطاعوهم ، فانقسموا قسمين : آلهة وعبيد ، آلهة يفعلون ما يشاؤون ، ويحكمون بما يريدون ، ولا يُسألون عمّا يفعلون ، وعبيد ليس لهم إلاّ السمع والطاعة .

جاء الإسلام يحرّر الناس من هذا كلّه ، يحرّر النفوس من الشرك ، يحرّرها بالتوحيد ، يحررها بـ (لا إله إلا الله) هذه الكلمة كانت إيذاناً بحياة جديدة ، ومجتمع جديد ، كانت إعلاناً لحرّيّة البشر ولحقوق الإنسان .

بهذه الكلمة يجب أن ترتفع الحياة ، وأن تتحرّر النفوس ، وأن ترتفع الرؤوس ، ولا تنحني إلا لله في ركوع أو سجود .

كان التوحيد تحريراً حقيقياً للبشريّة .

ولم يسمح النّبيّ ﷺ بأيّ نوع من أنواع الشرك ، سواء كان أكبر أو أصغر .

هناك الشرك الأكبر وهو نوعان : ظاهر جليّ كاتخاذ آلهة مع الله ، وباطن خفيّ كدعاء الموتى والمقبورين والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم .

وهناك الشرك الأصغر : كالتبّرك بالشجر أو بالحجر ، وكالحلف بغير الله تعالى، كأن تقسم بالنّبىّ ﷺ أو بالكعبة أو بالشيخ الفلاني أو بالوليّ الفلاني ، وقد قال النبي

(١) التوبة : ٣١ .

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة التوبة ، من رواية الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن جرير ، من طرق ، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه (٢/٣٤٨-٣٤٩) ، طبعة الحلبى .

ﷺ : « من حلف بغير الله فقد كفـــر ، أو أشرك »(١) . ، لا تحـــــلف إلاّ بالله : « .. من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »(٢) .

ومن الشرك الأصغر أن تقول : لولا فلان لحصل كذا وكذا ، فالمسلم ينبغى أن يتحرّز في ألفاظه ويقول : لولا الله ثمّ فلان لكان كذا وكذا .

قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ، فقال : « أجعلتني لله نداً ؟ قل : ماشاء الله وحده » (٣) . وفي حديث آخر : « لا تقولوا : ماشاء الله وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء الله ، ثمّ ما شاء فلان » (٤) .

لا ينبغي أن يُقال : باسم الله واسم فلان ، لأنّ ظاهرة هذه الألفاظ جعل (فلان) هذا كأنّه شريك مع الله ، كأنه ندٌّ لله تبارك وتعالى .

أراد النّبيّ ﷺ أن يحرّر الانسان المسلم فلا يتجه إلاّ إلى الله وحده .

حتى الغلوّ في شخصه ﷺ نهى النّاس عنه ، ما كان يجب أن يغلو الناس فيه ، وقال : « لا تُطرُوني كما أَطْرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله »(٥) . ومن هنا نقول في التشهد : أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله .

ولهـذا وصفـه الله بالعبوديّـة فـي أسمي المقامـات : ﴿ سُبْحَـانَ الَّـذِى أَسْرَى

---

(١) رواه الترمذي وحسّنه ، وابن حبّان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٧٧١-٧٧٢ برقم ١٧٩٢).

(٢) رواه مالك ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وأوّله : « إنّ الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ... » .

(٣) رواه أحمد في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وإسناده صحيح ، ورواه أيضاً النّسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨) بلفظ « أجعلتني لله عدلاً » أنظر (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط ص ٥٠٥) و (زاد المعاد بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط : ٢/٣٥٣)

(٤) رواه أبو داود ، وأحمد ، من حديث حذيفــــة ، وإسناده صحيح (زاد المعاد: ٢/ ٣٥٣) .

(٥) رواه البخاري في صحيحه ، من حديث عمر رضي الله عنه (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٣/ ٢٤٦ برقم ٣٦٨١) والإطراء : مجاوزة الحدّ في المدح والكذب فيه .

بعَبْده . . ﴾(١) ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْده . . ﴾ (٢) ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِه الكتَابَ . . ﴾ (٣) ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ (٤) .

وهذا هو ما يفتخر به ﷺ ، أنه عبدٌ لله .

لم يسـمح لأحد أن يغلو فيه ، ولمّا جاء بعض النّاس وقالوا له : يا رسول الله ، يا خيرنا وابن خيرنا ، وسيّدنا وابن سيّدنا ، قال : « يا أيها الناس قولوا بقولكم ، ولا يستهوينّكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أحبّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ » (٥) .

ومن الشرك الأصغر : النّذر لغير الله (٦) ، والذبح لغير الله (٧) ، والرّقى (٨)، والتمائم (٩) ، والتوّلة (١٠) ، وغير ذلك (١١) .

---

(١) الاسراء : ١ . (٢) الفرقان : ١ . (٣) الكهف : ١ . (٤) النجم : ١٠

(٥) رواه النّسائى عن أنس ﷺ بسند جيّد(حقيقة التوحيد للقرضاوي)ص٦٣٠وانظر(عمل اليوم والليلة بتحقيق فاروق حماده، الأحاديث: ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩) .

(٦) قال تعالى :﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ﴿ البقرة : ٢٧٠ ﴾ . وفي الحديث : « من نَذر أنْ يطيع الله فليطعه ، ومَن نَذر أن يعصيَ الله فلا يعصيه » رواه البخاري وغيره .

(٧) قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لله رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٢-١٦٣) . والنسك : الذبح بقصد التقرّب ، وفي الحديث عن عليّ رضي الله عنه : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات - وذكر أوّلها - : « لَعن الله من ذبح لغير الله » رواه مسلم .

(٨) التي تسمّى (العزائم) وهي عبارة عن كلمات وتمتمات كان يتعاطاها أهل الجاهليّة معتقدين أنّها تدفع عنهم الآفات ، مستعينين بالجنّ أو مردّدين بعض الألفاظ الأعجميّة أو غير المفهومة ، فجاء الإسلام فأبطل ذلك ، إلاّ ما ذُكر فيه أسماء الله وصفاته وآياته والمأثور عن النبي ﷺ فهذا حسن .

(٩) جمع تميمة ، وهي خرزات كان العرب يعلّقونها وخاصّة على الأولاد زاعمين أنّها تدفع عنهم الجنّ أو تقيهم العين ونحوها ، فأبطلها الإسلام ، ومن هذه التمائم مايسمّى (الجامعة) أو (الحرز) أو (الحجاب) أو ما شابه ذلك ، فكلّ ذلك من كبائر المنكرات ، لكن إذا كان المعلّق من القرآن فرخّص فيه بعض السلف ، وانظر : كتاب الشيخ القرضاوي :« موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن الكهانة والتمائم والرقى » نشرته مكتبة وهبة .

(١٠) شيىء يصنعونه يزعمون أنّه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته ، وهي ضرب من السحر ، وفي حديث ابن مسعود : « إنّ الرّقى والتمائم والتّولة شرك » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ، والحاكم وصححّه ، ووافقه الذهبى (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد بتحقيق الأرناؤوط) ص ١٣٣ .

(١١) هناك ألوان أخرى من الشرك الأصغر ذكرها الأستاذ القرضاوي في رسالته الوجيزة النافعة : « حقيقة التوحيد » التي نشرتها مكتبة وهبة بالقاهرة .

كلّ هذه ضروب من الشرك لا ينبغي للمسلم أن يقع فيها ، وقد حذّرنا النّبيّ ﷺ منها .

جاء الإسلام يدعو إلى التوحيد ، وإلى التحرّر من الشرك أكبره وأصغره ، وجليّه وخفيّه ، وذلك ليكوّن الشخصيّة المتزنة . . الشخصيّة السّوية . . الشخصيّة التي لاترجو إلاّ الله ولا تخاف إلاّ الله .

المشرك يخاف من كلّ شيىء ويخاف على كلّ شيىء ، والمؤمن الذي وحّد الله تعالى لا يخاف من شيىء ، سدّ منافذ الخوف كلّها ، فلم يعد يخاف إلاّ ربّه ، حتى الموت لا يخاف منه ، لأنّه يعلم أنّ بعد الموت حياة أخرى يلقى فيها ربّه ، ويُخلّد فيها في عمله ، ولا يخاف على الرزق ولايخاف على الأجل ، لأن الرزق مضمون والأجل محدود : ﴿ . . . فَإِذا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (١) .

ومن هنا كان التوحيد مصدر الأمان النفسيّ : ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ (أى لم يشوبوا توحيدهم بشرك) أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُهتَدُونَ ﴾ (٢) ، أي : لهم الأمن في الدنيا والاهتداء ، ولهم في الآخرة كذلك .

علي حين قال الله تعالى عن المشركين : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ، وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالمِينَ ﴾ (٣) .

التوحيد تحرير للنّفس ، فلا تذلّ لغير الله ، ولا تعتز إلا بالله وحده . ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . .﴾ (٤) ، ﴿ مَنَ كَانَ يُرِيدُ الْعِزةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا . . ﴾ (٥) .

التوحيد سموّ بالإنسان ، وارتفاع به عن حضيض الأرض إلى الأفق الأعلى ، أمّا الشرك فهو انحطاط بالإنسان ، ينحطّ الإنسان ليعبد إنساناً مثله ، أو ليعبد أشياء سُخرّت من أجله ، يعبد أشياء لا تضرّ ولا تنفع ، يعبد أشياء لا تُبصر ولا تسمع ، يعبد أشياء لاتعي ولا تعقل .

انظروا إلى ذلك الذي ينحت الحجر بيده ثمّ يتوجّه إليه راجياً خائفاً خاشعاً

(١) الأعراف : ٣٤ ، النحل : ٦١ . (٢) الأنعام : ٨٢ . (٣) آل عمران : ١٥١ .
(٤) المنافقون : ٨ . (٥) فاطر : ١٠ .

متضرِّعاً ! كما قال ابراهيم عليه السلام لقومه : ﴿ . . أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعمَلُونَ ﴾ (١) .

انظروا إلى ذلك الذي يعبد الحيوان الذي سُخِّر لمنفعته ، ويقدّس الأنعام التي تخدمه وهى صحيحة ، ويأكلها وهي ذبيحة !

كنت في الأسبوع الماضي في الهند ، فرأيتهم كيف يقدّسون الأبقار التي لا تملك لنفسـها فضلاً عن غيرها - ضرًّا أو نفعاً أو موتاً أو حياة .

والعجيب أنّهم يُؤلّهون البقرة ولا يؤلّهون الجاموسة ، والجاموسة أنفع منها ، وأكثر لبناً ، ويُؤلّهون الأنثى ولا يُؤلّهون الذكر ، الأنثى تُقدَّس وتُعبَد ، والثور يُضرب ويُهان ويُستخدم في حمل الأثقال وغير ذلك .

ما الذي جعل هذه إلهاً وذلك ليس بإله ؟ ! وما الذي جعل البقرة إلهاً والجاموسة ليست بإله ؟ ! شيىء عجيب !!

هناك وجدنا من يعبد الثعابين ، ومن يعبد النّمل ، ومن يعبد الشيطان ، وهناك من يعبد الفرج ، ومن يعبد الحشرات !!

الشرك أذلّ الإنسان وانحطّ به ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ . . وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢) .

والشرك وكرٌ للخرافات ومباءة للأضاليل ، يجعل الإنسان أسير الأوهام ، ويصبح زمامه بيد أولئك الكهاّن الذين يبيعون فيه ويشترون ، ويسوقونه أو يقودونه كما تُساق أو تُقاد الأنعام .

أولئك الكهنة وسدنة الأصنام وخدمتها ، يتحكّمون في أولئك الناس ،إذا قالوا لهم شيئاً سمعوا وأطاعوا ، وهذا هو الشرك ، وهذه هي العبوديّة ، عبوديّة الإنسان للإنسان !

جاء الإسلام ليحرّر الإنسان من هذا الوهم ، ويجعله مع الله مباشرة ، ليست هناك وساطة بين الله وعباده ، ليس هناك سماسرة محتكرون لهذه الوساطة ، تستطيع أن تقرع باب ربّك في أيّ وقت وتدعوه بما تشاء ، فيقول لك: لبيك وسعديك ، تستطيع أن تصلّي في أيّ بقعة من الأرض :

---

(١) الصّافّات : ٩٥ ، ٩٦ .   (٢) الحجّ : ٣١ .

« وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهورا » (١)، تستطيع أن تؤدّي عبادتك وأنت متحررٌ من رقّ الكهنوت .

جاء الإسلام ليحررّنا من العبوديّة لغير الله تبارَك وتعالى ، وهذه مزيّة عباد الرحمن ، أنهّم : « لا يدعون مع الله إلهاً آخر » أيّا كان هذا الإله ، تحرّروا من كل الوثنيات : الوثنيّة الدينيْة ، والوثنيّة الاقتصاديّة ، والوثنيّة الاجتماعيّة .

(أ) **الوثنيّة الدينيّة :** اتخاذ آلهة أخري ، سواء كانت وثنيّة كْبري أو وثنيّة صغرى، وثنيّة ملحوظة أو وثنيّة غير ملحوظة .

قد يقول بعض الناس : نحن لا نعبد هؤلاء ، ولكن إذا كنت تتوجّه إلى صاحب الضريح وتستغيثه وتبتهل إليه ، وتخاف منه أكثر ممّا تخاف الله (٢) ، فهذا من الوثنيّة.

لا يجوز للمسلم أن يستغيث بوليّ أو صاحب ضريح ، إنما عليه - إن كان مسلماً- إذا زار قبراً من هذه القبور أن يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنّا إن شاء الله للاحقون ، أسأل الله لنا ولكم العافية » (٣) ، فهو يدعو لهم وليس يدعوهم ، هذا منطق الإسلام .

أمّا أن تدعوهم وأنت لا تعرف إن كانوا من أهل الجنّة أم من أهل النّار ، لأنك لاتدري شيئا عن خواتيم العباد ، لا يستطيع إنسان أن يجزم أنّ صاحب هذا القبر قد خُتم له بالإيمان ، وهو في الجنّة .

ولمّا مات عثمان بن مظعون - وهو من السابقين الأوّلين الذين دخلوا في الإسلام وأوذوا في سبيله وهاجروا من أجله - قالت أمّ العلاء الأنصـــاريّة : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك : لقد أكرمك الله ، فقال النبي ﷺ : « مَنْ هذه المتألية

---

(١) قطعة من حديث جابر المتفق عليه ، ورواه أيضاً النّسائي ، ونصّه : « أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصّة وبُعثت إلى النّاس عامّة » : (الجامع الصغير للسيوطي : ١/ ٤٦-٤٧) وشرحه:(فيض القدير للمناوي:١/ ٥٦٦-٥٦٨ برقم١١٧٤) .

(٢) بعض النّاس يُقسم بالله كاذباً ويخشى أن يقسم بالشيخ أو بالولي!!

(٣) حديث صحيح ، أخرجه مسلم في كتاب (الجنائز) باب (ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها) . انظر : (صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٥) ط . دار الفكر .

على الله تعالى ؟ وما يدريك أنّ الله أكرمه ؟ والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يُفعل بي ؟ » قالت : فوالله لا أزكّي بعده أحداً أبداً (١) .

فلم يرض النّبيّ ﷺ أن تقول الصحابيّة : (فشهادتي عليك : لقد أكرمك الله) بهذا الجزم ، لأنّها صيغة قسم ، ومن أين تعلم أنّ هذا قد خُتم له بالجنّة ؟ العشرة المبشّرون بالجنّة - وأمثالهم - هم الذين نشهد لهم بالجنّة ، وما عدا ذلك فكلّ إنسان مصيره إلى الله .

ثم لماذا تطلب من غيرك وهو مثلك عبد ومخلوق ؟! هل يسأل (الشحّاتُ) (الشحّاتَ) ؟!

اسأل صاحب الخلق والأمر ، اسأل صاحب الخزائن التي لا تنفد : « . . إذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . . » (٢) .

(ب) **الوثنيّة الاقتصاديّة** : عبادة المال ، عبادة الدينار والدرهم ، كما جاء في حديث البخاري : « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة » (٣) وزاد في رواية : « وعبد القطيفة »(٤).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن أمّ العلاء الأنصاريّة في عدّة مواضع : في الجنائز والشهادات ، وفضائل الصحابة والتعبير ، وهو مع قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ، وَمَا أَدرى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ . .﴾ (٩) ، وهذا قبل أن تنزل سورة الفتح وفيها : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ . .﴾ (٢) فالأحقاف مكية ، والفتح مدنيّة باتفاق .

(٢) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، ونصّه كاملاً : قال : كنت خلف النبي ﷺ يوما فقال : « يا غلام ، إنّي أعلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وهو الحديث التاسع عشر من الأربعين النوويّة .

(٣) بفتح الخاء : ثوب مُعلّم من خزّ أو صوف .

(٤) هي كساء له خمل يجعل دثارا ، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وتتمته : « إن أُعطي رضي ، وإن لم يُعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرّة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يُؤذن له ، وإن شفع لم يُشفّع » . وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٣٦٨-٣٦٩ برقم ٦٥٨) .

هناك أناس أشركوا مع الله المال ، فهم يلهثون وراءه ، يستحلّون من أجله كلّ حرام ، ويرتكبون كل موبقة ، هؤلاء عبيد المال .

(ج) الوثنيّة الاجتماعيّة (أو الوثنيّة السياسيّة) : إذا كان هناك من يعبدون القبور، فهناك من يعبدون القصور ، شرك العوام تأليه الأموات ، وشرك الخواص تأليه الأحياء ! طاعتهم طاعة مطلقة ، إعطاؤهم حقوق الألوهيّة من التعظيم والتقديس والخوف والرجاء.

وكلّ ذلك وثنيّة .

إذا كنت عبداً لله حقا فلا تؤلّه غير الله ، ولا تلتفت بقلبك إلاّ إلى الله ، لا يملك أحد لك ضرًّا ولا نفعاً ، ولا حياة ولا موتا ، ولا يستطيع مخلوق أن يقدّم لك أجلاً ، أو ينقص لك رزقا : « . . واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف »(١) .

التوحيد الحقيقي يجعل من المسلم شخصيّة قويّة ، تقف عند الحقّ ، وتتشبّث به ، وتجادل دونه ، وتدافع عنه، وتبذل من أجله المال والنفس والنفيس ، والغالي والرخيص، وهذا هو الذي تقوم به النهضات ، وتنتصر به الرسالات ، ويرتفع به شأن الأمم .

المؤمنون الموحّدون الأقوياء هم الذين أخلصت قلوبهم لله ، وتحرّرت له ، فلم يعد هناك أرباب أخرى ، كما قال يوسف عليه السلام لأصحابه في السجن : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٢) أتعبد عددًا من الآلهة أم إلهاً واحداً قهّارا ؟! .

الذين يعبدون الآلهة المختلفة تتوزّع قلوبهم رغبات مختلفة ، وأهواء مختلفة ، لايدري أيّهم يُرضي وأيّهم يُسخط ، كما ضرب القرآن لنا مثلاً : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ (٣).

إنّه مثل واضح : عبد له سيّد واحد عرف ما يرضيه وما يسخطه ، فلزم رضاه ففاز بقربه ومحبّته ، وعبد له أسياد مختلفون ، وهم شركاء متشاكسون ، هذا يأمره أن

(١) جزء من حديث ابن عباس السابق : « يا غلام إنّي أعلمك كلمات . . . » .
(٢) يوسف : ٣٩ . (٣) الزمر : ٢٩ .

يذهب إلى الشرق وهذا إلى الغرب ، فلا يدري من يُرضي ومن يُسخط ، ومن يطيع ومن يعصي .

هذا فرق ما بين الموحّد والمشرك ، ما بين المؤمن وغير المؤمن ، ما بين عبد الرحمن وعبد غير الرحمن .

عباد الرحمن حرّروا أنفسهم من كل آلهة سوى الله ، فلا يدعون مع الله إلهاً آخر ، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم ، وهكذا ينبغي أن نكون .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من الذين أخلصهم الله لدينه ، وأخلصوا دينهم لله .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

- **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد :

فقد ورد أنّ في يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يوافقها عبدٌ مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له ، ولعلّها تكون هذه الساعة .

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللّهمّ استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا .

اللّهمّ أكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وارض عنّا وأرضنا .

﴿ . رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

اللّهمّ انصر الاسلام وأعزّ المسلمين ، اللّهمّ اجعل كلمة الاسلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى .

اللّهمّ عليك بأعدائك أعداء الإسلام أيّا كانوا ، اللّهمّ ردّ عن المسلمين كيدهم ،

---

(١) البقرة : ٢٠١ . (٢) الحشر : ١٠ .

وفلّ حدّهم ، وأذهب عن أرض المسلمين سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن

٧ – اجتناب القتل واحترام الحياة

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لا زلنا نعيش مع (عباد الرحمن) ، ولا زلنا نعيش في رحاب القرآن ، مع هذه الطائفة الراضية المرضيّة ، الذين أثنى الله تعالى عليهم في كتابه ، وذكرهم لنا نموذجاً يُحتذي ، ويُقتدى به فيهتدى .

ووقفنا في أوصافهم عند قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (١) .

إنّهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، بل لا يدعون إلاّ الله وحده ، ولا يعبدون إلاّ الله وحده ، ولا يستعينون إلاّ بالله وحده ، شعارهم : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) .

بهذا حافظوا علي الهدف الأول من رسالات الله إلى خلقه ، وهو : العقيدة . . الإيمان .

ولكن الرسائل السماويّة والشرائع الإلهيّة ،لم تأت لحفظ الدين والعقيدة فحسب ، إنما جاءت لحفظ الدماء والأنفس ، ولحفظ الأعراض والحرمات ، ولحفظ العقول ، ولحفظ الأنساب ، ولحفظ الأموال .

فمن هنا قرن الله هذه الصفة بصفة أخرى فقال : ﴿ . . وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ . . ﴾ (٣) .

والقرآن قرن القتل بالشرك لبشاعة هذه الجريمة وفظاعتها ، الشرك اعتداء على

---

(١) الفرقان : ٦٨ .　　(٢) الفاتحة : ٥ .　　(٣) الفرقان : ٦٨ .

الدين ، والقتل اعتداء على الحياة ، ومن أنت أيّها الإنسان حتى تعتدي على حياة غيرك؟ هذه الحياة وديعة أودعها الله تعالى لصاحبها ، فكيف تسلبها من غيرك ؟! هل تستطيع أن تخلق ذبابة أو بعوضة حتى تستحلّ قتل نفس مؤمنة بغير حق ؟! هل تستطيع أنت أن تُودع الروح في أدنى مخلوقات هذه الأرض ؟! كيف تجرؤ على قتل نفس وسفك دم ؟!

لقد جاء الدين يحرّم سفك الدماء ، ولا يجيز للإنسان أن يعتدي على إنسان بغير حق ، ولماذا يقتل النّاس النّاس ؟ لماذا يقتلون الأنفس المعصومة ؟ والنفس المعصومة هي نفس الإنسان المسلم ، أو نفس الإنسان المعاهد .

من كان يقول : (لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّداً رسول الله) فقد عُصم دمه وماله إلاّ بالحق ، ومن عاهد المسلمين بعقد ذمّة أو هدنة من سلطان مسلم ، أو إجارة من مسلم ، فلا يجوز أن يُعتدى عليه .

هذه هي النفس المعصومة فلا يجوز قتلها .

بل كلّ من سالم المسلمين وألقى إليهم السَّلَم وكفّ يده عنهم ، فلا يجوز قتله ، كما قال تعالى : ﴿ . . فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾(١) .

ولكن الناس من قديم الزمان سوّلت لهم أنفسهم الأمّارة بالسوء أن يقتل بعضهم بعضا ، من أجل دنيا تافهة ، أو من أجل غضب طارىء ، أو من أجل حسد أو كراهية أو بغضاء ، أو تنافس على عرض من أعراض هذه الحياة ، أو لغير ذلك .

حين كان النّاس أسرة واحدة من أب وأمّ وأولادهما حدثت هذه الجريمة البشعة ، قتل ابن آدم أخاه من قديم الزمان كما قصّ علينا القرآن : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ [ثمّ خوّفه وهدّده] * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ [ولكن لم ينفع فيه اللّين ولا التهديد] * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٢) .

---

(١) النساء : ٩٠ .
(٢) المائدة : ٢٧-٣٠ .

في فجر البشريّة . . في فجر الحياة ، حيث لم يكن يعرف الإنسان كيف يواري جثّة أخيه الإنسان ، فهذه أوّل جريمة تقع على وجه الأرض ، حتى بعث الله غراباً يُعلّم الإنسان كيف يواري سوأة أخيه .

من قديم الزمان تعلّم الناس العدوان ، من قديم الزمان عرف الناس الشرّ ، ووُجد في الناس الشرّير الذي يقتل أخاه بغير ذنب جناه ، ووُجد في النّاس الطيب الوديع المسالم الذي يقول لأخيه : « لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلنّك إنّي أخاف الله ربّ العالمين » ، ووُجد الذي طوعت له نفسه الأمّارة بالسوء قتل أخيه فقتله .

ولم يكن هناك مجتمع يهيىء له أسباب الجريمة ، كما يقول الذين يزعمون أنّ المجرمين - كلّ المجرمين - ضحايا المجتمع ، وأنّ المجتمع هو الذي يصنع المجرم ، ويدفعه للجريمة !!

ولكن ظلم الإنسان للإنسان قديم ، وأنّى ظلم أكبر من الإعتداء على الحياة ؟

غضب الرسول الكريم على هذه الجريمة فقال : « لا تقتل نفس ظلما إلاّ كان على ابن آدم الأوّل كفل منها ، لأنّه أوّل من سنّ القتل » (١) .

وعقب القرآن عليها فقال : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . . ﴾ (٢) .

الإسلام لا يجيز للمسلم أن يقتل المسلم : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا . . ﴾ (٣) .

استبعد القرآن كلّ الاستبعاد أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن ، إلاّ أن يقع ذلك خطا منه وبغير قصد ، وجعل في ذلك الدّية والكفّارة :

دية مسلّمة إلى أهله .

وكفّارة : عتق رقبة . فكما قتل إنساناً يحاول أن يحي إنساناً آخر ، واعتبر القرآن

---

(١) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود ، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٧٣٨٧) .

(٢) المائدة : ٣٢ .　　(٣) النّساء : ٩٢ .

تحرير الرقبة بمثابة الإحياء ، لأنّ العبوديّة بمثابة الموت الأدبي ، والحرّيّة بمثابة حياة جديدة.

ومن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وهذا هو المتيسرّ في هذا الزمن.

الذين يقتلون خطأ بسيّاراتهم ، بعضهم يظنّ أنّه يكفيه أن يدفع الدية ، أو تدفع شركة التأمين الدية ولا شيىء عليه بعد ذلك ، لا ، عليه أن يصوم شهرين متتابعين توبة من الله ، لو أفطر - بعد شهر أو بعد سبعة وخمسين يوما - قبل أن يتمّ الشهرين ، عليه أن يعيد من جديد ، حتى لا يستهتر بأرواح النّاس .

وبعض الذين يفعلون هذا ربّما لا يُعتبر قتلهم خطأ ، من أمثال هؤلاء المتهوّرين المجانين ، الذين يسيرون في الشوارع كأنّما يستعرضون عضلاتهم ، هؤلاء الذين لايمشون على الأرض هونا بسيّاراتهم شأن عباد الرحمن ، هؤلاء الذين يقتلون الناس ويزهقون الأرواح ، لا أظنّ قتلهم خطأ ، ولا يُعتبر من باب الخطأ ، إنّما هو من باب التعدّي ، ويجب أن يُعاقبوا عقوبة أخرى فوق عقوبة القتل الخطأ .

لماذا يقتل المؤمنُ المؤمنَ ؟!

هل في هذه الحياة ما يستحق أن يقتل المسلم أخاه المسلم من أجله ؟!

هذه الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، فكيف يقتل الإنسان من أجلها أخاه المسلم ؟! والمفروض فيه أن يحميه ويدافع عنه ويبذل نفسه من أجله ، فكيف يقتله ؟!

ومن هنا يقول القرآن : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

أنظروا إلى هذه الأجزية الكبيرة . . إلى هذه العقوبات الضخمة :

١- « فجزاؤه جهنّم » .

٢- « خالدًا فيها » .

٣- « وغضب الله عليه » .

٤- « ولعنه » .

٥- « وأعدّ له عذاباً عظيما » .

---

(١) النساء : ٩٣ .

جهنّم والخلود فيها والغضب واللعنة من الله والعذاب العظيم .

وقال النبي ﷺ فيما رواه النّسائي والترمذي : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » (١) . ،وجاء في حديث آخر : « لو أنّ أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله في النّار » (٢) ، . وروى ابن ماجه أنّ النبي ﷺ طاف بالكعبة فقال : « ما أطيبك وأطيب ريحك ! ما أعظمك وأعظم حرمتك ! والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن (٣) ،أعظم حرمة منك : ماله ودمه وأن نظنّ به إلاّ خيرا » (٤) ، وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » (٥) . وقال : المؤمن : من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم » (٦) .

فكيف يسوغ - بعد هذه النصوص المحكمات - في عقل إنسان مسلم وفي ضميره وفي دينه أن تمتدّ يده بالإثم ليقتل إنساناً بغير حق ؟!

في حديث ابن مسعود الذي رواه البخاري وغيره : « أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء » (٧) ، أي أنّ أوّل ما يُحاسب عليه الناس في المحكمة الإلهيّة يوم القيامة : الدماء . . الأنفس ، وما ذلك إلاّ لخطرها وعظم أمرها .

ويرى عدد من الصحابة وعلماء السلف أنّ القاتل لا توبة له لشدّة جرمه ، وذلك

---

(١) رواه النسائي ، والترمذي ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وروى ابن ماجه نحوه من حديث البراء بن عازب ، بإسناد حسن (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٦٥ ، الحديث ١٤٤٦) .

(٢) رواه الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة وقال : هذا حديث غريب ، وله شواهد عند البيهقي والطبراني والأصفهاني ، وقد ذكرها كلّها المنذري (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٦٥ برقم ١٤٤٧) وقد ذكره في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٥٢٤٧) .

(٣) أي : حرمة دمه وماله وعرضه .

(٤) رواه ابن ماجه في سننه في كتاب الفتن عن عبد الله بن عمرو (٣٩٣٢) وقال في الزوائد : في إسناده مقال : نصر بن محمدّ - شيخ ابن ماجه - ضعّفه أبو حاتم ، وذكره ابن حبان في الثقات .

(٥) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة ، كما في صحيح الجامع الصغير (٧٢٤٢) .

(٦) رواه ابن ماجه وأحمد وابن حبان والحاكم عن فضالة بن عبيد ، المصدر السابق (٦٦٥٨) .

(٧) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنّسائي ، وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٦٤ برقم ١٤٤٤) .

لما روى بعضهم : « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً » (١) ، أي يضيق عليه دينه ، أو يضيق عليه ذنبه ، كما في بعض الروايات .

وروى معاوية عن النبي ﷺ : « كلّ ذنب عسى الله أن يغفره ، إلاّ الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمّدًا » (٢) .

كل ذنب عسى الله أن يغفره إلاّ هذين الذنبين : ذنب الشرك والموت على الكفر ، وقتل امرىء مؤمن بغير حق ، ويلحق به أن يساعد على قتله ، بل روى ابن ماجه أنّ النبي ﷺ قال : « من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة ، لقي الله مكتوب بين عينيه :آيس من رحمة الله » (٣) . ،قال سفيان بن عيينة - راوي هذا الحديث - : بشطر كلمة : أن يقول له (أقـ) يعني لا يكمل الكلمة (أقتل) ، فكيف بمن قتل ؟!

لقد حذّر رسول الله ﷺ الأمّة من بعده أن يرتدّوا إلى عصر الجاهليّة الجهلاء ، فيعادي بعضهم بعضا ، ويقتل بعضهم بعضا بغير حق ، فقال في حجّة الوداع أمام الجماهير المؤمنة بعد أن أمر باستنصات الناس : « لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٤) .

وفي رواية : « ويلكم - أو ويحكم - لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٥) .

فاعتبر هذا من شأن الكفار لا المسلمين : أن يضرب بعضهم رقاب بعض ، كما صحّ عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر» (٦) .

هناك أناس يجترئون على قتل الأنفس ، ولم يُبح الله قتل النفس إلاّ في حالات ثلاث ، كما في حديث ابن مسعود في الصحيحين : « لا يحلّ دم امرىء يشهد أن لا إله

---

(١) رواه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ورواه الحاكم وقال : صحيح على شرطهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٦٤ - ٦٦٥ برقم ١٤٤٥) .

(٢) رواه النسائي ، وأبو داود ، وابن حبان ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٦٦ ، الحديث ١٤٤٨) .

(٣) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه،ورمز له السيوطي بعلامة الضعف(الجامع الصغير : ٢/ ١٦٥) وانظر : (فيض القدير للمناوي : ٦/ ٧٢ برقم ٨٤٧١) .

(٤) متفق عليه عن جرير ، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٤٤) .

(٥) متفق عليه عن ابن عمر ، المصدر السابق (٤٥) .

(٦) متفق عليه عن ابن مسعود ، نفسه (٤٣) .

إلاّ الله وأني رسول الله ، إلاّ بإحدى ثلاث : الثيّب الزاني ، والنفس بالنفس [(١)] ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » [(٢)] .

الثيّب الزاني : الزاني المحصن ، من زنى وهو متزوّج ، وثبت عليه الزنا ، أي رآه أربعة من الشهود عياناً بياناً وهو يرتكب الفاحشة ، أو اعترف على نفسه أمام قاضي شرعيّ أربع مرّات ، فهذا يستحق القتل ، وليس القتل عقوبة على مجرّد الزنا ، ولكن على المجاهرة به إلى حدّ أن يراه أربعة من الناس .

والعقوبة هنا حقّ الإمام . . . حقّ وليّ الأمر ، فلا يجوز للفرد أن يجعل نفسه خصماً وحكماً ، يأخذ سلطة الاتهام وسلطة القضاء وسلطة التنفيذ ، يعاقب كما يشاء .

بعض الناس قتل ابنته البكر ، التي غرّها غارٌّ أو لعب بها شيطان فارتكبت الفاحشة ، مع أنّ الشرع لم يعط الأقارب حقّ العقوبات .

الذين يفعلون ذلك لم يفعلوه غيرةً على حرمات الله ، لأنّ هؤلاء إذا زنى أبناؤهم الذكور سكتوا عنهم ، وإذا زنت بناتهنّ قتلوهنّ !

فهل الزنا حلال للرجال حرام على النساء ؟! الزنا حرام على الذكر والأنثى ، إذاً فهي غيرة تقليديّة وليست غيرةً دينيّة .

والزنا في حدّ ذاته لا يستحق القتل ، إنّما الزنا الذي يستحقّ القتل هو ما كان بالشروط التي ذكرتها ، فلا يجوز للأب أن يقتل ابنته البكر إذا زنت ، لأنّ عقوبتها في الشرع هي الجلد ، وذلك لو ثبت عليها الزنا ثبوتاً قضائياً ، وليس هذا بيسير ، وإذا لم يجز للأب ، فمن باب أولى : لا يجوز للأخ أو غيره من العصبات ، كما لا يجوز للمرء أن يجعل من نفسه قاضياً ويقتل في جرائم لا تستحقّ القتل .

رأى رجل امرأته تسير مع رجل آخر فقتلها ، وهو لا يعلم إن كانت ارتكبت الفاحشة أو لم ترتكب ، ثمّ أحرق جثّتها ودفنها ، وقال : قد ماتت بالسكتة القلبيّة !

مشيها مع رجل أجنبيّ إثم وجريمة ولا شكّ في هذا ، بل لا يجوز أن تخرج من

---

(١) من قتل عمداً يقتل قصاصاً ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة ١٧٩] قال البغوي : أراد أنّ القاتل إذا علمَ أنّه إذا قتل يُقصّ منه ، كَفّ عن القتل ، ففيه حياته وحياة المقصود قتله (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٠/١٥٨) .

(٢) متفق على صحته من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (شرح السنة : ١٠/١٤٧ برقم ٢٥١٧) .

بيت زوجها بغير إذنه ، فضلاً عن أن تخرج مع رجل أجنبيّ ، فهي مجرمة وخائنة ولاشك ، ولكنّ الشرع لم يعطه حقّ قتلها إلاّ إذا وجده معها في فراشه ، فدفعته الغيرة أن يفعل ذلك كما قال سعد بن عبادة رضي الله عنه (١) .

والأمر الثاني الذي يبيح قتل النفس المحرمة هو : القتل العمد ، فالنفس بالنفس، من قتل يُقتل ، وإذا عرف أنّه سيقتل كفّ - غالباً - عن القتل ، فحفظت بذلك حياته وحياة من يريد قتله ، وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

وفي القصاص من القاتل المتعدي المتعمّد شفاء لأنفس أولياء الدم ، حتى لا يفكروا في الثأر لقتيلهم ، ويقتلوا بالواحد اثنين أو أكثر ، وربما قتلوا بدل القاتل ابنه أو أخاه وهو لم يقتل ، كما يحدث في صعيد مصر ،وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ ، إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾ (٣) ، ومن حقّه أن يمكنّه وليّ الأمر من قتل القاتل بعد أن يحكم عليه القضاء ، وليس من حقّه أن يكون هو الخصم ،الحكم والمنفّذ. كما أنّ من حقّه أن يعفو أو يقبل الصلح بمال ، كما قال تعالى : ﴿ . . فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (٤) .

وممّا يُؤسف له أن نجد الغربيّين اليوم ينكرون شريعة القصاص ، ويزعمون أنّنا بالقصاص نخسر اثنين بدل واحد ، وينسون أنّنا بقتل الواحد نحفظ دماء الكثيرين ، ولا نجرّىء الناس على القتل ، وهكذا نراهم يرأفون بالجاني وينسون الضحيّة ، ويهتمّون بالفرد وينسون أمن المجتمع .

والأمر الثالث المبيح للقتل : هو ترك الدين ومفارقة الجماعة ، بمعنى : أن يرتدّ المسلم عن دينه ، ويخرج على جماعته ، وينضمّ إلى جماعة أخرى مخالفة لها ،

---

(١) وقد قال سعد : لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح ، فقال النبي ﷺ : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير منّي » رواه البخاري في كتاب النكاح ، باب : الغيرة ، أول الباب . أنظر (البخاري مع الفتح : ٩/ ٢٣٠ برقم ١٠٧) ط . دار الريان للتراث بالقاهرة .

(٢) البقرة : ١٧٩ . (٣) الإسراء : ٣٣ . (٤) البقرة : ١٧٨ .

يعطيها ولاءه ، ويعادي جماعته الأصيلة ، فهذا أشبه بما يسمّى في عصرنا (خيانة الأمّة والوطن) ، ولا يعاقب بذلك من ارتدّ في نفسه ولم يجاهر بردّته ، ويدع الآخرين إلى مسلكه ، فهذا حسابه على الله .

ولا بدّ أن يُستتاب المرتد ، ويُناقش بالحكمة ، وتُزال عنه الشبهة التي دعته إلى الردّة ، ويُرفق به ، ما لم تكن ردّته من النوع الغليظ المثير ، ولا سيما إذا استعان بأعداء الإسلام على أمّته (١) .

القتل مسألة كبيرة ، فلا يجوز للنّاس أن يُقدموا عليه إلاّ بمحكمة .. بقضاء ، يدافع فيه كلّ إنسان عن نفسه ، ثمّ يُقضى له أو عليه .

الإسلام حرّم سفك الدماء ، سواء دم المسلم أو دم غير المسلم إذا كان بينه وبين المسلمين عهد وميثاق : ﴿ .. وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ .. ﴾ (٢) ، وجاء في حديث البخاري عن عبد الله بن عمرو أنّ النبي ﷺ قال : « مَن قتل مُعَاهَدًا لم يَرَح رائحة الجنّة [أي لم يشمّ رائحتها] وإنّ ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما » (٣) .

هذا بالنسبة للإنسان المعاهد وليس بمسلم ، فكيف بالمسلم ؟!

حتّى في الحروب المشروعة لم يجز الإسلام قتل من لا يقاتل ، مثل المرأة والطفل والشيخ الكبير ، بل كان الخلفاء الراشدون ينهون القادة العسكريّين أن يقتلوا الرهبان الذين فرّغوا أنفسهم للعبادة ، وقد روى ابن عمر أنّ النّبيّ ﷺ وجد في بعض المغازي امرأة مقتولة ، فأنكر رسول الله قتل النّساء والصبيان (٤) .

الإنسان يستحقّ الحياة ، ولا يجوز أن يُعتدى عليه ولو كان طفلا ، للطفل حقّ الحياة واحترام النفس كالكبير تماماً ، ولذلك يجب في هذا دية كاملة وفي هذا دية كاملة ، وفي هذا كفّارة وفي هذا كفّارة .

---

(١) أنظر البحث القيّم الذي كتبه الأستاذ القرضاوي عن (عقوبة المرتد) في كتابه (ملامح المجتمع المسلم) فصل (العقيدة والإيمان) نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) النساء : ٩٢ . وتتمّتها : ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللهِ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

(٣) وروى نحوه النّسائيّ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٦٦٧/٢ ، الحديث ١٤٥٢) .

(٤) متفق عليه (اللؤلؤ والمرجان : ١١٣٨) .

بل لا يجوز الاعتداء على الجنين بالإجهاض والإسقاط ، وخاصّة إذا كان بعد مرور أربعة أشهر ، حيث تكون الجريمة فيه جريمة قتل كاملة .

إذا كان الإجهاض في الأربعين الأولى فهو أخفّ ، ولكنّه جريمة ، وإذا كان بعد الأربعين الأولى فهو جريمة أكبر ، ولا يجوز اللجوء إليها في الأسابيع الأولى إلاّ لضرورة يقدّرها الأطباء الثقات المتخصّصون ، كخطر على صحّة المرأة أو نحو ذلك ، لأنّ حياة الأم مُقدّمةٌ على حياة الجنين ، وصحّتها مُقدّمةٌ على صحّته .

بل لو نشأ هذا الجنين من حرام ، لم يجز لأمّه ولا غيرها الاعتداء على حياته ، كما رأينا ذلك في قصّة المرأة الغامديّة ، التي طلبت من الرسول أن يقيم عليها الحد ، لأنها حبلى من زنا ، فرفض ذلك حتى تضع ، وبعد الوضع حتى يفطم طفلها ! (١)

إلى هذا الحدّ يحترم الإسلام النفس البشريّة .

بل لا يجيز الإسلام للإنسان أن يعتدي على حياة نفسه ، أنت ملك لله ، فمن أعطاك الحقّ أن تنتحر .. أن تقتل نفسك .. أن ترميها من شاهق .. أن تضرب نفسك بالرصاص ، كما يفعل أولئك الذين يقلّدون الأفلام والتمثيليّات وغيرها .

الأصل أن يصبر المسلم على الشدائد ، المسلم صبور مصابر ، يرضى بما قسم الله له ، ويتوقّع أن يفرّج الله عنه الشدائد ، ويعلم أنّ مع اليوم غدا ، وأن غداً لناظره قريب ، وأنّ دوام الحال من المحال ، وأنّ مع العسر يسرا ، وأنّ بعد الظلام فجرا ، ولهذا لا يُقدم المسلم على جريمة يقتل فيها نفسه .

وليس في الحياة ما يستحقّ أن يقتل الإنسان نفسه من أجله ، أمن أجل حبّ قد فشل ، أو من أجل تجارة قد كسدت ، أو من أجل أمل قد خاب ، يُقدم الإنسان على قتل نفسه يائسا من روح الله تعالى ؟! والله تعالى يقول : ﴿ .. إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ (٣) .

لهذا جاءت الأحاديث تشدّد في هذا الأمر ، وتنذر أبلغ الإنذار ، وتتوعّد أشدّ الوعيد ، يقول النبي ﷺ : « من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنّم يتردّى فيها خالدا فيها أبدا ، ومن تحسّى سُمًّا فقتل نفسه فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنّم

---

(١) أنظر قصّتها في « صحيح مسلم » باب « حدّ الزنا » .
(٢) يوسف : ٨٧ (٣) الحجر : ٥٦ ..

خالدا مخلدًا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنّم خالداً مخلدا فيها أبدا » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الذي يخنق نفسه يخنقها في النّار ، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النّار ، والذي يقتحم يقتحم في النّار » (٢) .

وجاء في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكّيناً فحزّ بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات ، قال الله تعالى : بادرني عبدي بنفسه ، حرّمت عليه الجنّة » (٣) .

والله تعالى يقول: ﴿. . . . وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾(٤)

القتل حرام ، وسفك الدماء حرام ، بل من أكبر كبريات الحرام ، حتى قال من قال من الصحابة : لا توبة للقاتل ، قالوا لأنّ هناك حقوقاً ثلاثة :

حق الله تعالى : وهذا تنفع فيه التوبة .

وحق أولياء الدم : (أهل المقتول وورثته) ، وهؤلاء يمكن أن يسقطوه بالعفـــو أو بأخذ الدية أو بالصلح .

وبقي حقّ المقتول نفسه : وقد جاء في الأحاديث : « يأتي المقتولُ متعلّقاً رأسُهُ بإحدى يديه ، مُتَلَبِّباً قَاتلَه باليد الأخرى ، تَشْخُبُ أَوْداجُهُ دماً حتى يأتي به العرش ، فيقولُ المقتولُ لربِّ العالَمين : هذا قتلني ، فيقول الله عزّ وجلّ للقاتل : تَعِسْتَ ، وَيُذْهَبُ به إلى النّار » (٥) .

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي بتقديم وتأخير ، والنسائي ، وروى أبو داود نحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٦٦٧ ، الحديث ١٤٥٣). وقوله « يتوجّأ بها » أي يضرب بها نفسه .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٦٦٨ ، الحديث ١٤٥٤) .

(٣) رواه البخاري في كتاب (الأنبياء) باب (ماذكر عن بني إسرائيل) ، من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه .

(٤) النساء : ٢٩ .

(٥) من حديث ابن عباس ﷺ ، رواه الترمذي وحسّنه ، والطبراني في الأوسط ، ورواته رواة الصحيح ، واللفظ له، والحديث كان جوابا من ابن عباس لمن سأله : يا أبا العباس ، هل للقاتل من توبة ؟ فقال ابن عباس كالمُعَجِّب من شأنه : ماذا تقول ؟ فأعاد عليه مسألته ، فقال: ماذا تقول ؟ مرتين أو ثلاثاً ، ثمّ ذكر له الحديث(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٦٦٦ ، الحديث ١٤٤٩) .

وقال الآخرون : إذا تاب توبة نصوحاً ورضي عنه أولياء الدم ، فإنّ الله جدير أن يرضي عنه القاتل يوم القيامة ، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وهذا هو الصحيح والراجح إن شاء الله .

هذا ما جاء به الإسلام - أيّها الإخوة - : لا تقتل ، ولا تشارك في القتل ولو بشطر كلمة .

بل جاء في الحديث : لا يشهد أحدكم قتيلاً ، لعلّه أن يكون مظلوما ، فتصيبه السخطة » رواه أحمد واللفظ له ، والطبرانيّ إلاّ أنّه قال : « فعسى أن يكون مظلوماً ، فتنزل السخطة عليهم ، فتصيبه معهم » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من جرد ظهر مسلم (يعني : ليضربه) بغير حقّ، لقي الله ، وهو عليه غضبان » (٢) وذلك ليعيش المسلم مصدر سلام للنّاس من حوله، فالمسلم الحق من سلم الناس من يده ولسانه .

لا تقتل ، ولا تؤذ أحداً ولا تشهد مشهد قتل أو ظلم .

هناك أناس جلاّدون لا يبالون بحرمات الخلق ، وحقوق الإنسان ، أناس طالما سفكوا الدماء ، وعذّبوا خلق الله .

لقد رأينا أناساً أمسكوا بأيديهم الكرابيج والسياط ، وأمسكوا بأيديهم أدوات التعذيب ، ومازالوا يعملون فيها طوال اللّيل ، في أجسام غضّة ، وظهور طالما انحنت لله تعالى راكعة ، وأعضاء لم تعرف إلاّ السجود لله ، حتى خرّوا قتلى من التعذيب ، رأينا هذا والله بأمّ أعيننا .

رأينا الذين قُتلوا ثمّ دُفنوا في جنح الليل ، ولم يعرف أحد أينَ ذهبوا ، وجاء أهلوهم ليزوروهم في السجون والمعتقلات ، فقيل لهم : أفرج عنهم !

ياويل هؤلاء الجلاّدين ! ! ألم يقرأوا آيات القرآن ؟ ألم يقرأوا أحاديث محمدّ

---

(١) قال المنذري في الترغيب والترهيب : رواه - عن خرشة بن الحر- رضي الله عنه- أحمد والطبراني ، ورجالهما رجال الصحيح خلا ابن لهيعة (المنتقى : ١٤٥٩) وقال الهيثمي : فيه ابن لهيعة ، وحديثه حسن ، وفيه ضعف ، وبقيّة رجالهما رجال الصحيح (مجمع الزوائد : ٦/ ٢٨٤) و (٧/ ٣٠٠)

(٢) قال المنذري : رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسناد جيّد - عن أبي أمامه - المنتقى (١٤٦٠) وكذا قال الهيثمي (٦/ ٢٥٣)

ﷺ ؟ ألم يعرفوا أنّ للنفس حرمتها ، وأنّه لا يجوز قتل هرّة بغير حق ، فإنّ امرأة دخلت النّار في هرّة حبستها (١) حتى ماتت ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض (٢) .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يهييءّ لنا من أمرنا رشدا ، وأن يوفّق المسلمين إلى حقن دمائهم ، بدل هذه الحروب التي تُسفك فيها الدماء لسبب ولغير سبب ، ولحقّ ولغير حقّ .

نسأل الله أن يعصم هذه الدماء ويحقنها ويصونها ، ويوفّق من المسلمين من يقوم على حقنها .

استغفروا ربّكم إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

• الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة :

كتبت إليّ إحدى الأخوات - ولعلّها من المصلّيات في المسجد أو من المستمعات في البيوت - تقول : لماذا توجّه كلامك إلى الرجال دون النساء ، ولا تخصّنا نحن بحديث كالرجال ، وتطالبني أن أتحدث عن برّ الأمّهات وعقوقهنّ ، لما ترى من كثرة العاقّين من الأبناء والبنات .

وأحبّ أن أقول : إنّ هذه الخطب والأحاديث ليست موجّهة للرجال وحدهم ، إنّها للرجال وللنسّاء جميعا ، إنّ الله تعالى حينما يقول : « يا أيّها الذين آمنوا » - وإن كانت الواو هنا للجماعة الذكور كما يقول النحويّون - فهذا خطاب للمؤمنين والمؤمنات جميعا .

---

(١) فكيف بمن يسجن ويعذّب ألوف المؤمنين ؟!

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت امرأة النار في هرّة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خَشاش الأرض » . وفي رواية : « عُذّبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت ، لا هي أطعمتها وسقتها ، إذ هي حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض » رواه البخاري وغيره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٦٢٨/٢ برقم ١٣٣٣) .

كلّ ما في القرآن وفي السنّة من أوامر ونواهي وتوجيهات فهو للجنسين معاً ، ولذلك فالكلام للجميع .

إذا تحدثنا عن الشرك والبراءة من الشرك ، فالحديث يعمّ الرجال والنساء ، إذا قلنا: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا . . ﴾ (١) ، فهذا للرجال وللنساء .

كلّ الصفات هذه يشترك فيها الرجال والنساء ، إلاّ ما كان من خصوصيّات الرجال أو من خصوصيّات النساء .

فليفهم هذا جيدًا .

أمّا حديث البرّ والعقوق ، فهو حديث يحتاج إلى خطبة مستقلّة أو أكثر من خطبة، ولكنيّ أحبّ أن أقول شيئاً سريعا :

إنّ برّ الوالدين في نظر الإسلام يأتي بعد توحيد الله تبارك وتعالى ، فالقرآن يقول: ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً . . ﴾ (٢) ، ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . ﴾ (٣) ، ﴿ . . أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) .

وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله تعالى ، وليس من الكبائر فقط بل من أكبر الكبائر (٥) ، والعاقّ لوالديه لا يشمّ رائحة الجنّة .

العقوق من أكبر المحرّمات في الإسلام ، وبخاصّة عقوق (الأمّهات) : « إنّ الله حرّم عليكم عقوق الأمّهات ، ووأد البنات . . » (٦) .

خصّ (الأمّهات) بالذكر ، مع أنّ عقوق الآباء - أيضاً - محرم ، ولكنّ الأبناء

---

(١) الفرقان : ٦٧ . (٢) النساء : ٣٦ .

(٣) الإسراء : ٢٣ . (٤) لقمان : ١٤ .

(٥) كما ثبت في حديث أبي بكرة الذي رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً . قلنا : بلى يا رسول الله . قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس ، فقال : « ألا وقولُ الزور ، وشهادة الزور » فما زال يكررّها حتى قلنا : ليته سكت (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٨٠ ، الحديث ١٤٩١) .

(٦) رواه البخاري - وغيره - عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، وتتمّته : « ومنعاً وهات، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٨٠ برقم ١٤٩٠) .

قد يجترئون على الأمّهات مالا يجترئون على الآباء ، ولأنّ حقّ (الأمّ) في البّر أكبر من حقّ الأب (١) ، ولهذا لمّا سئل النبيﷺ : من أحقّ النّاس بحسن صَحَابَتِي ؟ قال : « أمّك » قال : ثمّ من ؟ قال : « أمّك » قال : ثمّ من ؟ قال : « أمّك » قال : ثمّ من ؟ قال : « أبوك » (٢) .

وقال في حديث آخر : « إنّ الله تعالى يوصيكم بأمّهاتكم ، إنّ الله تعالى يوصيكم بأمّهاتكم ، إنّ الله تعالى يوصيكم بأمّهاتكم ، إنّ الله تعالى يوصيكم بآبائكم ، إنّ الله تعالى يوصيكم بآبائكم ، إنّ الله تعالى يوصيكم بالأقرب فالأقرب » (٣) .

فحقّ الأمّ حقّ عظيم ، ومن هنا لمّا ذكر القرآن الإحسان بالوالدين : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ (٤) قال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا . . ﴾ (٥) ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ . . ﴾ (٦) .

فالأمّ هي التي تعبت ، الأمّ هي التي سهرت ، الأمّ هي التي عانت من الحمل والطلق والوضع .

ولهذا روى البزّار : أنّ رجلاً كان يطوف بالكعبة وهو يحمل أمّه على كتفه ، فرآه النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، أأوفيت لها حقّها ؟ فقال ﷺ : لا ، ولا بزفرة واحدة » (٧) ، أي ولا بزفرة من زفرات الطلق وألم الوضع .

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنّ أمّي بلغت من الكبر والوهن أنّها

---

(١) ويقول الحافظ ابن حجر : قيل خصّ الأمّهات بالذكر ، لأنّ العقوق إليهنّ أسرع من الآباء لضعف النساء ، ولينبّه على أنّ برّ الأمّ مقدّم على برّ الأب في التلطّف والحنوّ ونحو ذلك (فتح الباري ، كتاب الاستقراض : ٥/ ٨٣) ط . دار الريان بالقاهرة .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (رياض الصالحين للنووي : باب برّ الوالدين وصلة الرحم) ، و « صَحَابَتِي » بمعنى : صُحْبَتِي .

(٣) رواه البخاري في الأدب ، وابن ماجه ، والطبراني في الكبير ، والحاكم ، عن المقدام رضي الله عنه ، ورمز له السيوطي بالحسن ، وذكره في صحيح الجامع الصغير (١٩٢٤) .

(٤) ،(٥) الأحقاف : ١٥ . (٦) لقمان : ١٤ .

(٧) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الإسراء (٣/ ٣٥) ط . الحلبي ، من رواية الحافظ البزّار في مسنده عن بريدة ، وفي سنده الحسن بن أبي جعفر ضعيف ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٣٧) .

صارت لا تقضي حاجتها إلاّ وظهري لها مطيّة ، هل أديّت حقّها ؟ قال : لا ، إنّها كانت تفعل بك ذلك وأنت صغير وتتمنّى لك عمراً طويلا ، أمّا أنت فتفعل بها ذلك اليوم وأنت تنتظر موتها غداً أو بعد غد .

روى معاوية بن جاهمة أنّ أباه جاهمة جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله أردت أن أغزو ، وقد جئت أستشيرك ، فقال : « هل لك من أمّ ؟ » قال : نعم ، قال : « فالزمها ، فإنّ الجنّة عند رجلها » (١) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ ، فقال : إنّي أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه ، قال : « هل بقي من والديك أحد ؟ » قال : أمي ، قال : « قابل الله في برّها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاجّ ومعتمر ومجاهد » (٢) .

الأمّ هي التي توصلك إلى الجنّة إن رضيت ، أو توصلك إلى النّار إن سخطت .

جاء في حديث الترمذي بسند ضعيف عن عليّ رضي الله عنه : « إذا فعلت أمّتي خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء [من هذه الخمسة عشر] : . . . وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمّه ، وبرّ صديقه ، وجفا أباه . . . » (٣) .

أنظروا :

« وأطاع الرجل زوجته وعقّ أمّه » : الأمّ التي تعبت فيه وعانت من أجله ، ولعلّها ترمّلت أو تأيّمت عليه ، وحرمت نفسها حياة طويلة ، ومع هذا يأتي هذا الإنسان ليؤثر عليها زوجته ، ليس معنى هذا أن يسيء الإنسان معاملة زوجته ، لا ،

---

(١) رواه النسائي ، واللفظ له ، وابن ماجه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٧٦ برقم ١٤٧٥) .

(٢) رواه أبو يعلى ، والطبراني في الصغير والأوسط ، وإسنادهما جيّد ، وقال الهيثمي : رجالهما رجال الصحيح ، غير ميمون بن نجيح ، وقد وثّقه ابن حبان (١٣٨/٨) ، وانظر تعليق الشيخ عليه في كتابه المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٧٥ - ٦٧٦ برقم ١٤٧٤) .

(٣) ونصّه كاملاً : « إذا فعلت أمتي خمسة عشرة خصلة حلّ بها البلاء : إذا كان المغنم دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمّه ، وبرّ صديقه ، وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شرّه ، وشربت الخمور ، ولبس الحرير ، واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمّة أوّلها ، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفًا أو مسخاً » (الجامع الصغير : ١/ ٣٢) وانظر شرحه (فيض القدير : ١/ ٤٠٩-٤١٠ برقم ٧٧٤) .

ولكن لا يجوز أن يسمع وساوس زوجته - وبعض الزوجات موسوسات لا يحببن الأمّهات - ويطيعها ويعقّ أمّه .

« وبرّ صديقه وجفا أباه » : تراه حلو المعاشرة ، حسن الخلق ، ليّن الطباع مع أصدقائه ، غليظاً جلفاً جافياً مع أبيه .

بهذا ينزل البلاء بالأمّة ، فاتقوا الله أيّها الناس في آبائكم وأمّهاتكم .

إيّاك أن تجعل بينك وبين الجنّة حجاباً إذا أسخطت أمّك أو أباك .

أرض والديك مهما كانا ، حتى لو كانا مشركين : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ولو جاهداك على الشرك وحاولا أن يخرجاك من الإسلام إلى الكفر وجاهدا من أجل ذلك ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

أيّ دين يحثّ على البرّ إلى هذا الحدّ ؟!

واحذر أن يسلّط الله عليك أبناءك ، فبرّ الوالدين سلف : « برّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم » (٢) .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقهنا في ديننا ، وأن يهيّىء لنا من أمرنا رشدا .

اللّهمّ اغفر لنا ما مضى ، وأصلح لنا ما بقي .

اللّهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، ووفّقنا لما تحبّ وترضى .

اللّهمّ اجمع كلمة المسلمين على الهدى ، وقلوبهم على التقى ، ونفوسهم على المحبّة فيك ، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل .

اللّهمّ ألّف بين قلوب المسلمين، وأصلح ذات بينهم ، ووفّقهم إلى حقن دمائهم ، وجنّدهم جميعاً للجهاد في سبيل دينك ، وابتغاء مرضاتك .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) لقمان : ١٥ .

(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وتتمّته : « وعفّوا تعفّ نساؤكم » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٦٧٧/٢ ، الحديث ١٤٨٠) .

(٣) الحشر : ١٠ .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وصلّ اللّهمّ علىٰ نبيّك وعبدك ورسولك محمـد ، وعلى آله وصحبه أجمعين :
﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .
(٢) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن

٨ – اجتناب الزنا

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن ، ومع عباد الرحمن ، الذين رضي الله تعالى عنهم ورضوا عنه ·

تحدّثنا عن (عباد الرحمن) وأخلاقهم وأوصافهم ، في ليلهم ونهارهم ، مع أنفسهم ومع ربهم ومع النّاس ·

تحدّثنا عن صفاتهم إذا مشوا على الأرض هونا ، تحدّثنا عن معاملتهم مع من جهل عليهم ، تحدّثنا عن أخلاقهم في مالهم إذا أنفقوا ، ثمّ تحدّثنا عنهم في صفاتهم الأخرى ، حينما حرّروا أنفسهم من كلّ ما يُسخط الله تبارك وتعالى ، حينما ساروا على منهج مستقيم يخالفون به مناهج الكفر والنفاق ، فليسوا ممّن يشرك بالله شيئًا ، ولا ممّن يستهين بحياة البشر ·

واليوم نتحدّث عن صفة أخرى داخلة في المنهيّات ، وهي اجتناب الزنا ، فعباد الرحمن ﴿ · · لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً· · · ﴾(١) .

أيها الإخوة :

حافظ الإسلام على الدين والعقيدة ، فحرّم الشرك أكبره وأصغره ، جليّه وخفيّه ، وحافظ الإسلام على النفس ، فحرّم القتل وكلّ ما يؤذي النفس ·

وحافظ الإسلام على العرض وعلى النّسب ، فحرّم الزنا ، وكان من صفات عباد الرحمن : أنهم لا يزنون ، لا يتورّطون في هذه الكبيرة التي نهى اللهّ تعالى عنها

---

(١) الفرقان : ٦٨ – ٧٠ ·

حينما قال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [أي لا تزنوا ولا تفعلوا ما يؤديّ إلى الزنا] ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

ومن هنا نهى الإسلام عن الزنا ، ونهى عن كلّ ذريعة توصّل إليه أو تقرّب منه ، فحرّم الخلوة بالمرأة الأجنبيّة ، وحرّم النظرة بشهوة ، وحرّم التبرّج بالزينة ، وحرّم من الوسائل كلّ ما يغري النّاس بالفاحشة ، ما ظهر منها وما بطن ، وعمل على تطهير البيئة الإسلاميّة من أسباب الإغراء والفساد ، حتى يحصّن الفتى المسلم والفتاة المسلمة ، فليس من الإسلام أن تترك البيئة تغرى بالإثم وتغري بالفاحشة ، وتضع الشاب - أو الشابّة - فى اللّهب ، ثمّ تقول له : لا تحترق .

جاء الإسلام ينهى عن كلّ ما يؤدى إلى الزنا ، فبدأ بتربية الفرد على أن يعفّ نفسه .. أن يحصّن فرجه .. أن يغضّ بصره ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. ﴾ (٢) إلى آخر الآية الكريمة .

أمر الإسلام المسلم أن يستعفّ حتى يجد القدرة على الزواج الحلال : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (٣) ومن يستعفّ يعفّه اللهّ ، ومن يتصبّر يصبّره اللهّ .

وأمر الإسلام أن تطهّر البيئة من كل ما يغري بالفواحش ، فلا يجوز أن تظهر في المجتمع المسلم صورة عارية أو شبه عارية ، أو أغنية ماجنة ، أو أدب مكشوف ، أو قصّة داعرة ، أو تمثيليةّ فاجرة ، أو شيىء من هذا الذي نراه في مجتمعاتنا اليوم .

لا يجوز أن يظهر في الشارع المسلم لحم رخيص يعرض في الأسواق ، ويُغري الشباب بالإثم ، لا يجوز أن يكون هذا في مجتمع مسلم .

حرّم الإسلام الزنا واعتبره من كبائر الإثم ، حرّمه لماذا ؟ حرّمه اللهّ تعالى لمصلحة النّاس ، ليس للهّ حاجة في أن يحلّل أو يحرّم ، إنّ الله لا تنفعه طاعتنا ولا تضرّه معصيتنا ، وإنّما يحلّل الطيبّ ويحرّم الخبيث ، يبيح النافع ويحرّم الضار ،

---

(١) الإسراء : ٣٢ . (٢) النّور : ٣٠ ، ٣١ . (٣) النور : ٣٣ .

يحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ، فإذا حرّم الزنا فإنّما هو لحماية الإنسان ٠٠ لتزكية الإنسان ٠٠ للسموّ بالإنسان ٠ إنّه يريد أن يحمى إيمان المؤمن ، فلا يكون عبداً إلاّ للّه تبارك وتعالى ، لا عبداً للغريزة ، ولا عبداً للشهوة ، ولا عبداً لامرأة ، ولا عبداً لشيىء ، إلاّ أن يكون عبداً لله تبارك وتعالى ٠

حرّم الإسلام الزنا ليبقى المؤمن خالصاً للّه ، لا لشيىء آخر ، ومن هنا جاء الحديث عن النبي ﷺ في الصحيحين : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ٠٠ » (١) ، لأنّه في حالة الزنا يُنزع منه الإيمان ، فالإيمان سربالٌ يسربله الله من يشاء (٢) ، فحينما يزني ينخلع عنه هذا السربال ، ويكون عليه كالظلّة - كما جاء في الحديث (٣) - فإذا قلع وتاب رجع إليه سربال الإيمان ٠

إنّه يريد أن يحمي المؤمن ، ويريد أن يحمي أخلاقه ، لا يريد أن يكون المؤمن كالحيوان يفعل ما يشتهي ، بل يفعل ما ينبغي ، إنّما سمّى (العقل) عقلاً ، لأنّه يعقل الإنسان ويقيّده - كالعقال أو القيد - فيجعله يُفكّر قبل أن يُقدم على الأمر ٠

أمّا الذين يفعلون ما تحلو لهم أنفسهم ، وما تزيّن لهم شهواتهم ، وما توسوس لهم شياطينهم ، دون أيّ رادع أو زاجر ، فقد انخلعوا من الإنسانيّة إلى الحيوانيّة ٠

الحيوان الهابط هو الذي يفعل ما يشتهي ، أمّا الإنسان العاقل فهو الذي يفعل

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وتتمّته : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وزاد مسلم في رواية ، وأبو داود : « ولكنّ التوبة معروضة بعد » وفي رواية النسائي : « فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، فإن تاب تاب اللّه عليه » ، قال الشيخ القرضاوي معلّقاً على الحديث : نفي الإيمان هنا يعني نفي الكمال لا نفي الأصل ، وذلك لتتفق النصوص بعضها مع بعض ، ولتتفق مع الواقع أيضاً ، فالإيمان لا يزول بالكلّية بمجرّد الوقوع في المعصية ، واللغة تتسع لهذا التأويل بغير تكلّف ، أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥١ برقم (١٣٩٩) ٠

(٢) أي : قميص يُلبسه الله من يشاء ٠

(٣) الذي أخرجه أبو داود ، والحاكم بسند صحيح كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ونصّ : « إذا زنى أحدكم خرج منه الإيمان وكان عليه كالظلّة ، فإذا انقلع رجع إليه الإيمان » ٠ أنظر : (شرح السنّة للبغوي : ١ / ٩٠) ٠

ما ينبغي ، ومن هنا يريد الإسلام للمسلم أن يرتقي بإنسانيته ، فلا يكون كالحيوان الذي تسيّره الغريزة .

لقد انتهت الغريزة بأقوام من الناس إلى أن أصبحوا يتسافدون في الطرقات ، كما تتسافد الحمير والبهائم ، لا يتورّعون عن شيء ، ولا يخجلون من شيء .

وأصبحت هذه المناظر تُباح في صحف ومجلاّت ، وتعرض في أفلام ومسلسلات في بلاد شتّى ، وهناك من الناس - للأسف - من يُدخل هذه الأفلام وهذه المجلاّت - اختلاساً وسرقة - إلى مجتمعات المسلمين .

أصبحت التجارة بالجنس تجارة رابحة في كثير من البلدان ، تُباع بالملايين وعشرات الملايين ، وأكثر ما تُصدّر تُصدّر إلى ما يسمّونه (البلاد النامية) لإفسادها وتدميرها ، وإفساد شبابها ورجالها وبناتها .

هناك أفلام وصور ومجلاّت مُحرّمة في ديارها وعلى أهلها ، ولكنّها تُصدّر من أوربّا وغيرها إلى بلاد شتّى ، وأثبتت الإحصاءات أنّهم يكسبون من ورائها عشرات الملايين ، ومئات الملايين .

الإسلام يريد أن يحمي إيمان المسلم ، ويحمي أخلاقه ، ويريد أن يحمي صحّته أيضاً ، فإنّ هذه الغريزة إذا أُطلق لها العنان ، أصبح الإنسان لا يتورَّع عن شيء ، إنّه يغدو ويروح حيث شاء ، يتنقّل كما يحلو له ، فكلّ يوم مع امرأة أو مع فتاة ، والفتاة كلّ يوم مع شاب أو مع رجل .

وهكذا تُوجد الأمراض التناسليّة ، وتتعرّض الصّحة للخطر ، وتنتقل العدوى كما تنتقل النّار في الهشيم .

وقد ظنّ هؤلاء النّاس يوماً أنهم استطاعوا أن يقاوموا الأمراض الجنسيّة كالزهري [(١)] ، والسيلان [(٢)] ، وغيرهما من الأمراض القديمة ، فجاءت لهم أمراض

(١) هذا المرض تُسبّبه جرثومة تقوم بخرق الجلد في منطقة ضعيفة ، وتنتقل من مريض إلى آخر أثناء الاتصال الجنسي المحرّم ، ثمّ تظهر أولى علامات المرض على شكل قرحة ، ويصبح المرض في تلك الحالة معد جداًّ ، وتستمرّ مدّة العدوى لتصل أحياناً إلى خمس سنوات .

(٢) وهو من أكثر الأمراض المعدية انتشارا ، ويُعدّ من أهمّ الأسباب التي تؤدى إلى العقم ، ونسبة كبيرة من النساء المصابات به لا تظهر عليهنّ علامات هذا المرض ، في حين أنّهنّ معديات جداً لكل من يتصل بهنّ جنسيًّا ، أمّا أعراضه عند الرجل فتبدأ بألم في الإحليل ، يتبعه سائل صديدي أصفر يبدأ بالتقاطر من فتحة القضيب ، ويشعر المريض بضيق وحرقان عند التبول .

حديثة ما كان لهم بها من علم ، وما توقّعوا أن يحدث مثلها ، فوقفوا أمامها حيارى عاجزين ·

مرض (الهربيس) : مرض انتشر في أوربا وأمريكا ، حتى أعلنت بعض المجلاّت المتخصّصة التي تُعنى بمثل هذه الأمور : أنّ خمسة وعشرين مليوناً في أمريكا وأوربا مصابون بهذا المرض ، الذى يُفقد الجسم المناعة ، فلا يعود يقاوم مرضا ، فقد وضع الله في الأجسام من التحصينات ما يمنعها من غزو الأمراض الخبيثة والمعدية ، وضع الله (عساكر) في داخل الجسم البشري تحمي الإنسان من الغزو الخارجى ·

هذا المرض يُفقد الجسم هذه المناعة وهذه الحصانة ، فلا يقدر على مقاومة مرض من الأمراض ، وإذا أصيب بأىّ شيىء سقط ، هذا المرض يجعل الإنسان يفكّر في الانتحار ، ويرغب في التخلّص من البقاء (١) ، هذا المرض له مظاهر وأعراض شتّى (٢) ، يشعر صاحبه بحالة مثل حالات البَرصَ ·

وهناك - كما ذكر العلماء - ثمانية وعشرون نوعاً من أنواع الأمراض الجنسيّة والتناسليّة ، آخرها وأخطرها المرض الذي يسمّونه (الإيدز) (٣) ، وهو يصيب

(١) أو يتمنّى أن ينتقل مرضه إلى أكبر عدد من الناس نتيجة الحقد والقلق والهلع ·

(٢) تبدأ أعراضه عند الرجال بالشعور بالحكّة ، فتتهيّج المنطقة ، ثمّ تظهر البثور والتقرحات على القضيب ، وعلى منطقة الشرج عند الذين يُفعل بهم الفاحشة ، ثمّ تكبر البثور ويزداد ألمها وتتآكل فتلتهب ، وربما يمتد الإلتهاب إلى الفخذ والعانة ، فتتضخم الغدد الليمفاوية وتصبح مؤلمة جداً ، أمّا عند المرأة فيأخذ هذا المرض أشكالاً خطيرة ، حيث يتهيجّ الفرج والمنطقة المحيطة به ، كما يلتهب عنق الرحم التهابًا شديداً ، ويسبب ألماً حادًّا ·

(٣) ممّا يذكر للشيخ القرضاوى : أنّه نبَّه على خطورة هذا المرض منذ بداية ظهوره ، وقبل انتشار الحديث عنه ، و (الإيدز) حروف للكلمات تدلّ على مرض هو : (نقص المناعة الطبيعيّة والمكتسبة لدى الإنسان) ، والأسباب الرئيسية لانتقال فيروس هذا المرض هي : الشذوذ الجنسى ، والزنا ، والمخدرات عن طريق استعمال حقن المصابين ، أمّا أعراضه فكثيرة منها : إنهاك شديد يستمرّ عدّة أسابيع دونما سبب معروف ، تضخّم في الغدد الليمفاويّة ، نقص شديد في الوزن ، ارتفاع في درجة الحرارة ، سُعال جاف ، صعوبة في التنفس ، التهابات في الفم والحلق ، إسهالات شديدة ومزمنة ، ظهـور الإنتانات الانتهاريّة التي تكون السبب المباشر للموت ، وليس كل من أصيب بفيروس (الإيدز) تظهر عليه أعراض المرض ، وإن أصبح مُعديا لغيره ، بل نسبة الذين تظهر عليهم أعراضه قليلة جداً إذا ما قُورنت بالذين لا تظهر عليهم ، وهنا يكمن الخطر ·

الزناة والزانيات ، كما يصيب الذين يُصابون بالشذوذ الجنسيّ من الرّجال أو النّساء ·

هذه الأمراض الخطيرة سلّطها الله على النّاس ، جزاء خروجهم عن الفطرة التي فطر الناس عليها ، وجاءت بها النبوّات والرسالات جميعا ، هذه الفطرة : أن يختصّ الرجل بامرأة عن طريق الزواج ، ليكوّنا الأسرة التي هي نواة المجتمع ·

عاقبهم الله بهذه الأمراض ، وهذا ما حذّر منه النبي ﷺ حينما قال في حديث ابن عمر : « يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهنّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ (وكانت أولى هذه الخصال) : لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يُعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا · · »(١) ·

أنظروا : كأنّ النبي ﷺ ينظر من وراء الغيب إلى هذا العصر الذي نعيش فيه ، ويخبر بما وقع ·

« لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوا بها » : الفاحشة موجودة من قديم الدهر ، وليس الخطر في وجودها ، إنّما الخطر في انتشارها · · إنّما الخطر في ظهورها علانية ، ولا يُنكر المُنكَر ، كما نرى ذلك في البلاد الغربيّة ، وكما نرى بعض شرره يتطاير إلى بعض البلاد الإسلاميّة ، والناس سكوتٌ غافلون · « إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا » : والعجيب أنّ الغربييّن يسمّون (الإيدز) الطاعون الأبيض ، فهو من الأوجاع الحديثة · · لم تكن الأجيال السابقة تعرف هذه الأمراض ، ورغم تقدّم الطب وتقدّم العلم وتقدّم التكنولوجيا ، لم يستطيعوا أن يجدوا لهذه الأمراض دواء ·

وستظهر أمراض وأمراض مادام النّاس يحيدون عن منهج الله الذي رسمه لعباده ، وفيه الخير كلّ الخير ·

الإسلام حينما حرّم الزنا حرّمه لمصلحة الإنسان الفرد ، وحرّمه لمصلحة الأسرة · · لتتكونّ الأسرة · · لتوجد هذه الخليّة · · ليوجد هذا الأساس لبناء

---

(١) رواه ابن ماجه – وهذا لفظه – والبزارّ والبيهقي بنحوه ، ورواه الحاكم وصحّح إسناده ، ووافقه الذهبى ، أنظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ٣٩٩ ، ١٤٣٣) ·

المجتمع ، لينسدّ الطريق أمام الإنسان فلا يجد تفريغاً لشهوته إلاّ في الطريق الحلال .

لم يكن الإسلام ضدّ الغريزة الجنسيّة ، ليست نظرة الإسلام كنظرة بعض الأديان الأخرى التي تعتبر الغريزة الجنسيّة في ذاتها نجساً ، أو رجساً من عمل الشيطان .

الغريزة ركبّها الله في الإنسان لحكمة ، لتكون سوطاً يسوق النّوع البشري إلى طلب النّسل .. إلى الزواج ، لتعمر الأرض ، ويستمرّ بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله تبارك وتعالى .

لكلّ غريزة من الغرائز التي جُبل عليها الإنسان حكمة ، وهذه الغريزة النوعيّة أو الجنسيّة - أي التي من ورائها بقاء النّوع والجنس - لم يقف الإسلام ضدّها على طول الخط ، لا ، ولم ير إطلاق العنان لها على طول الخط ، كما ترى المذاهب الإباحيّة وفلسفات هذا العصر الماديّة والحسّيّة .

وإنّما يرى الإسلام أن توضع هذه الغريزة حيث أراد الله تعالى وحيث أمر الله ، وأن يبحث الإنسان عن طريق الحلال بالزواج ، لتنشأ الأسرة المسلمة التي تتكوّن في ظلالها عواطف المحبّة والأخوّة والإيثار والتعاون ، ومنها ينشأ المجتمع الصالح .

ومن هنا حرّم الإسلام الزنا وأباح الزواج ، حرّم السّفاح وشرع النكاح ، حتى أنّ بعض علماء المسلمين يعتبرون الزواج فريضة على القادر : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج .. » [1] وهذا أمر من رسول الله ﷺ ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴾ [2] .

حمى الإسلام الأسرة ، وحمى الأنساب أن تختلط ، فإنّه إذا أبيح الزنا لا يعرف المرء : أحملت زوجته منه أم حملت من غيره ؟ أهذا الذى يربّيه ابنه أم ابن

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ لهما ،وأبو داود ، والترمذى ، والنسائي ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وتتمّته : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنّه له وجاء » والباءة ما يلزمه من القدرة على مؤن الزواج ونفقاته (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٤٩ - ٥٥٠ برقم ١٠٩٥) .

(٢) النّور : ٣٢ .

رجل آخر ؟ وبذلك يقع الشكّ ، وتُفقد الثقة من الناس ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لا تزال أُمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعّمهم الله بعذاب » (١) ، إذا فشا أبناء الحرام هنالك تختلط الأنساب ، وفي هذا دلالة على أنّ الأمّة قد تفكّكت عراها ، وتمزّقت روابطها ، وانتشرت الخيانة الزوجيّة .

الإسلام حرّم الزنا حماية للفرد ، وحماية للأسرة ، وحماية للمجتمع كلّه ، حتى يكون مجتمع طهارة ونقاء ، لا تشغله الشهوات عن الواجبات ، ولا يركض وراء الغرائز ، وإنّما يتبع نداء العقول ، إنّه مجتمع إنسانّى وليس بمجتمع حيوانيٍ ، كتلك المجتمعات التي يظنّون أنّها راقية ، وهي اليوم تشكو ممّا أصابها ، الجمعيات الطبيّة تصرخ وتنادي : انقذوا المجتمع .. انقـذوا الصّحّة .. انقـذوا الأخلاق من الانهيار ، بعد أن أبيحت الشهوات وعبّ النّاس منها ما شاؤوا .

كان بعض النّاس في بعض الأوقات يقولون : ما هذا التعقيد ؟ ما هذه القيود ؟ اتركوا للناس الحرّيّة ، افتحوا النوافذ ، دعوا الرجل يستمتع بالمرأة ، ودعوا المرأة تستمتع بالرجل ، حلّوا العقد ، ما هذا الكبت ؟ وما هذه القيود والعراقيل ؟ إنّكم لو فعلتم ذلك انحلّت العقدة ، ولم يعد هناك كبتٌ ولم تعد هناك شكوى !! .

فهل هذا صحيح ؟

إنّهم فعلوا ذلك ، إنّهم تركوا الحبل على غاربه للفتى والفتاة ، تختار رفيقها ويختار رفيقته ، لم يعودوا يحرّمون شيئًا ، فهل حلّوا العُقدة؟هل عولجت المشكلة ؟ أم ازدادت تعقيداً ؟ .

أجل ، ازدادت – والله – تعقيداً .

لم تحلّ المشكلة ، كم من فتى عندهم يبحث عن فتاة فلا يجد ، لأنّ الفتاة تبحث عن الأجمل أو الأقوى أو الأغنى أو الأهمّ ، ولكنّ الأضعف قوة ، أو الأدنى منزلة ، أو الأفقر مالاً ، أو الأقلّ وسامة ، لا يجد من ترضى به ، فماذا يصنع ؟ .

إنّه يعيش في كبت وقلق وحيرة وأسى ، قد يؤدّي به إلى الانتحار .

والفتاة غير الجميلة وغير الشّابّة لا تجد من يرضى بها ، فماذا تفعل ؟ والفتاة

---

(١) رواه أحمد وإسناده حسن ، من حديث ميمونة رضي الله عنها، ورواه أبو يعلى والطبرانى بنحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥٨ ، الحديث ١٤٢١) .

الجميلة الوسيمة يتهافت عليها الشباب ، ويقاتل بعضهم ، حتى إنّهم ليخطفونها وقد يقتلونها إذا لم يظفر أحدهم بها !

لم يحلّ القوم المشكلة ، إنّهم كلّما ازدادوا شُرباً ازدادوا عطشاً ، إنّها مصيبة لا تحلّ إلاّ بالحلّ الإلٓهى ·· إلاّ بالزواج ·· إلاّ بالأسرة ، هذا هو حلّ الإسلام : النكاح لا السّفاح ·

البلاد التي فيها حريّة الحبّ ، أو الحريّة الجنسيّة - كالسويد والنرويج وغيرها - هي أكبر البلاد نسبةً في الانتحار ، ومعظم أسباب الانتحار من هذه النواحي ·

بلاد بلغت القمّة في الناحية الماديّة والضمانات الاجتماعيّة ، للطفل - هناك - منذ أن يُولد إلى أن يموت ضمانات : للأمومة ، والولادة ، والشيخوخة ، والمرض ، والحوادث ، وغير ذلك ، فلماذا ينتحرون ؟!

إنّهم فقدوا الإيمان ، وفقدوا الأخلاق ، فلم يركنوا إلى ركن ركين ، ولا إلى حصن حصين ، فلأدنى شيىء يتهاوون وينتحرون ·

الإسلام حفظ المجتمع من هذا ، جـاء عـن ابن عباس أنّ النبي ﷺ قال : « إذا ظهر الزنا والربّا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله » (١) .

« الزنا » : إشارة إلى فساد الحياة الخلقيّة ·

و « الربا » : إشارة إلى فساد الحياة الاقتصاديّة ·

من هنا ينبغي أن يتّبع النّاس منهج الله في حياتهم الخلقية ، وحياتهم الاجتماعيّة ، وحياتهم الاقتصاديّة ، وحياتهم السياسيّة ، فليس هناك أعدل من منهج الله ﴿ ·· وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

لا يجوز لنا نحن المسلمين أن ندع ديننا ، ونسير وراء الغربيّين ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، فإذا خرجت (مُودة) من (المُودات) اتبعناها بلا عقل ، كما قال النبى ﷺ : « ·· حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم ·· » (٣) ، على ما في

---

(١) رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٣٥ برقم ١٠٦١) · (٢) المائدة : ٥٠ ·

(٣) ونصّه كاملاً : « لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم ، قلنا يا رسول اللهّ : اليهود والنّصارى ؟ قال : فمن ؟! » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه (شرح السنّة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٤ / ٣٩٢ ، الحديث ٤١٩٦) ·

جحر الضبّ من السوء وكراهية الرائحة والضيق والظلمة والالتواء ، لو دخلوا جحر ضبّ لصار جحر الضبّ (مُودة) يتبعها النّاس .

يا أيّها الإنسان المسلم :

احفظ فرجك ، وغضّ بصـرك ، ولا تتبـع خطـوات الشياطين من الإنس أو الجنّ .

إنّ النّبيّ ﷺ يقول : « من يضمن لى ما بين لحييه (اللسان ، والفم ، فلا يتكلّم بحرام ، ولا يأكل حراما) وما بين رجليه (الفرج) تضمَّنت له بالجنة » (١) .

ويقول : « اضمنوا لي ستّا من أنفسـكم أضمن لكم الجنّة : اصدقوا إذا حدّثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدّوا الأمانة إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضّوا أبصاركم ، وكفّوا أيديكم » (٢) وهذا للمسلمين عامّة ، الرجال والنّساء ، فالمرأة كالرجل .

الزنا حرام على الرجال وعلى النّساء جميعاً ، يقـول عليه الصلاة والسلام : « إذا صلّت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنّة من أيّ أبواب الجنّة شئت » (٣) .

جاء الإسلام يطهّر المجتمع من الفاحشة ما ظهر منها وما بطن .

كانت الجاهليّة تبيح الزنا ، ولا تضع معوّقات في طريقه : الزنا العلني : كانت هناك بغايا ينصبن الرايات على أبوابهنّ ، والزنا السرّي : اتخاذ الأخدان ، فحرّم الإسلام هذا وذاك ، وربّى الإنسان المسلم على أن يبحث عن الحلال ، فإن عجز عنه أعفّ نفسه ، ونظر إلى ظلّ العرش ، حيث هناك سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ

---

(١) رواه البخارى واللفظ له ، والترمذى ، وغيرهما ، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦١ برقم ١٤٣١) .

(٢) رواه أحمد ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه ، وقال الذهبى في اختصاره للبيهقى : إسناده صالح ، وقال العلائي في أماليه : سنده جيّد ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصـغير (المنتقـى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٤٧ ، الحديث ١٠٨٧) .

(٣) رواه أحمد ، والطبرانى ، من حديث عبد الرحمن بن عوف ، ورواة أحمد رواة الصحيح خلا ابن لهيعة كما قال المنذري ، وعزاه في الجامع الصغير أيضاً إلى البزار عن أنس ، والطبراني عن عبد الرحمن بن حسنة ، مع اختلاف في اللفظ ، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع وزيادته ، ورجح شاكرأنه منقطع ، ولكـن متن الحديث صحيـح كما قـال القرضاوى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٦ برقم ١١١٨) .

إلاّ ظلّه – منهم : « . . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنّي أخاف الله . . » (١) .

ومثله : المرأة التي يغريها رجل ذو منصب ووسامة ، فتقول : إنّي أخاف الله تعالى .

حرّم الإسلام الزنا ، وحرّم الإسلام كذلك الشذوذ (عمل قوم لوط) ، حرّمه القرآن ، وحرّمه النبي ﷺ .

حدثنا القرآن عن قوم لوط الذين ارتكبوا هذه الفاحشة ، وابتكروها ، ما سبقهم بها من أحد من العالمين (٢) ، وقال لهم نبيهم : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

ولعن النبى ﷺ من فعله ، كما جاء في الحديث : « لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من غيّر تخوم الأرض ، ولعن الله من كمّه أعمى عن السبيل ، ولعن الله من سبّ والديه . . ، ولعن الله من تولّى غير مواليه ، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط » (٤) ، فى هذه كررّها ثلاثاً (٥) لعظم خطرها ، حتى لا ينقلب المجتمع على

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة رضي الله عنه – ونصّه كاملاً : « سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد ، ورجلان تحابّا في الله ، اجتمعا على ذلك ، وتفرّقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنّي أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢٨٧ ، الحديث ٤٥٧) .

(٢) كما قال القرآن : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] وقال : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨] . (٣) الشعراء : ١٦٥ .

(٤) رواه النسائي ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله « تخوم الأرض » : أي حدودها ، و « كمّه الأعمى » : أى أضلّه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٢ ، الحديث ١٤٣٤) .

(٥) والتكرار في الآخر من رواية النّسائي .

عقبيه ، فإن من أخطر الأشياء أن تتغيّر الفطرة ، فيتخنّث الرجال، ويسترجل النّساء !
« لعن الله المتشبهّات من النساء بالرجال ، والمتشبّهين من الرجال بالنساء » (١) .

ومن هنا حرّم الإسلام هـذه الفاحشـة ، حتى أنّ بعض الفقهاء قالوا : يقتل الفاعل والمفعول به ولو لم يكن محصنا ، عملاً بحديث ورد في ذلك (٢) ، مع أنّ العقوبة في الزنا : أن يقتـل - يُرجم - المحصـن فقط ، ولكن غير المحصن يُجلد (٣) .

كما أنّ النّبيّ ﷺ حذّرنا من أمر آخـر وقال : « هـي اللّوطيّة الصّغرى : يعنى الرجل يأتي امرأته في دبرهـا » (٤) ، وقال : « ملعـون من أتى امـرأة فى دبرها » (٥) .

وقال : « استحيوا ، فإنه الله لا يستحي من الحق ، ولا تأتوا النساء في أدبارهنّ » (٦) ، فهذا حرام ملعون من فعله ، ولكنّه لا يؤدّي إلى الطلاق كما يزعم بعض النّاس .

---

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورمز له السيوطى بالصّحّة (الجامع الصغير : ٢ / ١٢٤) . قال المناوي : وظاهر كلامه أنّ ذا لا يوجد مخرّجاً في أحد الصحيحين وإلاّ لما عدل عنه وهو ذهول عجيب فقد رواه سلطان هذا الشأن - أي الإمام البخارى - فى صحيحه فى اللباس عن ابن عباس ولفظه : « لعن النبى ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » ، والتقديم والتأخير ليس عذراً في ترك العزو إليه (فيض القدير : ٥ / ٢٧١ برقم ٧٢٦٥) .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، والبيهقى ، والحاكم وصحّحه ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٢ ، الحديث ١٤٣٥) .

(٣) رأوها أشدّ من الزنا لما فيها من خطورة .

(٤) رواه أحمد ، والبزّار ، وصحّح الشيخ شاكر إسناده في تخريجه للمسند ، وقال الشيخ القرضاوي في تعليقه على الحديث : وإنّما سمّاها (لوطيّة) لشبهها بعمل قـوم لوط من حيث استعمال مكان القذر ، وإنّما كانت (الصغرى) لأنّ الزوجة محلّ الاستمتاع في الجملة ، بخلاف الذكر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٣ برقم ١٤٣٨) .

(٥) رواه أحمد ،وأبو داود ، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٤ ، الحديث ١٤٤٢) .

(٦) رواه أبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، والبزّار ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح خلا يعلى بن اليمان وهو ثقة كما قال الهيثمى ، من حديث عمر رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٣ ، الحديث ١٤٣٩) .

هكذا حرّم الإسلام إتيان الفواحش بكلّ طريقة من الطرق ، وفتح طريق الحلال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (١) .

الزنا حرامٌ كلّه ، ولكنّه أشدّ ما يكون حرمة إذا زنى الإنسان بحليلة جاره ، كما روى ابن مسعود في الصحيحين (٢) : سألت رسول الله ﷺ : أيّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال: « أن تجعل لله ندًا وهو خلقك » قلت له : إنّ ذلك لعظيم ، قال : قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : « ثمّ أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قال : قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : « ثم أن تزاني حليلة جارك » فأنزل الله عزّ وجلّ تصديقها: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (٣) .

المفروض في الجار أن يكون حافظاً لحرمة جاره ، حارساً لأهله في غيبته ، لا أن يكون لصًّا يعتدي على أعراضهم .

كذلك زنا المحصن غير زنا العزب ، وزنا الشيخ غير زنا الشاب ، ومن هنا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم (٤) : « ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذّاب وعائل مستكبر » .

« شيخ زان » الشيخ الذي شاب وشاخ ولكنّه يزني ، ليست حاجته كحاجة الشاب .

« وملك كذّاب » : الناس قد يكذبون لضعف عندهم ، أو لحاجة إلى غيرهم ، فلماذا يكذب الملوك والأمراء والرؤساء ؟ إلاّ إذا كانوا يدجّلون على شعوبهم ، وفي ذلك الخطر كلّ الخطر .

---

(١) المؤمنون : ٥ ، ٦ - المعارج : ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) رواه البخاري في كتاب (التفسير) : سورة البقرة باب (٣) ، ورواه مسلم - واللفظ له - في كتاب (الإيمان) : باب (كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده) .

(٣) الفرقان : ٦٨ .

(٤) والنسّائي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥٧ - ٦٥٨ برقم ١٤٢٠) .

« وعائل مستكبر » : هو الفقير المستكبر . الغني قد يغرّه ماله فيستكبر ، أمّا الفقير المتكبّر الذي تقول له الحق فيردّه ، والذي لا يبالي بأحد ، ولا ينظر إلى النّاس إلاّ باستعلاء واستخفاف ، فهذا من أشدّ النّاس عذاباً .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقهنا في ديننا ، وأن يتوب علينا توبة نصوحا ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ، وبفضله عمّن سواه .

ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* *

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

حرّم الإسلام الزنا ولا شكّ ، وحرّم كلّ ما يؤدىّ إليه ، ولكنّ الإسلام إذا حرّم شيئاً وضع البديل له ، فليس هناك حرام إلاّ وبمقابله حلال يُغني عنه ، ما حرّم الله على الناس شيئاً يحتاجون إليه قط ، ففي الحلال دائماً ما يُغني عن الحرام (١) .

ومن هنا حين حرّم الإسلام الزنا ، فقد شرع الإسلام الزواج ، تحصيناً للنّفس ، وكسراً للشهوة ، وإغراء للشيطان ، وتكويناً للأسرة المسلمة ، وتدبيراً للمنزل ، وتكثيراً للعشيرة ، وتحقيقاً لإرادة الله تعالى في بقاء هذا النّوع : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . ﴾ (٢) ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) كما بيّن ذلك ابن القيم رحمه الله في كتابيه : « روضة المحبين » و « إعلام الموقّعين » حين ذكر أنّ الله حرّم على الناس الاستقسام بالأزلام ، وعوّضهم عنه دعاء الاستخارة ، وحرّم عليهم الربا ، وعوّضهم التجارة الرابحة ، وحرّم عليهم القمار ، وأعاضهم عنه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام ، وحرّم عليهم الحرير ، وأعاضهم عنه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف ، والكتان والقطن . وحرّم عليهم الزنا واللواط ، وأعاضهم عنهما بالزواج الحلال ، وحرّم عليهم شرب المسكرات ، وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن ، وحرّم عليهم الخبائث من المطعومات ، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبّات .

نقلاً عن كتاب (الحلال والحرام) للأستاذ القرضاوي ص ٣٣ ، ط : المكتب الإسلامي .

(٢) النّحل : ٧٢ . (٣) الروم : ٢١ .

أمر الله تعالى المجتمع المسلم أن يعمل على تزويج أبنائه وبناته أمرًا صريحًا حينما قال : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) . الأيّم : غير المتزوّج ، ذكراً كان أو أنثى ، من لا زوجة له ، ومن لا زوج لها .

« وأنكحوا » : خطاب للمسلمين عامّة ، وأولى الأمر والأولياء خاصّة ، أن يزوّجوا هؤلاء ولا يدعوهم في حالة العزوبة يتعرّضون للشيطان وللشهوات .

لا يكن كلّ همّكم البحث عن المال : ماذا تدفع ؟ وكم تأخذ ؟ وماذا عندك من مال ؟ إنّها ليست سلعة تُباع وتُشترى ، إنّك حينما تزوّج ابنتك تريد لها إنساناً كريم الخلق ، متين الدين ، إن أحبّها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

زوّج ابنتك ذا الدين ، وابحث لها عن صاحب الدين والخلق : « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » (٢) .

إنّ على مجتمعنا أن يعي أمر الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

كم من فقير اغتنى ، وكم من معسر أيسر ﴿ .. سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٤) ، ودوام الحال من المحال .

---

(١) النّور : ٣٢ .

(٢) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن أبى هريرة ، ورواه ابن عدى عن ابن عمر ، ورواه الترمذي والبيهقي في السنن عن أبي حاتم المزني ، ورمز له السيوطي بالصّحّة (الجامع الصغير : ١ / ١٦) ، قال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) : أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة ، ونقل عن البخاري أنّه لم يعده محفوظا ، وقال أبو داود : إنه خطأ ، ورواه الترمذى أيضًا من حديث أبي حاتم المزني وحسّنه، ورواه أبو داود في المراسيل ، وأعلّه ابن القطان بإرساله وضعف رواته (٢ / ٢٢) . وأنظر أيضًا (فيض القدير : ١ / ٢٤٣ برقم ٣٤٧) .

(٣) النّور : ٣٢ .   (٤) الطلاق : ٧ .

لا يجوز للآباء أن يجعلوا من بناتهم سلعاً ، لا يجوز للآباء أن يعطّلوا البنات .

إنّ هذه الظاهرة الشاذّة في مجتمعاتنا ليست ظاهرة إسلاميّة بحال .

هؤلاء البنات اللاّئي نراهنّ بالمئات والآلاف - وهنّ بنات عائلات - لا ينقصهنّ الجمال ، ولا تنقصهنّ الثقافة ، ولا ينقصهّن الأدب ، ولا تنقصهّن الأخلاق ، فلماذا لا يتزوّجن ؟ من وراء هذا ؟ من المسؤول عن هذا ؟

طالما بحّت أصواتنا ، ونادينا : يا قوم « يسّروا ولا تعسّروا . . »[1] ، لا تعسّروا ما يسّر الله ، لا تحجّروا ما وسّع اللهّ ، لا تضعوا عراقيل في طريق الحلال ، فنحن إذا يسّرنا الحرام - كما نرى - ووضعنا الأحجار في طريق الحلال ، وسددنا أبوابه ، فماذا تكون النتيجة ؟ إمّا الحرمان والكبت ، وإمّا الانحراف ، وعلى كُلّ المجتمع هو الخاسر ، والأخلاق هي الخاسرة ، والدين هو الخاسر .

مَنْ في الناس مِنْ أصحاب الجاه ، ممن له كلمة يقول : سأزوّج ابنتي بمائة ريال ؟ في اليمن بعض القضاة من أصحاب الأسر الكبيرة كان يزوّج قريباته وأقاربه بريال واحد ، ولقيت بعض هؤلاء وقال : أنا ممّن تزوّج بريال .

أراد هذا الرجل آن يكسر الحواجز ، وأن يضع عُرْفاً جديدًا ، فلماذا لا يوجد بعض النّاس - عندنا - يفعلون هذا ، وتُزوَّج البنات ، ويُزوَّج الشباب ؟

كثير من الشباب يمكث إلى ما بعد الثلاثين ، ولم هذا ؟ إنّه يبلغ في الخامسة عشرة ، فلماذا يبقى خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً لا يتزوّج ؟ وماذا يفعل في هذه السنين ؟

علينا أن نُيسِّر ولا نعسّر ، علينا أن نضع من الأنظمة والتقاليد ما يُتيح للشاب أن يُحقِّق أمر الله تبارك وتعالى ويُتيح للجميع أن يكوّنوا الأسر المسلمة الصالحة ، وأن نرى في كلّ يوم زواجاً وزواجاً وزواجاً ، وأن نخرج من هذه الظاهرة الشاذّة - التى لا يقرّها الإسلام ، ولا يقرّها العقل ، ولا تقرّها المصلحة ، ولا الأخلاق ، ،ولا شيىء أبداً : عزوبة الرجال ، وعنوسة النّساء .

أسأل اللهّ تبارك وتعالى أن يفقّهنا فى ديننا ، وأن يعلّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا

---

(١) روى البخاري ، ومسلم ، عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا » .

بما علمنا ، وأن يجعل يومنا خيراً من أمسنا ، ويجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأن ينصرنا على عدوّه وعدوّنا .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وصلّ اللّهمّ على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين :
﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأقم الصلاة .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .   (٢) الحشر : ١٠ .
(٣) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
٩ – التوبة النصوح

● الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا مع (عباد الرحمن) ، لازلنا في رحاب القرآن ، لازلنا مع تلك الصفوة المختارة من عباد الله ، الذين شرّفهم الله تعالى بالإضافة إلى نفسه ، والعبوديّة له : عباد الرحمن .

وصفهم الله بخيز الأوصاف ، في حالهم مع أنفسهم ومع الناس ، في ليلهم ونهارهم ، معه سبحانه ومع خلقه .

وصفهم بعمل الخيرات واجتناب السيئات ، فإذا كان غيرهم يرتكب الموبقات : يدعون مع الله إلهًا آخر ، أو يقتلون النفس التي حرّم الله بغير حق ، أو يتورّطون في الزني ، فإنّهم لا يفعلون شيئًا من ذلك ، ومن فعل شيئاً من هذه الكبائر يلق أثاما :

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [جزاء ونكالا] * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ (١) .

هذا هو الآثام والنكال الذي ينتظره ، عذاب مضاعف يُكررّ عليه ويُغلّظ ، وعذاب الآخرة أشدّ وأنكى وأخزى من عـذاب الدنيا ، إنّه ليس عذاب يوم ولا يومين ، ولا شهر ولا شهرين ، ولا سنة ولا سنتين ، إنّه الخلود : « ويخلد فيه مهانا » .

وهو مع العذاب المادّىّ هناك إهانة نفسيّة معنويّة ، إنّه يخلد في هذا العذاب

---

(١) الفرقان : ٦٨ ، ٦٩ .

حقيراً مهانا ذليلا ، لا وزن له ولا قيمة له ، مهما كان مركزه في الدنيا ، ومهما كانت مكانته عند الناس ، فإنّه عند الله مُهانٌ ذليل : « ويخلد فيه مهانا » .

هذا شأن من يرتكبون تلك الموبقات ، ويقترفون تلك المنكرات .

ولكن هل سُدّ الباب عليهم ؟ هل قُطّعت دونهم الأسباب ، وغلّقت في وجوههم الأبواب ، فلا رحمة ينتظرونها ولا عفو يرتقبونه ؟ لا ، هنالك استثنى الله عزّ وجلّ فقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ﴾ [١] .

هكذا فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

عرف سبحانه ضعفهم ، عرف تسلّط الغرائز عليهم ، عرف وسوسة الشيطان لهم ، عرف أنّ الإنسان خُلق ضعيفاً ، فكثيراً ما يُغرى بالشرور ، وكثيراً ما يتورّط في الآثام ،وكثيراً ما تزلّ أقدامه ، فيطيع الشيطان ، ويسير في ركابه ، عرف الله ذلك من عباده ففتح لهم باب التوبة .

وهو سبحانه هو الذي خلقهم هكذا ، لأنّه سبحانه يريد أن يتوب على عباده ، فاسمه (التواب) ، وهو : ﴿ . . . يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٢] ، واسمه (الغفّار) فمن شأنه أن يغفر ، واسمه (العفو) فمن شأنه أن يعفو .

ولهذا لم يخلق الله هذا النوع من خلقه ملائكة مطهرين ، وإنّما خلقهم بشراً لهم دوافعهم وشهواتهم ، وغضبهم وغرائزهم ، حتى يُذنبوا فيستغفروا ، فيغفر الله تعالى لهم ، وفي الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » [٣] .

إنّه (الغفّار) ، إنّه (العفوّ) ، إنّه (الرحيم) ، إنّه (التواب) ، فلا يعظم عليه ذنب ، مهما عظم ذنب ، فإنّ مغفرة الله تعالى أعظم منه ، ولهذا فُتح باب التوبة .

---

(١) الفرقان : ٧٠ ، ٧١ .   (٢) البقرة : ٢٢٢ .

(٣) رواه مسلم وغيره ، من حديث أبى هريرة ﷺ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢ / ٨٢٢ - ٨٢٣ الحديث ١٩٣٤) .

التوبة تجبّ الذنوب كلّها ، تغسل الإنسان من ذنبه ، وتذهب به كما يذهب الماء بالوسخ ، من تاب من الشرك قبل الله توبته : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ . . . ﴾ [1] . فالإسلام يجبّ ما قبله ، والتوبة تجبّ ما قبلها .

اختلف بعض الصحابة فى توبة القاتل ، لأنّ هناك حقوقاً ثلاثة : حقّ يتعلّق بالمقتول ، وحقّ يتعلّق بورثة وأولياء دمه ، وحقّ يتعلّق بالله .

قالوا : إذا تاب القاتل ، وعفا الله تعالى عنه وأسقط حقّه ، وعفا الورثة عنه وأسقطوا حقوقهم بالصلح أو بالدية ، فقد بقي حقّ المقتول .

ولكن الصحيح أنّه إذا تاب توبة نصوحا ، وعفا عنه أولياء الدم ، فإنّ الله أهلٌ لأن يُرضي عنه المقتول يوم القيامة .

فالتوبة تشمل كلّ الذنوب ، وهنا بعد أن ذكر الله الشرك ، والقتل ، والزنى ، قال : « إلاّ من تاب . . » فهو يشمل الذنوب الثلاثة .

ولكن : أىّ توبة ؟ ما التوبة المقبولة ؟

إنّها التوبة (النّصوح) ، والنّصح معناه : الخلوص من الغش ، أى أنّها ليست توبة زائفة ، ليست توبة مدخولة مغشوشة ، ليست كتوبة الكذّابين الذين يتوبون بألسنتهم وقلوبهم مصرّةٌ على المعصية ، لا .

إنّ للتوبة مقومات وأركاناً لابدّ أن تتوافر لها :

أوّل أركانها : النّدم ، كما سئل أنسٌ وغيره من أصحاب النبى ﷺ : أقال النبى ﷺ : « الندم توبة » [2] ؟قال : نعم .

وهذا يعني أنّه أعظم أركان التوبة ، كما قال : « الحجّ عرفة » [3] أى أعظم أركان الحج : عرفة .

---

(١) الأنفال : ٣٨ .

(٢) رواه أحمد بإسناد صحّحه الشيخ شاكر ، كما رواه ابن ماجه ، والحاكم وصحّحه ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٢ ، الحديث ١٩٣٢) .

(٣) رواه أحمد ، وأصحاب السنن ، وابن حبان ، والحاكم ، والدارقطنى ، والبيهقى ، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمى (المقاصد الحسنة للسخاوى برقم ٣٩٤) .

الندم : الأسى ٠٠ الحزن ٠٠ الحسرة التي تأكل القلب ، يحترق الإنسان داخلياً إذا تذكر معصيته لله ، لا يهنأ له بال ، ولا يسعد له حال ، ولا يطيب له نوم ، لأنّ ذنبه - كلّما تذكّره - ينغّص عليه نهاره ويؤرّق عليه ليله ٠

إنّه شعور بالتقصير أمام الله عزّ وجلّ ، يستجمع الإنسان في ذاكرته إساءته إلى الله ، وإحسان الله تعالى إليه ، يتذكر نعم الله تعالى عليه ، ويتذكر معصيته لله عزّ وجلّ ، كما جاء في أحد الأحاديث القدسيّة : « إنّي والجنّ والإنس في نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويُشكر غيرى » [(١)] ، خيرى إلى العباد نازل ، وشرّهم إليّ صاعد ، أتحببّ إليهم بنعمي وأنا الغنِي عنهم ، فيتبغضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيىء إليّ ٠

من يريد التوبة يستجمع هذا ، يستحضر آلاء الله ونعمه عليه ، ويستحضر ذنوبه ومعاصيه مع الله عزّ وجلّ ، فينشأ من ذلك حالة (النّدم) ، حالة الأسى والأسف ، التي يذوب بها القلب كما يذوب الملح في الماء ٠

وصف الله لنا نفسيّة التائبين في سورة (التوبة) حين قال : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [(٢)] .

أنظروا : « ضاقت عليهم الأرض بما رحبت» الدنيا على سعتها ضاقت عليهم ، وأنفسهم ضاقت عليهم،« وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه » هذا هو شعور التائب ، هذا معنى (النّدم) ، وهذا أوّل عناصر التوبة ومقوّماتها ، إنّ النادم هنا يغسل ذنوبه بدموعه ٠

---

(١) رواه الحكيم الترمذى في نوادر الأصول ، والبيهقى في شعب الإيمان وكذا الحاكم عن أبي الدرداء ، كما في (فيض القدير : ٤ / ٤٦٩ برقم ٦٠٠٨) و (كنز العمال : ١٦ / ٣ برقم ٤٣٦٧٤) ، وضعفه السيوطى في (الجامع الصغير) وكذلك الألبانى في ضعيف الجامع لصغير (٤٠٥٢) ، الزيادة التى أوردها الشيخ : « خيرى إلى العباد نازل ٠٠٠ » لم أعثر عليها ٠

(٢) التوبة : ١١٨ ٠

الركن الثاني للتوبة : العزم المصمّم ألاّ يعود إلى الذنب : لا توبة إلاّ بهذا العزم ، أمّا إذا كان يتوب وهو بين بين ، وهو يحنّ إلى المعصية ، ولا يزال في قلبه تعلقّ بها ، ولا زال عقله يفكّر فيها ، فهذه ليست توبة ·

لابدّ أن يكون ساعة التوبة قاطع العزم كحدّ السيف،مصرًا على ألاّ يعود إليها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه ·

قد يضعف بعد ذلك ، قد تخونه إرادته ، قد يغلبه هواه ، قد يصرعه شيطانه ويهزمه ، فالمعركة بين الخير والشرّ مستمرة ، ولكن المهمّ ساعة التوبة يكون عازماً عزماً أكيداً ألاّ يعود إلى الذنب ·

الركن الثالث : أن يُقلع بالفعل عن ذنبه :

التوبة رجوع عن المعصية إلى الطاعة ، وعن السيئات إلي الحسنات ، رجوع من طريق الشيطان إلى طريق الله ، فلابدّ أنه يرجع ·· أن يغيّر طريقه ·· أن يغيرّ مجراه ·· أن يغيرّ صحبته ، يستبدل مكاناً بمكان ، وأناساً بأناس ، وأصحاباً بأصحاب [1] « ·· وأتبع السيئة الحسنة تمحها ·· » [2] ·

إذا استجمعت هذه التوبة شرائطها ، فلا بدّ أن تُقبل حسب سنن الله سبحانه وتعالى ، لأنّه وعد بقبول التوبة : ﴿ ·· ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ [أي وفّقهم للتوبة] لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [3] ·

سئلت رابعة العدويّة : أإذا تُبتُ تاب الله عليّ ؟ فقالت : يا أحمق ، بل إذا تاب الله عليك تبت ، أما قرأت قوله تعالى: ﴿ ·· ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ·· ﴾ أي إنّه إذا وفقك للتوبة فهذا دليلٌ على أنّه قبلك ، ما دام قد بعثك وحفزك على أن تتوب ، فهذا دليل القبول من أوّل الأمر ·

التوبة مطلوبة من كلّ مسلم ، يقول القرآن : ﴿ ·· وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا

---

(١) كما أوصى الرجل العالم ذلك الرجل الذي جاءه يسأله عن التوبة ، وقد قتل مائة نفس ، فقال له : انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإنّ بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوء (أنظر حديث أبى سعيد الخدرى المتفق عليه ، وقد أورده النووى في باب التوبة من كتابه الشهير : رياض الصالحين) ·

(٢) هو جزء من حديث أبى ذرّ ﷺ - الذى رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم وصحّحه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، وهو من أحاديث الأربعين النووية ، ونصّه كاملاً : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٧١٢ ، الحديث ١٥٩٤) ·

(٣) التوبة : ١١٨ ·

أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، ويقول أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾ (٢) ، فالمؤمنون مخاطبون ومأمورون جميعاً بالتوبة إلى الله تعالى .

كلّ إنسان مطالب أن يتوب ، مَنْ مِنَ الناس يرى نفسه معصوماً من الذنوب ؟ كلّنا مقصّر في حق الله ، كلّنا مفرّط في حقوق العباد ، ولذلك ينبغى أن نكون دائماً توابين .

النبى ﷺ مع حسن صلته بالله ، ومع إنّه كان لا يغفل عن ربه طرفة عين ، وكانت تنام عيناه وقلبه لا ينام ، وكان مع الله في غدواته ورَوْحاته ، وحركاته وسكناته كلّها ، ومع هذا كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنّى أتوب في اليوم مائة مرّة » (٣) .

التوبة مطلوبة من عباد الرحمن ، وخصوصاً إذا ارتكبوا موبقة من الموبقات ، إذا ارتكبوا كبيرة من الكبائر ، كهذه التي ذكرها القرآن (٤) ، أو أيّ كبيرة أخرى .

الصغائر أمرها هيّن ، تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن الخطورة كلّ الخطورة في الكبائر ، فهذه لا يكفّرها إلاّ التوبة والتـــوبة النصـــوح ، فلابدّ منها . ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ . . . ﴾ (٥) :

لماذا عقّب التوبة بالإيمان ؟ لأنّ الكبائر تخدش الإيمان وتجرحه ، بل تصيبه فى الصميم ، وقد ذكـــرنا الحديـــث الصحيح (٦) : « لا يزنى الزانى حين يزني وهو

---

(١) النور : ٣١ .

(٢) التحريم : ٨ . وتتمّتــها : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(٣) رواه مسلم عن الأغرّ بن يسار المزنيّ رضى الله عنه (رياض الصالحين للنووى : باب التوبة) .

(٤) أى فى قوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ . . ﴾ (٦٨) . (٥) الفرقان : ٧٠ .

(٦) الذى رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥١ برقم ١٣٩٩) .

مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

الإيمان إذن يُصاب بهذه الكبائر والموبقات .

لهذا كان على التائب أن يعمل على ترميمه بعد الإصابة ، وعلى تجديده بعد أن يخلق بهذه المعاصي الكبيرة، ومن هنا كان معنى قوله: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ .. ﴾: جدّد إيمانه بهذه التوبة النصوح .

ثمّ لا بدّ - بعد التوبة والإيمان - من عمل صالح : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً .. ﴾ (١) أي لابدّ أن يبيض صفحته بالطاعات بعد أن سوّدها بالمعاصي ، لابدّ أن يعمل الصالحات ويكثر من الحسنات، ويحاول أن يعوّض ما فات ، لا بدّ من هذا ، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٢) .

إنّه كان يعمل السّيّئات فعليه أن يعمل مقابلها حسنات ، لقد غيّر طريقه فلا يجوز أن يبقى فارغاً ، والنفس لا تبقى فارغة ، من لم يشغل نفسه بالحق شغلته نفسه بالباطل ، من لم يشغل نفسه بالطاعة شغلته نفسه بالمعصية ، المرء لا يبقى في فراغ ، لابدّ من عمل .

فإذا كان قد ولّى زمن السيئات فليستقبل زمن الصالحات ، وليعمل عملاً صالحاً .

وأبواب العمل الصالح كثيرة ومفتوحة ، مع الله ومع الناس ، في الليل والنهار : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ (٣) لا يضيع عند الله شيء ، ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيمًا ﴾ (٤) .

على التائب أن يملأ صحائفه حسنات ما استطاع ، ويحاول - بقدر الإمكان - أن يجعل في مقابل السّيّئة حسنة من جنسها : إذا كان يغتاب المسلمين فليجعل من حسناته أن يدعو للمسلمين وأن يستغفر لهم ، إذا كان من سيئاته من قبل إنه يؤذي

---

(١) الفرقان : ٧٠ . (٢) طه : ٨٢ .

(٣) الزلزلة : ٧ . (٤) النساء : ٤٠ .

الناس بيده أو بلسانه ، فليكن من حسناته الجديدة أن يقدّم النفع للناس .. أن يُسدي الخير لهم .. أن يصنع المعروف معهم .. أن يميط الأذى من طريقهم .. أن يقدّم لهم ما استطاع من خير .

فإن عجز فليدلّ على خير : « والدال علـى الخير كفاعـله »[1] ، و « من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله »[2] .

فإن عجز فلينو الخير ، ربّما كانت نية المرء خيراً من عمله .

هذا هو المطلوب من التائب : ﴿ إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[3] ، ما معنى هذه الكلمة القرآنية : ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ؟ .

للمفسّرين فيها وجهان :

الوجه الأوّل : إنّ حياتهم قد تغيّرت ، وأعمالهم قد تبدلت ، فهم قد تحوّلوا من حياة المعصية إلى حياة الطاعة ، من الشرك إلى التوحيد ، من الكفر إلى الإسلام ، من الرياء إلى الإخلاص ، من إيذاء الناس إلى نفع الناس ، من إضاعة الصلوات واتباع الشهوات ، إلى المحافظة على الصلوات وإلى اجتناب الشهوات ، من كذا إلى كذا .

تبدّلت سيئّاتهم حسنات ، لأنّ حياتهم الجديدة قد قلبت الموازين ، وغيّرت الطريق ، اتجه الريح اتجاهاً جديدا .

هذا تأويل .

---

(١) هو جزء من حديث رواه البيهقي في الشّعب عن ابن عباس ﷺ ، ونصّه كامـلاً : « كلّ معروف صدقة ، والدالّ على الخير كفاعله ، والله يحبّ إغاثة اللهفان » ، وقـد رمز له السيوطى بالضعف في الجامع الصغير (٢ / ٩٤) . قال العلامة المناوى : وفيه طلحة بن عمرو أورده الذهبى في الضعفاء وقال : قال أحمد متروك ، وقال الحافظ العراقي : رواه الطبرانى في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف (فيض القدير : ٥ / ٣٣ برقم ٦٣٥٤) . والحديث وإن كان ضعيفاً إلاّ أنّ معناه صحيح ، ويشهد له حديث أبى مسعود التالي ، الذي رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، من حديث أبي مسعود البدري رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٢٨ برقم ٧٧) .

(٣) الفرقان : ٧٠ .

والوجه الثاني : إنّ نفس السّيّئات تنقلب بالتوبة النصوح إلى حسنات ، وذلك أنّ التائب الذى صدقت توبته ، كلّما تذكّر ذنبه ندم وبكى واستغفر ، وطلب من الله العفو ، فهو دائماً يتذكّر ذنبه ، ويعقبه بالاستغفار والرّجعة إلى الله ، وبهذا تنقلب الذنوب نفسها إلى حسنات ، وتصبح السيئات في ميزانه حسنات وفي هذا - أيضاً - وردت بعض الأحاديث الدالّة على ذلك ، ولا حرج على فضل الله عزّ وجلّ .

إنّ الله لا يريد من عباده أن يبعدوا عنه ، ولكن يريدهم أن يقتربوا منه ، ويقول لهم - كما في الحديث القدسى :

« .. وإن تقرّب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلىّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشي أتيته هرولة » (١) .

من أقبل على الله تائباً تلقّاه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب ، كما أمر نبيّه ﷺ أن يقول : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) .

ما أرقّها .. ما أنداها .. ما ألطفها من عبارة .

إنّهم العصاة ، إنّهم الظالمون المسرفون على أنفسهم ، لم يحرمهم شرف العبوديّة له ، أبقى عبوديّتهم له ، وناداهم بهذا النّداء المؤنس المحبّب: « .. يا عبادي [أنتم عبادى وإن أخطأتم وعصيتم] الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعا ، إنّه هو الغفور الرحيم » .

هذا نداء عامٌّ خالدٌ إلى يوم القيامة ، لكلّ العصاة والمسرفين على أنفسهم ، كما جاء في الحديث أيضاً : « قال الله : يا ابن آدم ، إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنَان السماء ، ثم

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأوّله : « يقول الله : أنا عند ظنّ عبدى بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسى ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم .. » ، ورواه أحمد بنحوه بإسناد صحيح ، وزاد في آخره قال قتادة : « والله أسرع بالمغفرة » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٤٣٧ برقم ٨٢١) .

(٢) الزمر : ٥٣ .

استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، إنّك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثمّ لقيتنِي لا تشرك بيِ شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » [1] .

المهم أن تستغفر الله ، وترجع إليه ، وتنيب إليه ، وتقف على بابه ، ولن يردّك ، فباب الله ليس عليه حاجب يصدّ الناس عنه ، ولا بواب ، ولا ناطور ، ولا أحد ، الباب مفتوح ، كلّما قلت : يا ربّ ، قال الله لك : لبّيك عبدى وسعديك .

المهمّ أن تسارع إلى التوبة .. أن تبادر ولا تسوِّف ، فأكثر أهــل النار : المسوّفون ، الذين يقولون : سوف نتوب ، سوف نتدارك ، و (سوف) جند من جنود إبليس .

وما يدريك أنك ستعيش إلى غد أو بعد غد ؟ ما يدريك - وأنت في ريعان شبابك - أنك ستبقى إلى سنّ الكهولة ؟ وما يدريك وأنت في سنّ الكهولة أن تبقى إلى سنّ الشيخوخة ؟ وما يدريك أنّك إذا بقيت ستجد العزم على التوبة ؟ ربّما كان الإصرار على المعصية يغلق قلبك بالقساوة ، فلا تجد رغبة في التوبة ، لأنه الإنسان كلّما أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب صقل القلب منها ، وأصبح أبيض صافيا ، فإذا لم يتب وفعــل أخــرى أصبحت نكتة ســوداء بجانب نكتة سوداء ... حتى يسودّ القلب كلّه والعياذ بالله [2] ، فذلك الران الذى ذكره الله

---

(1) رواه الترمذى عن أنس ﷺ ، وقال : حيث حسن غريب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان : ٩٠٤ ، ٢١١١) ، وهو الحديث الثاني والأربعون من أحاديث الأربعين النووية ، وقال ابن رجب في شرحه (جامع العلوم والحكم) : وإسناده لا بأس به ، و « العنان » هو السحاب ، و « قراب الأرض » أى ما يقارب ملأها .

(2) يشهد لذلك حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الترمذى عن أبي هريرة ﷺ وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي ، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، ونصه: « إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة ، فإن هو نزع واستغفر صُقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٤٧٠ الحديث ٩٠٨) .

تعالى في كتابه : ﴿ كَلاَّ ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) ، وهنا يُخشى أن يسودّ القلب ويُظلم ، فلا يجد إرادة للتوبة ، ولا يجد رغبة فيها ·

هذا هو خطر التسويف ·

ثمّ إنّ الموت يأتي بغتة ، وخاصّة في عصرنا ، ما أكثر الذين يموتون في الحوادث ، وما أكثر الذين يموتون بالسكتة أو بالذبحة ، وما أكثر الذين يصبحون فلا يمسون ، أو يمسون فلا يصبحون : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ·· » (٢) .

تزوّد من التقوى فإنّك لا تدري إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر ·

التسويف هو الخطر ، تُب من قريب : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (٣) .

صحيح إنّ التوبة تُقبل في أيّ حال ، إذا تُبت مختاراً قبل أن تبلغ الروح الحلقوم : « إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٤) ، ولكن من يضمن لك أن تتوب فيما بعد ؟ ·

حاول أن تُبادر بالتوبة ولا تسوّف ، ولا تؤخّر ، ولا تستصغر ذنوبك ، فإنّ

---

(١) المطفّفين : ١٤ ·

(٢) هو من كلام عبد الله بن عمر ﷺ ، وقد رواه البخارى وغيره ،وتتمته : « وخُذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » · أنظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٦٦ الحديث ٢٠٨٠) ·

(٣) النساء : ١٧ · وقال الله عقبها : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [١٨] ·

(٤) رواه الترمذي عن ابن عمر وقال : حديث حسن ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، وأورده الهيثمى في (المجمع) جزءاً من حديث وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير (عبد الرحمن بن البيلماني) وهو ثقة · ومعنى « يغرغر » : أي ما لم تبلغ روحه حلقومه ، فيكون بمنزلة الشيىء الذي يُتغرغر به (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢١ - ٨٢٢ الحديث ١٩٣٠) ·

النبي ﷺ قال : « إيّاكم ومحقّرات الذنوب ، فإنّهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » (١) .

يا أيّها المؤمنون : توبوا إلى الله جميعا « كلّ ابن آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوّابون » (٢) .

آدم نفسه أخطأ ، وأكل من الشجرة ، ولكنّه محا هذه المخالفة بالتوبة ، فغُسل منها تماماً ، خلافاً لما يقوله دُعاةُ النصرانيّة ، الله تعالى يقول : ﴿ . . . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) .

آدم أكل من الشجرة ، ثمّ دعا هو وزوجه : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتَ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

وإذا كان الأب قد أذنب وأخطأ ﴿ . . فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (٦) كما قال القرآن ، فلا غرو أن يخطىء أبناؤه ، وأن يقعوا في المعصية ، ولكن الذي أعطاه الله لآدم أعطاه لذرّيته : (التوبة) .

يُروى : « إنّ الله عزّ وجلّ لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزّتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه (٧) .

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود ، وكذا الطبراني والبيهقي ، كلهم من رواية عمران القطان ، وهو ممّن اختلف في توثيقه وتضعيفه ، وممّن وثّقه ومشّاه أحمد ، واحتجّ به ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم ، وبقيّة رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح ، كما قال المنذري (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٧١ برقم ١٤٦٤) .

(٢) من حديث أنس ﷺ ، رواه الترمذي وقال : حديث غريب ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وانتصر له ابن القطان ، وقال الذهبي : على لين ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٠ الحديث ١٩٢٧) .

(٣) طه : ١٢١ ، ١٢٢ . (٤) الأعراف : ٢٣ . (٥) البقرة : ٣٧ .

(٦) طه : ١١٥ ، وأوّلها : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ . . ﴾ .

(٧) أورده الغزالي في الإحياء بصيغة : يُروى ، كذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ ، والحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصحّحه من حديث أبي سعيد ، أنظر : الإحياء مع تخريج أحاديثه للعراقي (٤ / ١٤) ط . دار المعرفة - بيروت .

نستطيع أن نغلب الشيطان بالتوبة إذا صدقت ٠٠ إذا نصحت ، فإذا تُبنا إلى الله ، تقبلّ الله تعالى منّا ٠

ربّما كان هناك بعض التائبين أفضل ممنّ نشأوا في الطاعة ، لأنّهم كلّما تذكّروا ذنوبهم بكوا على أنفسهم بكاءً مرًّا ، فعاشوا بين الرجاء والخوف : ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (١) ، يرجو عفو الله ويخشى عقابه ، فهو بهذه النفسيّة ربّما كان أفضل من كثير ممّن نشأوا في الطاعة ٠

إذا تاب الإنسان توبة نصوحاً محا الله عنه ما مضى ، وغفر له ما قد سلف : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٢) ٠

هذه حقيقة ، وقد جاء في الحديث : « كان الكِفْلُ من بني إسرائيل ، وكان لا يَتَوَرَّعُ من ذنب عَمِلَهُ ، فَأَتَتْهُ امرأةٌ ، فَأَعْطَاهَا ستينَ ديناراً على أَنْ يَطَأَهَا ، فلمّا أرادها على نفسها ارتعدت ، وَبَكَتْ ، فقال : ما يُبْكيك ؟ قالت : لأنّ هـذا عملٌ ما عَمِلْتُهُ ، وما حملني عليه إلاّ الحَاجَةُ ، فقال : تَفْعَلِينَ أَنْتِ هذا من مخافة الله ؟ فأنا أحرى ، اذهبي فلك ما أعطيتك ، ووالله لا أَعْصِيهِ بَعْدَهَا أَبداً ، فَمَاتَ مِنْ ليلته ، فَأَصْبَحَ مكْتُوباً على بَابِه : إنَّ اللهَ قد غفَرَ للكفل ، فَعَجِبَ الناسُ من ذلك » (٣) ٠

الذي حدث أنّه في لحظة صلح مع الله تاب إلى الله عزّ وجلّ ، فمحا الله عنه ما كان منه ، أقبل على الله وندم وتاب فمات مغفوراً له ٠

---

(١) الزمر : ٩ ٠

(٢) رواه ابن ماجه ، والطبراني ، عن ابن مسعود ﷺ ، ورواة الطبراني رواة الصحيح ، وحسّنه ابن حجر ، وكذلك الألباني في صحيح الجامع الصغير ، ورواه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس ، وزاد : « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » قال المنذرى : وقد روي بهذه الزيادة موقوفاً ، ولعلّه أشبه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٢ الحديث ١٩٣١) ٠

(٣) رواه الترمذى عن ابن عمير وقال : حديث حسن ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٠ برقم ١٤٢٨) ٠

هذا هو سرّ التوبة ، إنّها إكسير الحياة ، إنّها (المحّاءة) التي تمحو كلّ الذنوب إذا صحّت ونصحت وصدقت ﴿ .. وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، ﴿ .. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢) .

اللهم تُب علينا توبة نصوحًا ، واغفر لنا ما مضى ، وأصلح لنا ما بقى .

استغفروا الله إنه الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

*** الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

إذا صدقت التوبة قُبلت ، ويفرح الله تعالى بها فرحاً عظيماً ، حتى جاء في الحديث الصحيح : « للهّ أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دويَّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ ، وقد ذهبت راحلته ، فطلبها ، حتى إذا اشتدّ عليه الحرّ والعطش - أو ما شاء الله تعالى - قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » (٣) .

أنظروا : كيف يفرح الله بتوبة عبده ؟!

إنّ الله يحب من عباده أن يتوبوا ، ويفرح بهم ، ويرحّب بهم ، ويستقبلهم ، فقد عادوا إليه بعد شرود .

ولكن هناك شرط مهمّ للتوبة :

التوبة إذا كانت تتعلّق بالمعاصي التي بين الإنسان وربّه ، فالأمر فيها هيّن ، ويقبلها الله ولا شك ، ولكن المشكلة تنشأ إذا كان بينك وبين العباد حقوق ، وبخاصّة الحقوق الماليّة كالديون التي للناس عليك .

---

(١) النور : ٣١ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

(٣) رواه البخارى ومسلم عن الحارث بن سويد عن عبد الله ﷺ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٤ ، الحديث ١٩٤٠) . و « الدويّة » : هي الفَلاَةُ القفر والمفارة .

إذا كنت اغتصبت منهم مالاً ، أو سـرقت ، أو ارتشيت ، أو غششتهم في تجارة ، أو فعلت شيئاً من ذلك ، أو أكلت وديعة أو أمانة عندك ، فعليك أن تردّها ، بل قال العلماء : عليك أن تردّها وتردّ ربحها .

إذا كان عندك ألف جنيه أو ألف ريال ، وبقيـت عندك عشر سنين وربحت منها ، فالمفروض أن تردّها وتردّ ربحها إلى صاحبها ، لأنّها لو كانت عنده لنمت .

جاء في الحديث الصحيح : « يُغْفَرُ للشهيدِ كُلُ ذَنْبٍ إلاّ الدَّين » (١) .

الشهيد في سبيل الله تُغفر ذنوبه كلّها ، صغائرها وكبائرها ، إلاّ الدّين .. إلاّ حقوق العباد .

فمن تاب توبة نصوحا : عليه أن يردّ الحقوق إلى أهلها ، فإن كانوا قد ماتوا يردّها إلى ورثتهم ، فإن كان الورثة قد ماتوا ، ردّ إلى ورثة الورثة .

لابدّ من الردّ أو الاستحلال ، بمعنى أن يطلب من أصحاب الحقوق أن يحلّوه من تبعتها ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيىء ، فليتحلّله منه [يعني يقول له : أحِلَّني .. سامحني] من قبل ألاّ يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه » (٢) .

العملة الوحيدة يوم القيامة : الحسنات والسّيّئات ، لا درهم ولا دينار ، ولا ريال ولا دولار ، ولا شيىء من هذا .

فالإنسان إمّا أن يردّ الحق إلى أهله ، وإمّا أن يتحلّل ويستسمح أصحاب الحق ، فإن سمحوا وإلاّ عليه أن يردّ إليهم ما استطاع إن عرفهم ، وإن لم يعرفهم - كأن يكون ظلم أناساً كثيرين ، أو ماتوا ولا ورثة لهم - يتصدّق عنهم ، والأولى أن

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٩٨ ، الحديث ٧٣١) .

(٢) رواه البخارى ، والترمذي ، عن أبي هريرة ﵁ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦١٩ برقم ١٣٠٤) .

يجعل صدقته جارية ، يضعها في مسجد ، أو في مشروع خيريّ ، ليظلّ أجره لهم إلى يوم القيامة ، هكذا ينبغي للمسلم أن يفعل .

فإن عجز فلينو : كلّما قدر علي شيىء ، ردّ منه ما استطاع .

فإن مات وهو عاجز ، فالله أهل أن يُرضي عنه خصماءه يوم القيامة .

الأمر شديدٌ إذن ، حقوق الله مبنيّة على المسامحة ، وحقوق العباد مبنيّة على المشاحّة ، كلّ يقول : حقّي حقّي ، نفسي نفسي .

فلا بدّ من رعاية هذا الشرط لمن أراد التوبة (النّصوح) .

وأولى من هذا كلّه أن يبعد الإنسان عن الحرام ، ويجنّب نفسه حقوق الناس ما استطاع .

ابتعد عن أكل أموال الناس بالباطل ، ابتعد عن الحرام ، بل عن الشبهات « .. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعي حول الحمي يوشك أن يرتع فيه .. » (١).

اللهمّ إنّا نسألك أن تغنينا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمّن سواك .

اللهم تُب علينا توبة نصوحا ، اللهم أعنّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا . اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا ، اللهم مكّن للمسلمين

---

(١) من حديث النعمان بن بشير ﷺ ، وقد رواه البخاريّ ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود باختصار ، وابن ماجه ، وهو من أحاديث الأربعين النوويّة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٠٦ ، الحديث ٩٦٦) .

(٢) الحشر : ١٠ .

في ديارهم ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السّفلى .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) ، اللهم آمين .

وصلّ اللهم على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
١٠ - ترك شهـــــادة الزّور والإعراض عن اللغو

● الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش معاً في رحاب القرآن ، وفي صحبة عباد الرحمن ، الذين كرّمهم الله تعالى بذكرهم في كتابه ، وشرّفهم بالنسبة إليه ، والإضافة إلى ذاتــه المقدّســة : (عباد الرحمن) .

ذكر الله تعالى أوصافهم في ليلهم ونهارهم ، ذكر حالهم في أنفسهم ، وحالهم مع ربهم ، وحالهم مع النّاس ، حالهم في أموالهم ، وحالهم في أخلاقهم .

ذكر أحوالهم كلّها إيجاباً وسـلباً ، فهم يفعـلون الصالحات ، ويجتنبون الموبقات : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ . . ﴾ (١) ، يحافظون على الكليّات الخمس : الأديان ، والأنفس ، والعقول ، والأعراض (أو الأنساب) ، والأموال .

وصفهم الله بالمحافظة على هذا كلّه .

فإذا زلّت أقدامهم يوماً ، فارتكبوا مُنكراً من المنكرات ، أو اقترفوا موبقة من الموبقات ، سُرعان ما يرجعون إلى الله ، سُرعان ما يقرعون باب التوبة ، سُرعان ما يقولون ما قال أبوهم آدم وأمّهم حوّاء : ﴿ . . . رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

ليس عجيباً أن يخطىء ابن آدم إذا كان آدم نفسه قد أخطأ وأذنب ، ولكن آدم محا خطيئته بالتوبة . . غسل معصيته بالرّجعة إلى الله : ﴿ . . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) ، ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

---

(١) الفرقان: ٦٨ . (٢) الأعراف: ٢٣ . (٣) طه: ١٢١ ، ١٢٢ . (٤) البقرة : ٣٧ .

ولذلك كان (عباد الرحمن) توّابين أوّابين : ﴿ إلاَّ مَن تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلئكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُــــورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ﴾ (١) .

لا يحتاجون إلى كاهن يقفون بين يديه يعترفون له بذنوبهم ، أو يقرّون له بما ارتكبوه في علانيتهم وسرّهم ، ما كلّفهم الله هذا ، حسبهم أن يتوبوا بينهم وبين ربّهم ، وقد فتح لهم باب التوبة على مصراعيه ، ليس عليــه حاجب ، ولا بوّاب : « إنّ الله عزَّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيىء النهار ، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » (٢) ، ويدعو عباده آناء الليل وآناء النهار ، وإن ظلموا وعصوا وأسرفوا على أنفسهم : ﴿ .. يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا من رَّحْمَــــةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

هكذا وصف الله عباد الرحمن .

ثمّ وصفهم بوصف جديد ، هو موضوع خطبتنا هذا اليوم ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٤) .

ما معنى : « لا يشهدون الزور » ؟ .

أى : لا يشهدون شهادة الزور ، فهي هنا مأخوذة من الشهادة ، لا يورّطون أنفسهم في هذه الكبيرة ، التي هي من أكبر الكبائر ، كما روى الشيخان عن أبي بكرة رضي الله عنه ، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكــبائر ؟ » - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس [دلالة على أهمية ما يقول] فقال : « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » فما زال يكرّرها حتى قلنا : ليته سكت (٥) ، إشفاقاً عليه صلى الله عليه وسلم ، فإنّه كان يكرّر بعض الكلمات ثلاثاً

---

(١) الفرقان : ٧٠ ، ٧١ .

(٢) رواه مسلم والنسائي عن أبي موسى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨١٩ برقم ١٩٢١) .

(٣) الزمر : ٥٣ . (٤) الفرقان : ٧٢ .

(٥) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ١٣٥٧، ١٤٩١) .

لعظم خطرها ، لينبه العقول والقلوب إليها ، حتى تتفتح الأذهان والعقول ، فإذا كان هناك من هو مشغول بأمر من أموره ولم يسمع الكلمة الأولى ،كرّرها حتى تُسمع وتُعقل وتُنقل ،وحتى تُغرس في القلوب غرسا .

المسلم لا يقول زُورا ، ولا يشهد زُورا ،وكان النبي ﷺ يقول : « اللهم إنّي أعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا » .

وكان يقول [1] : « عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله » - ثلاث مرات - ثمّ قرأ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [2] .

وإنّما عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله عزّ وجلّ ، لما وراءها من تضييع الحقوق ، ومن تأريث نار الخصومات بين الناس ، ووراءها ما وراءها ، من أن يأكل القوي الضعيف ، من أن يشتري بعض الناس الضمائر بأموالهم حتى يأتوا ليشهدوا بالباطل ، ويضيّعوا الحق ، لهذا كانت من أكبر الكبائر .

عباد الرحمن لا يفعلونها ، عباد الرحمن إذا شهدوا شهدوا بالحق ،ولو كان ذلك على أنفسهم ، أو والديهم ، أو أقرب الناس إليهم ، لا يمنعهم - كذلك - بُعد البعيد ولا عداوة العدو أن يشهدوا بالحق له ، الله تعالى يقول : ﴿ .. وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُـــوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى .. ﴾[3]، ﴿ .. وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى .. ﴾ [4] .

إذا طُلب عبدٌ من عباد الرحمن للحق شهد به ، وقال ما يعلم ، لم يخن ، ولم يخالف ، ولم يزوّر ، ولم يزد في الكلام ، ولم ينقص منه .

إذا طُلبت منه الشهادة لا يأبى ، كما قال الله تعالى : ﴿ .. وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا .. ﴾ [5] ، بعض الناس لا يكذب في الشهادة ، ولكنّه

---

(١) في حديث خُريم بن فاتك ﷺ ، الذي رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد ، ورواه الطبراني في الكبير موقوفاً على ابن مسعود بإسناد حسن ، كما قال المنذري (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٣٤ - ٦٣٥ برقم ١٣٥٩) .

(٢) الحج : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) المائدة : ٨ ، وتتمتها : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(٤) الأنعام : ١٥٢ . (٥) البقرة : ٢٨٢ .

يكتمها ،وربما كان في كتمانه إضاعة للحقوق ، ربّما كان فى كتمانه انتصار للباطل ، ربّما كان في كتمانه ضياع الدين وضياع الدنيا معاً ، ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، وهذا يدلّ على أنّ كتمان الشهادة من الكبائر ، وصدق الله العظيم إذ يقول في آية أخرى : ﴿ . . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

كم من حقوق ضُيّعت ؟ وكم من حُرمات انتهكت ؟ وكم من أعراض أهينت ؟ وكم من دماء أريقت ؟ وكم من أرواح أزهقت ؟ وكم من شعوب اضطهدت ؟ وكم وكم . . من أجل أناس كتموا شهادة يجب أن يقولوها .

كم من أناس قيّدوا ألسنتهم ، فلم يقولوا الحقّ ، والحقّ مطلوب منهم ، لم يقولوا كلمة بألسنتهم ، ولم يقولوا كلمة بأقلامهم ، حينما طُلب إليهم أن يشهدوا وأن يقولوا .

شهادة الحق هي التي تُعلي كلمة الله في الأرض ، والشاهدون بالحق هم الذين يقومون بالشهادة ، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ (٣) ، لا يخافون لومة لائم ، يعلمون أنّ ما يخاف النّاس عليه لا يخافون هم عليه ، فالناس يخافون على أرزاقهم أن تُنقص ، أو على أعمارهم أن تُقطع ، والأرزاق مضمونة ، والأعمار محدودة ، لا يستطيع أحد أن يزيد في رزقك ولا أن ينقص منه ذرّة ، ولا يستطيع أحد أن يؤخّر أجلك أو يقدّمه لحظة : ﴿ . . فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤) .

عباد الرحمن إذا طُلبوا للشهادة أدّوها على وجهها ، لم يغيّروا ، ولم يحرّفوا ، ولم يبدّلوا ، ولم يخونوا ، ولم يكتموا .

هذا أحد التفسيرين للآية الكريمة .

والتفسير الثاني : « والذين لا يشهدون الزور » أي لا يحضرونه .

« يشهدون » هنا من الشهود ، وليس من الشهادة ، هم لا يحضرون الزور ،

---

(١) البقرة : ٢٨٣ . (٢) البقرة : ١٤٠ .

(٣) المعارج : ٣٣ . (٤) الأعراف : ٣٤ ، النّحل : ٦١ .

ولا يجلسون مجالس الزور ، ولا يذهبون إلى أماكن الزور ، وفسّر الزور هنا بما شئت .

وقد تنوّعت عبارات المفسّرين في تفسير الزور هنا ، وهي - كما قال الإمام ابن تيمية - من اختلاف التنوّع وليس من اختلاف التضاد .

هناك من قال : الزور هو الشرك ، وهناك من قال : الزور هو الكذب ، وهناك من قال : الزور أعياد المشركين ، وهناك من قال : الزور هو اللهو والغناء ، وهناك من قال : الزور هو النّياحة ، وهناك من قال : الزور هو شرب الخمر ، وهناك من قال ومن قال .. وكلّها يجمعها أنّ الزور هو الباطل والمعصية .. هو الميل عن الحق .. هو البعد عن الخير وعن الطاعة .

ومعنى هذا أنّ عباد الرحمن لا يحضرون هذه الأماكن ، ينزّهون أنفسهم أن يكونوا من جلسائها ، فإنّ مجالس الخير تُؤثّر في أصحابها ، ومجالس السوء - كذلك - تؤثر في أصحابها ، وكلّنا يعرف الحديث الشريف عن حامل المِسْك ونافخ الكير ، وجليس الخير وجليس السوء (١) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية : والأظهر من السياق أنّ المراد : لا يشهدون الزور ، أي لا يحضرونه ، ولهذا قال : « وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » أي لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به ، مرّوا ولم يتدنّسوا منه بشيء (٢) .

فهؤلاء لا يجلسون مجالس السوء ، لا يشاركون المشركين والكفّار في أعيادهم ، كالذين يحتفلون بأعياد غير المسلمين ،وربّما مرّت عليهم أعياد المسلمين وهم لا يلقون لها بالاً .

هؤلاء لا يحضرون أعياد الكفّار ، ولا يحضرون مجالس الكفر ، ولا مجالس الباطل ، ولا مجالس الفجور ، لأنّ الذي يجلس فيها يناله رذاذ من إثمها .

---

(١) ونصّ الحديث الذي رواه البخارى ، ومسلم ، عن أبي موسى ﷺ : « إنّما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامل المِسْك ونافخ الكير ، فحامل المسك إمّا أن يُحْذيك ، وإمّا أن تبتاع منه ، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إمّا أن يحرّق ثيابك ، وإمّا أن تجد منه ريحاً خبيثة » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٧٩٩ برقم ١٨٧٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٣ / ٣٢٩) ط . الحلبى .

ومن هنا كانت فلسفة الإسلام : أنّه إذا حرّم شيئاً ، حرّم كلّ ما يؤدي إليه ويعين عليه ، فلعن في الخمر عشرة ، [1] ولعن في الربا آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه [2] ، ولعن النائحة والمستمعة [3] ، وذمّ المغتاب وسامع الغيبة ٠

وذلك أنّك إذا جلست مجلس سوء، فإنّك تشجّع أصحابه ٠ لولا الحضور ٠٠ لولا الجلوس من النّاس ، ما بقي هؤلاء في مجلسهم ، ولكن استحسان الحاضرين والسامعين ، وإنصاتهم لما يُقال - أو على الأقل سكوتهم عنه - يشجّع هؤلاء على منكرهم ٠

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [4] بمجرد جلوسكم إليهم ، واستماعكم لهم ، ومشاركتكم إيّاهم ، أصبحتم مثلهم ٠

من هنا لمّا جيىء إلى الخليفة الراشد - خامس الراشدين - عمر بن عبد العزيز بجماعة كانوا يشربون الخمر ، فأمر بحدّهم - إقامة الحدّ عليهم - فقيل له : يا أمير المؤمنين إنّ فيهم رجلاً ليس منهم - لم يشاركهم في الشرب - ولكنّه جلس إليهم وهو صائم ، فقال : صائم ، ويجلس مع شاربي الخمر ، وفي مجلس الخمر ، به فابدأوا ، إنّ الله تعالى يقول : ﴿ ٠٠ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ وأمر أن يُبدأ بجلده وضربه ٠

---

(١) روى أبو داود ، والحاكم وصحّحه ، من حديث ابن عمر : « لعن الله الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها » قال المناوي في الفيض : ورواه ابن ماجه عن أنس ، قال المنذري : ورواته ثقات (٥ / ٢٦٨) ٠

(٢) عن جابر رضي الله عنه قال : « لعن النبي ﷺ آكل الربا ، ومؤكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء » رواه مسلم وغيره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٣٤ برقم ١٠٥٦) ٠

(٣) روى أحمد وأبو داود عن أبي سعيد رضي الله عنه : « لعن الله النائحة والمستمعة » فيه محمد بن الحسن بن عطية العوفي عن أبيه عن جده وثلاثتهم ضعفاء ، انظر : (فيض القدير للمناوي : ٥ / ٢٧٢ برقم ٧٢٧١) ٠

(٤) النساء : ١٤٠ ٠

لا ينبغـــي للمؤمن أن يجلـــس في مكان المنكر ، وقد جـــاء في الحديث : « ٠٠ ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر » (١) .

المؤمن ينّزه نفسه عن مجالس السوء ، حتى لا يأخذه لهيب النّار التي تأكل هؤلاء من بعد ، سيشاركهم شاء أم أبى ، فالأولى أن يُبعد نفسه عنهم ، وبخاصّة أنّ كثيراً من المجالس لا تخلو من فاكهة المجالس : الغيبة ، والنميمة ، والحديث عن أعراض النّاس ، وكلّ هذا يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

كلمة واحدة يقولها الإنسان لو مُزجت بماء البحر لمزجته ، يهوى بها في النّار سبعين خريفاً - وهو لا يلقي لها بالاً - من سخط الله تعالى عليه .

من هنا كان من أوصـــاف عباد الرحمن : ﴿ ٠٠ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٢) : إذا اتفق مرورهم على مجالس اللغو ، نزّهوا أنفسهم عنه : « كراما » بمعنى أنّهم يكرمون أنفسهم أن يُشاركوا في هذا الباطل ، إنّ أنفســـهم أعزّ عليهم من أن يشاركوا في باطل ، وأعمارهم أغلى عندهم من أن يضيعّوها في باطل وفي لغو .

الله تعالى وصف المؤمنين المفلحين ، الذين كتب لهم الفردوس ، هم فيها خالدون ، فكان من أخصّ أوصافهم : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) رأس مالهم أوقاتهم ، فكيف ينفقونها في اللغو ؟ لا يقبلون أن يضيّعوا أوقاتهم في مثل هـــذا ، إنّ الوقـــت الذي يضيعـــونه في لغـــو ، يمكن أن يسبّحـــوا الله فيه ، أو يكبّروه ، أو يهلّلوه ، أو يذكروه ذكراً كثيراً .

كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ صحائف حسنات الإنسان ، وكلمة في مقابلها تسوّد صفحاته بالسيّئات والعياذ بالله ، وقد قال الإمام الغزالي : إنّك تستطيع

---

(١) رواه النسائي من حديث جابر مرفوعاً وإسناده جيد ، ورواه الترمذي وقال : حسن غريب ، والحاكم وصحّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ـ فيض القدير للمناوي : ٦ / ٢١١ - ٢١٢ برقم ٨٩٨٤) ، والحديث له عدة شواهد يقوى بها ، ذكرها الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ٢٧٧ ، ٢٧٩) ، وأوّله « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمّام بغير إزار ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدخل حليلته الحمّام » .

(٢) الفرقان : ٧٢ . (٣) المؤمنون : ٣ .

أن تبني بكلمة قصراً في الجنّة ، ومن ضيّع قصراً أو كنزاً من الكنوز ليأخذ مكانه حصاة ، فقد خسر خسراناً مبيناً [1] .

أى أنّ الإنسان إذا لم ينفق وقته في الطاعة - حتى لو لم ينفقه في معصية - كان خاسرا ، فما بالك إذا أنفقه في طريق المعصية ؟! ما بالك إذا أنفقه في المكروهات التي تـؤديّ إلى المشتبهات ؟! والمشتبهات التى تؤدي إلى صغائر المحرّمات ؟! والصغائر التي تؤدّي إلى الكبائر ؟! والكبائر بريد الكفر والعياذ بالله تعالى .

عباد الرحمن يُنزّهون أنفسهم عن مثل هذا اللغو ، حتى لو عرض لهم من عرض من الناس - يريد أن يجـرّهم إلى اللغو - لا يجارونه ، ولا يقابلون اللّغو بمثله ، بل يعرضون عنه ، ويوفّرون أوقاتهم ، ويدخرون طاقاتهم ، ويوفّرون جهودهم ، لما هو خير وأبقى .

وصف الله جماعة من المؤمنين بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [2] .

فهذا تكميل لما بدأ الله به من أوصاف عباد الرحمن ، حينما قال : ﴿ .. وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [3] .

هؤلاء هم عباد الرحمن :

« .. وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

« .. وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » .

إنّهم مشغولون بآخرتهم عن دنياهم ، مشغولون بإصلاح النفس عن مجاراة

---

(١) ونصّ عبارته رحمه الله - كما في الإحياء - هي : « ولو هلّلت الله سبحانه وذكرته وسبّحته لكان خيراً لك ، فكم من كلمة يُبنى بها قصر في الجنّة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز ، فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها ، كان خاسراً خسرانا مبينا ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنّه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى » . أنظر : الآفة الأولى .. الكلام فيمـا لا يعنيك (إحياء علوم الدين : ٢ / ١١٢) ط . دار المعرفة - بيروت .

(٢) القصص : ٥٥ .   (٣) الفرقان : ٦٣ .

النّاس ، مشغولون بالحقّ عن الباطل ، مشغولون بالجدّ عن الهزل ، مشغولون بالبناء عن الهدم .

إنّهم لا يقيمون معارك جانبيّة تافهة من أجل أمور لا تُسمن ولا تغني من جوع ، إنّهم مشغولون بمصايرهم ، مشغولون بآخرتهم ، مشغولون بهموم أمّتهم ، مشغولون بآمال دينهم ، مشغولون بمآسي المسلمين في كل مكان ، و « من لا يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم . . » (١) .

فما لهم وللّغو ؟ وما لهم وللخصومات ؟ وما لهم وللمعارك التافهة ؟ إنّهم في شغل عن ذلك كلّه بما هو أعظم وأكبر ، ولهذا وُصفوا بأنّهم « إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراما » .

قد يُشتمون ، وقد يُسبّون ، وقد يُساءُ إليهم ، ولكنّهم متسامحون في حقّ أنفسهم .

لا يتسامحون في حقّ دينهم ، يغارون على حرمات الله أن تُنتهك ، يغضبون لله ولكتابه ولسنّة رسوله ، ولكن من عرض لهم في أنفسهم فهم يُعرضون عنه ، يقولون : « . . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » ، كما قال الشاعر الصالح (محمود الورّاق) :

سألزم نفسي الصّفح عن كلّ مذنب ... وإن كثرت منه عليّ الجرائم
فما الناس إلاّ واحد من ثلاثة ... شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاوم
فأمّا الذي فوقي فأعرف قدره ... واتبع فيه الحقّ والحقّ لازم
وأمّا الذي دوني فإن قال صنتُ عن ... إجابته عرضي وإن لامَ لائم
وأمّا الذي مثلي فإن زلّ أو هفا ... تفضّلت ، إنّ الفضل بالحلم حاكم

أي أنّه مع كلّ الناس : عفوٌّ ، صفوحٌ ، متخلّقٌ بأخلاق الله تبارك وتعالى .

هذا هو شأن عباد الرحمن ، لا يشغلون أنفسهم بالخوض في الباطل ، فإنّ أكثر النّاس خطايا ، أكثرهم خوضاً في الباطل كما قال ابن مسعود ﷺ .

---

(١) رواه الطبراني من رواية عبد الله بن أبي جعفر - هو مختلفٌ فيه - عن حذيفة بن اليمان ﷺ ، وتتمّته : « ومن لم يُصبح ويمسي ناصحاً لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولإمامه ، ولعامّة المسلمين ، فليس منهم » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥١٤ ، الحديث ٩٩٧) .

لا يتكلّمون فيما لا يعنيهم ، فـ « من حُسْن إسلام المرءِ تركُهُ مالا يعنيه » (١) ، يعمرون أوقاتهم بالخيرات وعمل الصالحات ، يعلمون أنّ كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ الصحائف وتملأ الميزان ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « . . . والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماء والأرض . . » (٢) .

كلمة واحدة يثقل بها الميزان يوم القيامة ، وترجح بها كفّة الحسنات على كفّة السيّئات ، فما أحوج الإنسان إلى أن يُثقل ميزانه حتى يكون من أهل العيشة الراضية في جنّة عالية وحتى لا يخفّ ميزانه ، فتصبح أمّه هاوية : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (٣) .

كان عطاء بن أبي رباح ، التابعيّ الفقيه الجليل ، يقول : إنّ من كان قبلكم - يريد الصحابة رضوان الله عليهم - كانوا يعدّون من اللّغو كلّ ما عدا كتاب الله وسنّة رسوله ، أو أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو ذكراً لله تعالى ، أو ما لا بدّ منه في معيشة الدنيا . وما عدا ذلك يعتبرونه من اللّغو ، لأنّهم كانوا يعلمون أنّ عليهم حافظين كراماً كاتبين ﴿ . . عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٤) . فكانوا يستحون أن تُنشر صحائفهم التي أَمْلَوهَا ، فلا يجدوا فيها إلاّ مالا ينفع (لا في الدين ولا في الدنيا) .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال : حديث غريب . ورواه أحمد ، والطبراني في كتبه الثلاثة ، عن الحسين بن علي ، وقال الهيثمي : ورجال أحمد والكبير ثقات . وصحّحه الشيخ شاكر في المسند (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٧٥١ برقم ١٧٤١) . وهو الحديث الثاني عشر من الأربعين النوويّة .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن أبى مالك الأشعري وأوّله : « الطهور شطر الإيمان » وآخره : « والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجّة لك أو عليك ، كلّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ١١٨ ، ٨٦٠) ، وهو الحديث الثالث والعشرون من الأربعين النوويّة .

(٣) القارعة : ١٠ ، ١١ . (٤) سورة ق : ١٧ ، ١٨ .

فيا أيّها الإخوة المسلمون :

حاولوا أن تتخلّقوا بأخلاق عباد الرحمن ، أن تكونوا إيجابيّين ، أن تُنزّهوا أنفسكم عمّا يفعله اللاّهون العابثون من النّاس ·

قولوا الحق ، واشهدوا بالحق ، ولا تحضروا مجالس الزّور أيًّا كان اسمها وعنوانها ، وإذا مررتم باللّغو - أيًّا كان مضمونه أو عنوانه - فمرّوا عليه مرّ الكرام ·

مرّ ابن مسعود ﷺ - بمجلس لهو فلم يقف عنده ، وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ ·· وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [١] ·

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقهنا في ديننا ، وأن يغفر لنا ويرحمنا ، إنّه هو الغفور الرحيم ·

أقول قولي هذا ، واستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم ·

* *

● الخطبة الثانية :

أمّا بد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

جاءتني أعداد من الرسائل ، تشكو من ظاهرة أعتقد أنّها ظاهرة مرضيّة ، ولا تليق بمجتمع مسلم ·

تشكو هذه الرسائل من قسوة بعض الأزواج على زوجاتهم ·

هذا الرجل الذي يُعامل امرأته في بيته كأنّها متاع من متاع البيت ، لا رأي لها ، ولا تُستشار في أمر ، لا يبشّ في وجهها ، لا ترى بسمةً على شفتيه ، لا تسمع منه كلمة طيّبة ·

والعجيب في هذه الرســائل ، أنّ بعضها تقول : إنّ زوجها رجل طيبّ ومتديّن ، حريص علـى دينه ، يُصلّي الصلـوات الخمس ، ويصلّي بعضها في المسجد ، ويقرأ القرآن ، ويدرس الحديث ، ويقرأ الكتب الدينيّة ، ولكنّه مع أهله

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية (٧٢) من سورة الفرقان ، نقلاً عن ابنْ أبى حاتم وغيره · أنظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٣٢٩) ط · الحلبي ·

خشن الطباع ، قاسى القلب ، فظّ غليظ ، وهذا فى الحقيقة ممّا يُعجب له أشدّ العجب .

إنّ المسلم قُدوته في ذلك رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ كان خير الناس لأهله ، كما قال : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (١) .

كان ألطف الناس معشراً ، وأرقّهم حاشية ، وألينهم جانباً مع أهله .

كان - رغم همومه الكثيرة : همّ الدعوة ، وهمّ الدولة - يقيم ديناً جديداً ، وينشىء أمة جديدة ، ويقيم دولة جديدة ، ويحارب في جبهات شتّى : جبهة الوثنيّين المشركين ، وجبهة اليهود الغادرين وجبهة النصارى المتربّصين ، وجبهة المجوس المغرورين ، وجبهة الطابور الخامس في الداخل (المنافقين) ، جبهات عديدة كان يواجهها النبى ﷺ ، ومع هذا لم يكن يشغله ذلك عن أمر بيته وأهله .

كان يصلّى حتى تتورّم قدماه ، كان يبكي حتى تبلّل دموعه لحيته ، ولكن لم يشغله حقّ ربّه عن حق أهله ، كما لم يشغله حق دعوته ورسالته وأمّته عن حقّ أهله وزوجاته . فكان يجد من قلبه الكبير ما يتسع لملاطفة هؤلاء الزوجات . وكان يمازحهنّ .. يطيبّ خواطرهنّ .. يسمع لهنّ الأحاديث كحديث أمّ زرع ، وهنّ اثنتا عشرة زوجة ، كل واحدة لها قصّة ، ويقول لعائشة في النّهاية : « كنتُ لك كأبى زرع لأمّ زرع ، إلاّ أنّه طلّقها وإنّي لا أطلّقك » (٢) .

وكان يشاورهنّ في كثير من الأمور ، ويسمع لرأيهنّ .

شاور أمّ سلمة في الحديبية وأخذ برأيها (٣) ، على حين يزعم بعض النّاس أنّ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس ، والحاكم إلاّ أنه قال : « خيركم خيركم للنساء » وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٣ - ٥٥٤ برقم ١١١٠) .

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه البخارى ، ومسلم ، والترمذى . وقوله : « إلا أنّه طلقها وإني لا أطلقك » هو من رواية (الزبير بن بكار) كما ذكر الحافظ في الفتح ، ومثله في رواية للطبراني ، وزاد النسائي في رواية له والطبراني : قالت عائشة : يا رسول الله بل أنت خير من أبى زرع(شرح السنة للبغوى بتحقيق الأرناؤوط:٩ /١٦٨-١٨٠ برقم ٢٣٤٠) .

(٣) وذلك حينما أشارت عليه أن يخرج إلى أصحابه فيتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يكلّمهم ، وقد فعل ذلك ، فكلّهم تحلّل كما تحلّل ، وقبل ذلك كان أمرهم بالتحلّل من إحرامهم فعزّ عليهم ذلك ولم يفعلوا .

هناك حديثاً يقول : « شاورهنّ وخالفوهنّ »(١) ، وهذا ليس بحديث ، وهو مخالف للقرآن الذي يقول : « فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ . . »(٢) .

المرأة ليست كمًّا مهملاً ، ليست حجراً في البيت ، إنّما هي إنسان ، إنسان يشارك إنساناً ، ولذلك جاء في الحديث : « آمروا النساء في بناتهنّ »(٣) أي : إذا أردت أن تزوّج ابنتك فخذ رأي أمّها ، لأنّها أعرف بها ، وأخبر بعواطفها ، وأدرى بما تخبّئه عنك من أسرارها ، وأقرب إليها ، فحاول أن تتعرّف على رأى الفتاة من أمّها .

المرأة ينبغى أن يُعرف حقّها ، لا ينبغي للمسلم أن يُهمل امرأته ، وأن يدخل ويخرج وكأنّه ليس أحد في البيت ، كما يفعل بعض النّاس للأسف ، لا يكاد يري امرأته ، لا يكاد يأكل معها ، يأتي متأخراً في الليل ، ويذهب مبكّراً في النهار ، وإذا جاء يأكل أو يشرب ثم يخرج ، هذه ليست الحياة الزوجية في الإسلام .

الحياة الزوجيّة سكون ومودّة ورحمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . ﴾(٤) ﴿ . . هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ . . ﴾(٥) .

أنظروا : « هنّ لباس لكم وأنت لباس لهنّ » بكلّ ما يُوحي به معنى اللباس من القرب والالتصاق والسّتر والدفء والزينة .

هكذا ينبغى أن تكون المرأة مع زوجها ،وهكذا ينبغى أن يكون الزوج مع امرأته .

هذا الذي نسمع عنه ليس من أخلاق الإسلام في شيء .

المرأة إنسان يجب أن يُرعى حقّه ، يجب أن تُؤنس المرأة وتُلاطف ، فالنبي ﷺ كان يمازح نساءه ، سابق عائشة مرتين : مرّة سبقته وهي صغيرة السّنّ ، خفيفة

---

(١) قال السخاوى : لم أره مرفوعاً . وانظر تعليقه في المقاصد الحسنة (رقم ٥٨٥) .

(٢) البقرة : ٢٣٣ .

(٣) رواه أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عمر رضي الله عنهما . وقال المنذري : فيه رجل مجهول . أنظر (الفتح الرباني مع شرحه بلوغ الأمانى : ١٦ / ١٦١) و (عون المعبود شرح سنن أبى داود : ٦ / ١١٩ برقم ٢٠٨١) .

(٤) الروم : ٢١ .　　(٥) البقرة : ١٨٧ .

البدن ، فلمّا سمنت بعد ذلك سابقها فسبقها ، فقال لها ممازحاً : « هذه بتلك »[1] أى : مّرة بمّرة (تعادل) ·

أنظروا إلى هذا القلب الكبير الذى لم تشغله هموم الدعوة والجهاد عن ملاطفة أهله ، هكذا ينبغى أن يكون المؤمن مع أهله ، ينبغي أن يكون لطيف المعشر ، وأن يكون إنساناً كريما ·

فيا أيّها الإخوة المسلمون ·· يا أيّها الأزواج الصالحون :

حاولوا أن تكونوا محّمديّين ·· قرآنيّين ، مع أهليكم وأزواجكم ·

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ·

اللهم فقّهنا في ديننا ، وعلّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علّمتنا ، وزدنا علما ·

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودُنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا ·

اللهم أكرمنا ولا تُهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ،وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وارض عنّا وأرضنا ·

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ·

اللّهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا ·

اللّهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين ، اللّهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة الذين كفروا هي السّفلى ·

اللّهمّ عليك بأعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا ، اللّهمّ إنّا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم رُدّ عنّا كيدهم ، وفُلّ حدّهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ·

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه (١٩٧٩) عن عائشة ، وقال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح على شرط البخاري ، كما رواه النسائي فى عشرة النساء رقم (٥٦) ص (٩٠) ·

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، اللهم آمين .

وصلّ اللهم على عبدك ونبيّك ورسولك محمدّ ، وعلى آله وصحبه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣).

وأقم الصلاة .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ (٢) الحشر : ١٠ .

(٣) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
١١ - التجاوب مع آيات الله

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش في رحاب القرآن ، في صحبة عباد الرحمن ، الذين ذكرهم الله تعالي في كتابه ، وأثنى عليهم ، وشرّفهم بالإضافة إلى ذاته المقدسّة .

ووقفنا في أوصاف عباد الرحمن عند قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (١) .

هذه صفة من صفات عباد الرحمن : التجارب مع آيات الله ، قلوبهم مفتوحة ، وعيونهم وآذانهم مع هذه الآيات ، لا يقعون عليها وقوع الصمّ ولا العميان ، ولكن لهم آذان صاغية ، وعيون راعية ، وقلوب واعية .

ولكن ما هي آيات الله ؟

آيات الله نوعان : آيات تكوينيّة ، وآيات تنزيليّة .

الآيات التكوينيّة : هي آيات الله في الكون ، آيات الله في الأنفس والآفاق ، آيات الله التي بثّها في كل مكان لترشد النّاس إليه ، وتدلّهم عليه ، كما قال القائل :

فيا عجبا كيف يُعصى الإله ... أو كيف يجحده الجاحد ؟
ولله في كــلّ تحــريكة ... وفي كلّ تسكيــنة شاهد
وفي كــلّ شيــء له آية ... تدلّ على أنّه الــواحد

آيات الله مبثوثة ، وعباد الرحمن وأهل الإيمان يتجاوبون معها ، كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٢) .

---

(١) الفرقان : ٧٣ . (٢) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

آيات الله الآفاقيّة والأنفسيّة ·· آيات الله في النّفس : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (١) ، وفي الآفاق ·· في السماء والأرض ﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) .

الذين ينظرون إلى هذه الآيات بأعين عُمي ، وقلوب غُلف ، وآذان صُمٌّ ، لا ينتفعون منها بشيء ، خُتم على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم صمٌّ بكمٌ عميٌ لا يرجعون ، ولا يعقلون ·

هذه آيات الله الكونيّة الآفاقيّة ·

وهناك آيات الله التنزيليّة ، التي أنزلها الله على رسله : آيات الوحي ، التي ختمها الله بالقرآن الكريم ، وتجلّى الله لعباده في كلماته ، التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ ، فهو يتعرف إلى عباده بهذه الكلمات من النّور ، أو بهذا النّور من الكلمات ·

أنزل اللهّ على عبده ورسوله محمد هذا القرآن ، ليدلّ النّاس عليه ، ليفتح قلوبهم به : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِىَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (٥) .

أنزل الله هذا القرآن العظيم ، فيه صفاته ، وأفعاله ، فيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، فيه صفات المؤمنين وصفات الكافرين والمنافقين ، فيه بيان مصاير هؤلاء وهؤلاء ، فيه ذكر الآخرة والجنّة والنّار ، فيه الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فيه الأمروالنّهي ، والحكم والأمثال والقصص والمواعظ ، وصدق الله العظيم حين يقول :﴿ ·· وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦) .

هذا القرآن آيات اللّه ، أعجز بها البشر أن يأتوا بمثلها ، أو أن يأتوا بعشر سور

---

(١) الذاريات : ٢١ ·
(٢) الذاريات : ٢٠ ·
(٣) الأعراف : ١٨٥ ·
(٤) يونس : ١٠١ ·
(٥) الزمر : ٢٣ ·
(٦) النحّل : ٨٩ ·

من مثل هذا القرآن أو أن يأتوا بسورة مثله ، ولكنّهم غلبوا ، وانقطعوا وحقّت عليهم كلمة الله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (١) .

كان القرآن هو الآية العظمى ، والمعجزة الكبرى لمحمدّ ﷺ ، كانت آيات الأنبياء من قبل آيات حسّيّة ، كونيّة ، ومن شأن الآيات الكونيّة والحسّيّة ، أن تنفذ وتنتهى بمجرّد وقوعها ، فلولا أنّ القرآن أخبرنا بأنّ موسى - عليه السلام - انقلبت العصا له حيّة ، وأنّ عيسى - عليه السلام - أبرأ الأكمه والأبرص ، ما عرفنا شيئاً عن ذلك ، فهي أصبحت معجزة تاريخيّة .

أمّا القرآن فهو معجزة باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنّه معجزة علميّة أدبيّة عقليّة ، ولهذا لمّا طلبوا من النبي ﷺ آية من الآيات الكونيّة ، قال لهم : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) ، القرآن آية كافية ، لكلّ من كان له عقل وكلّ من كان في صدره قلب : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٣) .

فهذا القرآن هو معجزة رسول الله الدائمة ، وآيته الباقية ، ضمّن الله كلماته الإعجاز ، فهو يدخل إلى العقول والقلوب بغير استئذان ، كتاب مُيَسَّرٌ للذكر ، يفهمه الخاصّ والعام ، كُلٌّ على قدر فهمه : ﴿ .. فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ (٤) ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٥) .

سمعه المشركون فتأثّروا به ، وقال قائلهم : والله إنّ لهذا الكلام لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاوة ، وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق ، وإنّه يعلو ولا يُعلى ، وإنّه ليس من كلام الجنّ ولا من كلام البشر .

سمعه الجنّ فأثر فيهم ، وقالوا : ﴿ .. إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٦) ، ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا

(١) الإسراء : ٨٨ . (٢) العنكبوت : ٥١ .

(٣) سورة ق : ٣٧ ، وأوّلها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ .. ﴾ .

(٤) الرعد : ١٧ . (٥) القمر : ١٧ .

(٦) الجنّ : ١ ، ٢ .

إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

سمعه جماعة من النّصارى فدمعت أعينهم ، وخشعت قلوبهم ، وآمنوا بالله ورسوله ، هم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ، وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

هذا هو القرآن ، يسمعه المؤمنون فتوجل القلوب ، وتدمع العيون ، وتخشع الأفئدة ، كما وصف الله المؤمنين الصادقين بقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣) .

المؤمنون يسمعون القرآن فيزداد إيمانهم ، والمنافقون والزائغون يسمعون القرآن فيزيدهم رجساً على رجسهم والعياذ بالله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٤) .

ولذلك كان بعض الصحابة يقول : ما من أحد يُجالس القرآن إلاّ وخرج بزيادة أو نقصان ، فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (٥) ، ﴿ .. قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٦) . لا يسمعون ولا يعقلون ، هذا شأن الناس مع القرآن .

فقس نفسك مِنْ أيّ النّاس أنت ؟ مِنْ أيّ الأصناف أنت مع القرآن ؟ هل يزداد

(١) الأحقاف : ٢٩ ، ٣٠ . (٢) المائدة : ٨٣ ، ٨٤ .
(٣) الأنفال : ٢ . (٤) التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٥) الإسراء : ٨٢ . (٦) فصّلت : ٤٤ .

إيمانك ؟ هل تزداد خشيتك؟ هل يتحرّك قلبك ؟ هل تدمع عينك ؟ أم أنّك تقرأ القرآن كما تقرأ كلام النّاس ، لا تتأثّر ولا تنفعل ؟

الله تعالى وصف أُناساً من أهل الكتاب بقوله : ﴿ . . إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١) .

كان ابن عباس يقول : إذا قرأتم سجدة (سبحان) (٢) ، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه !

إنّ على الإنسان المؤمن أن يكون مع القرآن متفتّح القلب ، متفتّح الأذن ، متفتّح العقل ، ولا يقرأه قراءة المنافقين ، أو يسمعه سماع المنافقين ، الذين قال الله في شأنهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا [لم يفهموا ولم يعقلوا] ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣) .

هناك المنافقون ، وهناك الكفّار المحجوبون : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا . . ﴾ (٤) .

على المؤمن أن يفتح قلبه للقرآن ، أن يهتك حجب الغفلة والشهوة والكبر عن قلبه ، فهذه الحجب هي التي تمنع الفهم للقرآن ، والتأثّر به .

الغفلة : أخطر ما يحجب القلب عن الرب ، كما قال تعالى : ﴿ . . وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٥) ، ﴿ . . أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٦) ، الغافلون عن الله . . عن الآخرة . . عن المصير . . عن رسالة الإنسان في هذه الحياة .

---

(١) الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) أي آية السجدة التي في سورة (الإسراء) ، وقد سميت سورة (الإسراء) سورة (سبحان) لأنّها افتتحت بهذه الكلمة .

(٣) محمد : ١٦ .
(٤) الإسراء : ٤٥ ، ٤٦ .

(٥) الكهف : ٢٨ .
(٦) الأعراف : ١٧٩ .

الشهـــوة : ﴿ فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (١) ، ذَكَر الله هذا الصنف بعد صنف آخر أثنى عليه ، بعد أن ذكر مَنْ ذكر من النبيـّين ، قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّين من ذُرِّيَّة آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيم وَإِسْرَائِيلَ وممَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ، إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِـــمْ آيَاتُ الرَّحمَـــنِ خَـــرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٢) .

الكبر : كما قال الله تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي [يصرفهم الله عن فهم آياته والتأثّر بها] الَّذينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . . ﴾ (٣) .

على المؤمن إذا أراد أن يقرأ القرآن أن يفتح عينه وأذنه وقلبه ، أن يرتّل القرآن ترتيلا ، أن يحاول التفهّم والتدبّر في هذا الكلام الإلهي ، فإنّ الله أودع فيه أسراره وحكمه .

القرآن نزل ليُتدبـر : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (٤) ، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٥) ، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنـــدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ (٦) ، فلا بدّ من التدبر .

تدبّر القرآن حتى تحاول أن تتأثّر به ، فبعد التدبر يكون التأثّر .

تجاوب مع كلام ربّك إليك ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ . . ﴾ (٧) ، لو عقل الجبل لتصدّع وخشع من هذا القرآن .

ولكن بعض القلوب أشدّ من الجبال والصخور والحجارة ، كما وصف الله قلوب بني إسرائيل : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . . ﴾ (٨) .

---

(١) مريم : ٥٩ .
(٢) مريم : ٥٨ .
(٣) الأعراف : ١٤٦ .
(٤) سورة ص : ٢٩ .
(٥) محمد : ٢٤ .
(٦) النساء : ٨٢ .
(٧) الحشر : ٢١ .
(٨) البقرة : ٧٤ .

حاول أن تتدبر القرآن وتتأثّر به ، قال محمــد إقبال رحمه الله : ما نفعتنى وصيّة كما نفعتني وصيّة لأمّي ، قالت لي وأنا صغير : يا بني اقرأ القرآن كأنّما عليك أُنزل .

وقال بعض السلف : كُنت لا أجد للقرآن حلاوة ، حتى منّ اللهُ عليّ ، فأصبحت أتلو القرآن كأنى أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه ، حتى رقّاني الله درجة ، فأصبحت أقرأه كأنّي أسمعه من جبريل يلقيه على رسول الله ﷺ ، ثمّ رقيت درجة أعلى وأرفع ، فصرت أقرأه كأنّى أسمعه من المتكلّم به عزّ وجلّ .

درجات بعضها فوق بعض .

حاول أن تقرأ القرآن قراءة من يشفع له القــرآن يوم القيــامة ، في الحديث : « اقرأوا القرآن ، فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » (١) .

بعض الناس يشفع لهم القرآن ، ويشهد لهم القرآن ، وبعض الناس يتلون القرآن والقرآن يلعنهم ، هكذا قال بعض السلف (٢) : (ربّ تال للقرآن والقرآن يلعنه) ، لأنّه يقرأ : ﴿ . . أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) وهــو مــن الظالمين . . ﴿ . . أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ (٤) وهو من أهل الكذب . . « كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وهو من الذين يقولون مالا يفعلون والعياذ باللهّ .

اقرأ القرآن قراءة المتدبّر . . المتأثّر . . الذي يقرأ للعمل لا لمجرّد المتعة .

كان ابن مسعود يقول : أُنزل القرآن عليهم ليعملــوا به ، فاتخذوا دراسته

---

(١) رواه مسلم عن أبى أمامة الباهليّ ، وتمامه ، « اقرأوا الزهراوين : البقرة ، وسورة آل عمران ، فإنّهما يأتيان يوم القيامة كأنّما غمامتان – أو غيايتان – أو كأنهما فرْقان من طير صوافّ تُحاجّان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإنّ أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البَطَلَة » [المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان : ٧٨٠ ، ٨٠٦] .

(٢) هو الصحابى الجليل : أنس بن مالك ، كما نقل عنه الغزالي في الإحياء (١ / ٢٧٤) ط . دار المعرفة – بيروت .

(٣) هود : ١٨ . (٤) النور : ٧ .

عملاً ، إنّ أحدكم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يُسقط منه حرفاً ، وقد أسقط العمل به [1] .

لا يكفي أن تقرأ القرآن ، ولا أن تحفظ القرآن ، وإنّما المهمّ : أن تعمل بالقرآن ، هكذا كان الصحابة ، وهكذا كان السلف ، كانوا يحفظون السورة لا يجاوزونها حتى يتقنوها علماً وعملا ، وتطبيقاً على أنفسهم . قال الحسن : كان من قبلكم يعتبرون القرآن رسائل من ربّهم إليهم ، يقرأونها باللّيل وينفّذونها بالنّهار .

ماذا تفعل حينما تأتيك رسالة من حبيب أو صديق ؟ إنّك تقرأها بعناية ، وتحاول أن تعرف كلّ ما فيها حرفاً حرفا ، وأن تنفّذ ما طلبه منك إن كان له أهمية عندك ، فماذا تفعل بما يطلب الله تعالى منك ؟ .

إنّنا في حاجة إلى أن نقرأ القرآن ، قراءة المؤمنين الواعين الخاشعين ، لا قراءة الغافلين ، ولا قراءة المستكبرين ، ولا قراءة الجاحدين ، ولا قراءة الذين في قلوبهم مرض .

إنّنا في حاجة إلى أن نسمع القرآن ، لنتخذ منه نبراساً لحياتنا ، لنغيّر به حياتنا كما غيرّ الصحابه به حياتهم .

أجَلْ ، ما الذي غيّر حياة الصحابة ؟ إنّه القرآن ، إنّه الذي أحدث ذلك الزلزال النفسيّ والاجتماعيّ فى الحياة العربيّة ، وغيّر الأنفس تغييراً كلّيا .

جاء أعرابى إلى النبيّ ﷺ وسأله أن يُقرئه القرآن ، فقرأ عليه بعض المُفصّل - أواخر القرآن - حتى وصل إلى سورة الزلزلة،وفي آخر السورة قوله تعالى:﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [2] ، فقال الرجل : حسبى يا رسول الله ، لا أبالي أن أسمع غيره [الآيتان وضعتا له القاعدة والقانون : إنّ الجزاء من جنس العمل ، وعلى قدر العمل ، ولو كان مثقال الذّرّة ، خيراً أو شرًّا] . فعجب الصحابة من رجل لا يريد أن يستزيد من القرآن ، فقال النبي ﷺ : « انصرف الرجل وهو فقيه » ما دام حسبه آية واحدة ، وفي قصّة مماثلة قال : « أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » [3] ما دام قد فهم هذا .

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (١ / ٢٧٥) ط . دار المعرفة - بيروت .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٣) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١ / ٢٨٧) : حديث =

كان الإمام الشافعي يقول : إنّ في القرآن سورة وجيزة ، لو عمل بها الناس لكفتهم ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

هل قرأنا القرآن - أيّها الإخوة - كما ينبغي ؟ هل استمعنا إليه كما ينبغي ؟ هل قمنا بحقّه كما ينبغي ؟

نحن نحمد الله أنّ القرآن أصبح يتلى في الليل وفي النّهار ، ولكن مَنْ منّا يسمع القرآن ليتدبّر ويعمل به ؟ مَنْ منّا يتأثر بالقرآن إذا سمعه ؟ يقول النبي ﷺ : « اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » (٢) ، إذا لم يحضرك البكاء فتكلّف البكاء .. تحزّن (٣) ، وإذا لم تجد البكاء فابك على نفسك أنّك لا تجد هذه العين الدامعة .

سأل عبد الله بن عروة بن الزبير جدّته أسماء بنت أبي بكر - ذات النطاقين - قال لها : يا جدّة كيف كان أصحاب النبى ﷺ إذا سمعوا القرآن أو قرأوه ؟ قالت : يا بنيّ كانوا كما نعتهم الله عزّ وجلّ ، تدمع الأعين ، وتقشعرّ الجلود ، وتخشع القلوب .

= « الرجل الذي جاء ليتعلم فانتهى إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فقال يكفيني هذا وانصرف ، فقال النبى ﷺ :انصرف الرجل وهو فقيه » أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن بان والحاكم وصحّحه من حديث عبد الله ابن عمرو ، قال : « أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أقرئني يا رسول الله ... الحديث » وفيه : « فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبدا ، ثمّ أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ : أفلح الرويجل أفلح الرويجل» .

(١) العصر : ١ - ٣ .

(٢) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١ / ٢٧٧) : أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيّد .

(٣) ووجه إحضار الحزن أن يتأمّل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثمّ يتأمّل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء فإنّ ذلك أعظم المصائب (من كلام الإمام الغزالي في الإحياء : ١ / ٢٧٧) .

هكذا كانوا ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الناس إذا سمعوا القرآن ، أمّا أن يُقرأ القرآن لمجرّد الطرب ·· لمجردّ إمتاع الأسماع ، فليس هذا هو المطلوب ·

أمّا أن يكون القرآن نسـمعه ونحن لاهون ، ونحن عنه غافلون ، لا نقرأه لنعمل ، ولا تقرأه لنحيي به أنفسنا ونحيي به مجتمعنا ، فما هذا من شأن القرآن ·

ليس هذا هو القرآن الذي أحـدث التغييـر والزلزلة في المجتمع الإنسانيّ الأوّل ·

ولهذا ليس عجبًا أن نجد إذاعات غـير المسلـمين - في بلاد الكفر - تذيع القرآن !

لا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة لندن ، ولا غرو أن تسمع القرآن من إذاعة إسرائيل ، لأنّهم مطمئنّون أنّ القرآن لم يعد يُحرّك فينا ساكناً أو ينبّه منّا غافلا ·

لو قرأنا القرآن وسمعناه كما كان الصحابة والسلف الأوّل ، لغيرّ ما بأنفسنا ·· لأحدث فينا تلك الثورة الروحية العظيمة ·· لجدّد إيماننا من جديد ·· لجعلنا خير أمّة أُخرجت للنّاس ·

نحن في حاجة إلى أن نحدّد موقفنا مع القرآن :

هل نحن متجاوبون مع كتاب الله ؟

إنّ اللهّ سيسألنا يوم القيامة عنه ، وسيكون شاهداً لنا أو علينا ، نخشى أن يقول القرآن : يا ربّ هؤلاء أهملوني ، حفظوا حروفي وضيّعوا حدودي ، نخشى أن يقول الرسول: ﴿ ·· يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ (١) ، لم يهجروا قراءته ، ولكن هجروا تطبيقه والعمل به ، كانوا يقرأونه على الأموات في المقابر ، ولا يحكّمونه في الأحياء في المحاكم ·

أصبح كتاب الله مهجورا ، وأصبح العمل به مضيّعا ، إنّ الله سائلنا عن هذا القرآن ·

عباد الرحمن هم أولئك المتجاوبون مع آيات القرآن ، مع آيات الله - هم قرآنيون يعيشون مع هذا القرآن ، يطبقونه على أنفسهم ، لهم في رسول الله ﷺ

(١) الفرقان : ٣٠ ·

أسوة حسنة ، فقد سُئلت عائشة ﵂ عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » [1] ، من فتح المصحف عرف أخلاق النبيّ ﷺ .. أنّه كان صورة تطبيقيّة ، كان مثالاً مجسّماً ، كان قرآنا حيًّا يسعى بين النّاس على قدمين ، كان مصحفًا مفسَّرًا ، لا يفسّر بمجرّد الكلام بل بالعمل .. بالسلوك .. بالتطبيق .. بالتعامل مع ربّه .. مع أهله .. مع أصحابه .. مع أعدائه .

ليكن كلّ مؤمن - يحاول أن يكون من عباد الرحمن - قبساً من هذا النّور المحّمدىّ ، ليكن له في رسول الله أسوة حسنة ، وليكن خلق كلّ منّا : القرآن .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يوفّقنا ويجعلنا من أهل القرآن ، ويجعل القرآن شفيعاً لنا يوم القيامة .

استغفروا الله يغفر لكم ، وادعوه يستجب لكم ، إنّه هو الغفورالرحيم .

* *

● الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة :

أرسلت إليّ إحدى الأخوات ورقة تقول : في إحدى الجمعات الماضية ، خرجت إحدى المصليّات ، وكانت تلبس لباساً غير كامل الاحتشام ، لا يتفق مع الأدب الإسلامي الذين فرضه الله تعالى على المرأة المسلمة .

وأنا أستغرب هذا في الحقيقة ، فالمسلمة التي تأتي إلى هذا المسجد ، ولا شكّ أنّها تريد وجه الله عزّ وجلّ وتريد أن تستمع وتنتفع ، ولعلها - غالباً - في فترة انتقال ، لعلّ هناك نوعاً من المسلمات يريد أن يُغيّر حياته ، فهو في بداية الطريق .

ولذلك نرجو من الأخوات المؤمنات الملتزمات ، ألاّ يُسارعن بالإنكار على هذا النّوع ، حتّى لا يهربن من مثل هذه المواقف ، دعوهنّ ، دعوا مثل هذه الأخت تحضر مرّة ثمّ مرّة ، حتّى يفتح الله قلبها ، ويشرح صدرها ، ويهديها إلى الّتي هي أقوم .

لا بدّ أن نأخذ النّاس بالتدريج ، لا بد أن نتعلم الحكمة والموعظة الحسنة،

---

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، عن عائشة ﵂ (فيض القدير : ٥ / ١٧٠ برقم ٦٨٣١) .

النّاس · جميعاً ليسوا في مرتبة واحدة ، إنّ الله وصف الأمّة المصطفاة التي تتلقّى القرآن بقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (١) ، درجات ومراتب يجب أن نراعيها ، فمن كان في أوّل الطريق فلنسامحه حتىّ يرقيه الله سبحانه وتعالى - بهداية منه - إلى مرتبة أعلى ، ثمّ مرتبة أعلى ·

هناك بعض المقصّرين والمقصّرات علينا أن نأخذهم بالرّفق ، و « إنّ الرفق لا يكون في شيىء إلاّ زانه ، ولا ولا يُنزع من شيىء إلاّ شانه » (٢) ، و « إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه » (٣) ، علينا أن نأخذهم بالرفق وننصحهم ، ليرتقوا من منزلة إلى ما هى أعلى منها ·

بعض النّاس (ظالم لنفسه) كما أشارت الآية ، أى أنّه يُقصّر في بعض الواجبات ، ويرتكب بعض المحرمات ، ولكنّه قد ينتقل إلى المرتبة الأعلى ، وهي مرتبة (المقتصد) ، وهو الذى يقف عند حدود أداء الواجبات وترك المحرّمات ، لا يزيد على الواجب شيئاً ، ولا يزيد على ترك المحرّم ·

ولكنّه قد يرتقي إلى مرتبة أعلى ، فيصبح (سابقاً بالخيرات بإذن الله) ، لا يكتفي بأداء الواجبات ، بل يفعل السنن ، ويفعل المستحبات ، ولا يكتفي بالوقوف عند ترك المحرّمات ، بل يترك المشتبهات ، ويترك المكروهات ، بل يترك بعض الحلال حذرًا من الوقوع في الحرام ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع مالا بأس به حذراً ممّا به بأس » (٤) .

إنّها مراتب ودرجات ، فلا تُطالبوا النّاس أن يكونوا كلّهم في درجة واحدة ،

---

(١) فاطر : ٣٢ ·

(٢) رواه مسلم عن عائشة ﵂ (شرح السنة للبغوى : ١٣ / ٧٥ الحديث ٣٤٩٣) ·

(٣) أخرجه البخارى ، ومسلم ، عن عائشة ﵂ (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٣ / ٧٣) ·

(٤) رواه الترمذي وقال : حسن غريب ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم ، عن عطية بن عروة السعدي ، ورمز له السيوطي بالصحة (فيض القدير :٦ / ٤٤٣ برقم ٩٩٤٢) ·

ولا تطالبوا المبتدىء بما يُطالب به المتوسط ، ولا تُطالبوا المتوسّط بما يُطالب به المنتهي ، ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

نسأل الله أن يتوب علينا جميعا ، وأن يُصلح فساد قلوبنا ، وأن يُغيننا على أنفسنا وعلى الشيطان .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، . اللهم اغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمنّ سواك ، اللهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين ، اللهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة الذين كفروا هي السّفلى ، اللهمّ انصر إخواننا المجاهدين في كلّ مكان ، اللهمّ واخذل أعداء الإسلام فى كلّ مكان ، اللهمّ أدلْ دُولهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلا على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

وصلّوا على نبيكم ﷺ ، فإنّ الله يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٤) .

وأقم الصلاة .

* * *

---

(١) الأحقاف : ١٩ .   (٢) آل عمران : ١٤٧ .

(٣) الحشر : ١٠ .   (٤) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
١٢ - سؤال الله صلاح الأزواج والذّريّة والإمامة في الخير

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا فى رحاب القرآن ، نعيش في صحبة عباد الرحمن ، هؤلاء الذين أكرمهم الله تعالى فذكرهم في كتابه ، وعدّد أوصافهم ، وبيّن أحوالهم في نهارهم وليلهم ، مع أنفسهم ومع ربهم ومع النّاس ، مع النّاحية الإيجابية ، ومع النّاحية السلبيّة ، مع الأوامر والنّواهي ، فكانت لهم تلك الأوصاف الطيّبة ، التي ذكرها الله تعالى في خواتيم سورة الفرقان .

وبقي من أوصاف عباد الرحمن وصف واحد ، هو قول الله تبارك وتـعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١) .

ما معنى هذا الوصف ؟

إنّهم يدعون الله تبارك وتعالى ، ويتضرّعون إليه ، ويبتهلـون إلى وجهه الكريم ، يسألونه أن يهب لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقرّ به أعينهم ، وتسرّ به قلوبهم ، وتنشرح له صدورهم ، وأن يجعلهم أئمّة وقدوة للمتقين .

الدعاء يدلّ على وجهة الإنسان ، من كانت وجهته الدنيا انحصر دعاؤه وطلبه في الدنيا ، ومن كانت وجهته الآخرة فهمّه في الآخرة .

ذكر الله لنا مواقف بعض النّاس في موسم الحج ، فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ [ليس له فِى الآخرة من

---

(١) الفرقان : ٧٤ .

حظّ ولا نصيب] ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) ، الأوّلون مذمومون ، وهؤلاء ممدوحون ، محمودون ، لأنّهم جمعوا بين الحسنتين : حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

ومن أراد أن يعرف طموحات المؤمنين وآمالهم ، ومتعلّقات قلوبهم ، وإلى أين تتجه أمانيهّم ، فليتأمّل أدعيتهم في القرآن نجد هذه الأدعية تمثّل ما يطمحون إليه .. ما يحرصون عليه .. ما يضعونه نصب أعينهم .

فنجد الراسخين في العلم - كما ذكرهم الله في سورة آل عمران يقولون : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٢) .

نجد أولى الألباب - في خواتيم سورة آل عمران - يقولون : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣) .

نجد الفتية المؤمنين من أهل الكهف يقولون - حينما أووا إلى كهفهم : ﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٤) .

نجد إبراهيم الخليل يتجه إلى ربه ويقول : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٥) .

هكذا نجد آمال المؤمنين في أدعيتهم .

الإنسان يدعو بما هو مشغول به ، بما يهمّه أمره ، ولذلك لو تأمّلنا أدعية النّبىّ ﷺ ، واستعاذاته - ممّا استعاذ الله تعالى منه - نعرف فيم يفكّر ، وإلام كان يطمح ، وعلام كان يحرص .

لقد كان من دُعائه ﷺ : « اللّهمّ أصلحْ لي ديني الذي هو عصمة أمرى ،

(١) البقرة : ٢٠٠ . (٢) آل عمران : ٨ .
(٣) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٤) الكهف : ١٠ . (٥) إبراهيم : ٤٠ ، ٤١ .

وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، وأجعل الحياة زيادة لي في كلّ خير ، واجعل الموت راحة لي من كلّ شر » [1] .

كان يدعو بأدعية جامعة ، وكان يستـعيذ بالله من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق ، كان يستعيذ بالله من جهد البلاء ، ودَرْك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، كان يستعيذ بالله من الهمّ والحزن ، ومن العجز والكسل ، ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدَّين وقهر الرجال .

فمن هذا وذاك نعرف : كيف يفكّر المسلم ؟ وفيم يطمح ؟ وإلام يقصد ؟

وهذا هو شأن دعاء عباد الرحمن هنا ، فقد عرفنا منه : فيم يفكّرون ؟ وإلام يرنون ؟ وبماذا يدعون ؟

لقد سجّل القرآن من أوصافهم قبل ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [2] فدلّ هذا الدعاء على اهتمامهم بأمر آخرتهم ونجاتهم من عذاب الله .

وفي هذا الدعاء اهتمّوا بأمر حياتهم ، ولكنّهم لم يهتمّوا بشهواتهم أو متعهم في هذه الدنيا ، إنّما اهتموا بأمر أعظم وأغلى وأبقى .

إنّ أهم ما دعوا الله سبحانه وتعالى به ، وما حرص القرآن أن يسجّله في أوصافهم ، أنّهم : ﴿ .. يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [3] أى : أنهم ليسوا مشغولين بأنفسهم وحدها ، إنهم حريصون على أن يمتدّ الخير والهدى فيمن حولهم ، وأقـرب الناس إليهـم : أزواجهم وذرّيّاتهم . فهـم « .. يقولون ربنا هـب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرة أعين .. » .

يدعون الله أن يجعل لهم من أزواجهم : من نسائهم ، ومن ذرياتهم : من أبنائهم وبناتهم وأحفادهم ، ما تقرّ به أعينهم ، وإنّما تقرّ أعينهم بهم إذا وُفّقوا إلى طاعة الله وابتعدوا عن معصية الله ، إذا ساروا في طريق الخير .

إنّما تقرّ عين الإنسان المؤمن بامرأة صالحة تسرّه إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ،

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة ﷺ (فيض القدير : ٢ / ١٣٧ برقم ١٥١٤) .
(٢) الفرقان : ٦٥ .   (٣) الفرقان : ٧٤ .

وتحفظه إذا غاب ، وتعينه على طاعة الله ، تحرّضه على الإيمان بالله ٠٠ على تقوى الله ، تحذرّه من المعصية ، ولا تقول له : ألست كفلان وفلان الذين جمعوا الألوف والملايين ؟ ما أخيبك من رجل ! تعيّره بالفقر فيركب مركب السـوء فيهلك والعياذ بالله ٠

كانت المرأة من نساء السلف الصالح تقول لزوجها - إذا خرج إلى الكسب يضرب في الأرض ويبتغى من فضل الله - يا أبا فلان ، إيّاك وكسب الحرام ، فإنّا نصبر على الجوع والطوى ، ولا نصبر على حرّ النّار وغضب الجبار ٠

هذه الكلمة من امرأة صالحة تجعل الرجل يتوقف مائة مرة ومرة حينما تراوده نفسه الأمّارة بالسوء ، أن يخوض في الحرام ، ويرتكب الموبقات ، ويقبل الرشوة ، أو يأكل أموال الناس بالباطل ، أو يحتكر أقوات الناس ، أو يُغلي على الناس أسعارهم ، إلى آخر ما يفعله الناس ليكسبوا من أىّ طريق ٠

ما أحوج المؤمن إلى امرأة تقول له : قف عند حدّ الله ٠٠ تحرّ الحلال ٠٠ اجتنب الحرام ٠٠ بل اتق الشبهات : « ٠٠ فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ٠٠ » (١) « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٢) ٠

المرأة التي تقرّ بها أعين عباد الرحـمن هي المرأة الصالحة ، لتي قال عنها ﷺ : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » (٣) ، ليـس مجرّد المرأة الجميلة ، أو المرأة الغنيّة ، أو المرأة الحسيبة النّسيبة ، قد يكون هذا ممّا يتزوّج من

---

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير الذي رواه البخاري ، ومسـلم ، والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وهو من أحاديث الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٠٦ برقم ٩٦٦) ٠

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه أحمد وصحّح شاكر إسناده ، ورواه النّسائى ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه الحاكم بزيادة وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، ورواه في موضع آخر وقال الذهبي : سنده قوي ، وهو من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ورواه الطبراني بنحوه من حديث واثلة بن الأسقع ، وهذا الحديث هو الحادي عشر من الأربعين النووية (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ٩٧١ ، ١٧٧٣) ٠

(٣) رواه مسلم ، والنسائي ، وابن ماجه بلفظ قريب ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٠ ، الحديث ١٠٩٧) ٠

أجله الناس ، ولكن أهمّ من ذلك كلّه : المرأة المتدينة ، التى تخاف الله ، وتريد لزوجها أن يعيش في دائرة الحلال ، ولأولادها أن يتربّوا في عيشة من حلال ·

هذه هي المرأة الصالحة ، إنها كنز عظيم يحرص النّاس عليه ·

جاء في الحديث : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عزّ وجلّ خيراً له من زوجة صالحة ، إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرّته ، وإن أقسم عليها أبرّته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله » (1) ثمّ تلا : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ · · ﴾ (2) فهي عابدة لله قانتة ترعَى حقّ الله ، وهي تحفظ غيب زوجها : تحفظه في نفسه ، وتحفظه في عرضه ، وتحفظه في أسراره ، وتحفظه في ماله ، وتحفظه في ولده ، كما جاء في الحديث : « خير نساء ركبن الإبل [أى من نساء العرب] صالح نساء قريش : أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده » (3) أى تحرص على ماله ، ومن حرصها عليه ألاّ يكسب هذا المال إلاّ من حلال ، ولا ينمّي إلاّ بطريق حلال ·

هذه الزوجة هي قرّة العين لزوجها ، وهى عنصر أساسي من عناصر السعادة في الحياة ، كما قال ﷺ : « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح » (4) · وعنه ﷺ : « أربع من أعطيهنّ فقد أُعطي خير الدنيا والآخرة : قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكرا ، وبدناً على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغيه حُوباً فى نفسها وماله » (5).

---

(1) رواه ابن ماجه عن أبي أمامة ، ورمز له السيوطي بعلامة الحسن ، الجامع الصغير : 2 / 142) قال المناوي : وليس كما قال فقد ضعّفه المنذري بعليٍّ بن زيد ، وقال ابن حجر في فتاويه : سنده ضعيف لكن له شاهد يدل على إنّ له أصلاً (فيض القدير : 5 / 419) ·

(2) النساء : 34 ·

(3) رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، عن أبي هريرة ﷺ ، قال المناوي في الفيض : وسببه أنّ النبى ﷺ خطب امه هانىء فاتـذرت بكبر سنّها وأنّها أمّ عيال فرفقت بالنبى ﷺ أن لا يتأذي بمسنّة ولا بمخالطة أولادها فذكره (فيض القدير : 3 / 492 برقم 4090) ·

(4) جزء من حديث سعد بن أبي وقاص ، قال المنذري : رواه أحمد بإسناد صحيح ، والطبراني والبزّار ، والحاكم وصحّحه ، وابن حبان ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح · أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : 2 / 550 برقم 1099) ·

(5) قال المنذري : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وإسناد أحدهما جيّد ، وقال الهيثمي : رجال الأوسط رجال الصحيح (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : 2 / 550 برقم 1098) والحوب هو الإثم ·

هذا من خير الدنيا والآخرة ، هذا خير ما يكنز الإنسان : المرأة التى تعينه على دينه وتكون عوناً معه على الشيطان ، ولا تكون مع الشيطان عليه فيصبح معه شيطانان : شيطان من داخل نفسه ، وشيطان من داخل بيته .

كانت المرأة من نساء السّلف الصـــالح تحّرض زوجها على الجهاد .. على البذل ، ليخرج في سبيل الله ، ليساهم في بناء الحضارة الإسلامية ، وإقامة دولة الإسلام ، وإعلاء كلمة الله في الأرض ،ومقاومة الطواغيت الذين يتربصون السوء بالأمّة الإسلامّية .

كانت تحّرضه على الجهاد ، فإذا جاء المثبّطون يقولون لها : كيف تركك هذا الرجل ؟ ومن أين تأكلين ؟ وكيف تُرزقين لله فتقول لهم - في إيمان الواثقة وثقة المؤمنة - : إنّ أبا فلان - تعنى زوجها - منذ تزوّجته عرفته أكّالاً وما عرفته رزّاقا ، فلئن ذهب الأكّال لقد بقي الرّزّاق !

هذه هي المرأة التى تكون قرّة عين ، أمّا المرأة الأخرى فهي من فواقر الدهر ، كما جاء في الحـــديث : « ثلاثة مـــن الفـــواقر [أى من المصائب التى تكسر فِقار الظهر] : إمام إن أحسنت لم يشكر ، وإن أسأت لم يغفر ، وجار سَوْء إن رأى خيراً دفنه وإن رأى شرًّا أذاعه [الخير يُغطّى عليه والشرّ يذيعــه فــي كلّ مكان كأنّه ميكرفون ، لا يصبر على جاره ولا يراعي حقّه] ، وامرأة إن حَضَرْتَ آذَتْكَ ، وإن غِبْتَ عنها خَانَتْكَ » (١) . والعياذ بالله .

وكما جاء فى الحديث الآخر : « المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » (٢) .

فهذه مصادر النكد في حياة الناس ، في الداخل والخارج .

---

(١) من حديث فضالة بن عبيد ﷺ ، قال ، قال المنذري : رواه الطبراني بإسناد لا بأس به ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه محمد بن عصام بن يزيد ، ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله وثقوا (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٩٠ - ٦٩١ برقم ١٥٢٩) .

(٢) هو جزء من حديث سعد بن أبى وقّاص السابق ، أنظر تخريجه ص : ١٦٩ .

﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴾ [(١)] :

ومن أراد قرّة العين فعليه - من أوّل الأمر - أن يختار ذات الدين ، التى تقرّ عينه ، وتشرح صدره ، وتعينه فى أمــــر دينه ، كما جـــاء في الحديث الصحيح : « تُنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » [(٢)] .

أهمّ هذه الأربع التي يحرص النّاس عليها : ذات الدين « فاظفر بذات الدين » لتكون عوناً لك ، لتكون معك في معركة الحياة ولا تدعك أبداً .

﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴾ :

وكما يدعو الرجال بهذا ، تدعو النّساء أيضاً . تدعو المرأة أن يهب الله لها زوجاً صالحاً ، يأمرها بإقامة الصلاة والزكاة - كما كان يفعل إسماعيل عليه السلام ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [(٣)] - يدعوها إلى الخير ، ويحذّرها من الشرّ ، وليس ككثير من أزواج هذه الأيّام ، الذين لا يهمّهم صلاة نسائهم ولا صيامهنّ ، ولا يسألون : أقمن حدود الله أم ضيّعنها ؟ بل هناك من الأزواج من ضاع في طريق الشيطان ، ويريد أن يضيع أهله معه .

ما أكثر ما تأتيني الرسائل ، وما أكثر ما تأتيني المكالمات ، تشكو من صنف من النّاس .. من رجل يحرّض زرجته على المعصية ، يأمرها أن تقدّم له الطعام فى نهار رمضان ، بل تقدّم له الخمر في نهار رمضان .

ما أكثر الأزواج الذين تشكو منهم زوجاتهم ، يشكين من أفعالهم... من تركهم الصلوات ، واتباعهم الشهوات ، وارتكابهم الموبقات .

فممّا تدعو به أَمَةُ الرحمن - أيضاً : أن يهب الله لها زوجاً يقرّ عينها ، يعينها على الطاعة . فإنّ من أعظم الآفات : أن تُبتلى المرأة المؤمنة بزوج لا يخشى الله ، لا ينحنى ظهره لله راكعاً ، لا يقيم فرائض الله ، ولا يعظّم شعائر الله .

(١) الفرقان : ٧٤ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنّسائي ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة رضي الله عنه ، وقوله « تربت يداك » : كلمة معناها الحث والتحريض ، وقيل : هي هنا دعاء له بكثرة المال ، أي : اظفر بذات الدين ، ولا تلتفت إلى المال ، أكثر الله مالك (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٢ - ٥٥٣ ، الحديث ١١٠٦) .

(٣) مريم : ٥٥ .

ما أكثر ما نرى هذا في حياتنا !

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ . . ﴾ :

يدعون الله بصلاح الأزواج ، وصلاح الذرّيّة .

إذا كان الإنسان يريد الخير ، فأقرب من يرجو له الخير : زوجته ، وذرّيّته : أبناؤه . . بناته . . أحفاده ، يرجو لهم الهداية والخير .

سئل الحسن عن (قرّة الأعين) في هذه الآية : أهي في الدنيا أم في الآخرة ؟ فقال : لا والله ، بل في الدنيا ، وقال عكرمة في تفسير قرة الأعين : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين لله .

إنّ المؤمن لا تقرّ عينه بمجرّد أن يكبر أولاده ، ولا بمجرّد أن يكسبوا الأموال . . أن يصبحوا من الأثرياء . . أن يكون في أرصدتهم الملايين ، ثمّ يكون مصيرهم إلى النّار وبئس القرار .

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ . . ﴾ (١) ، على كلّ مؤمن أن يقي أهله النار كما يقي نفسه .

قوا زوجاتكم ، قوا أبناءكم وبناتكم ، احموهم من النار ، أبعدوهم عن طريق النّار .

أتطمئن يوماً أو يثلج صدرك ، إذا رأيت ولدك وفِلْذة كبدك في النّار ؟ .

هبه أصبح من أصحاب الملايين أو البلايين ، أو من الكبراء والسلاطين : ما قيمة هذا إذا انتهى مآله إلى جهنّم والعياذ بالله ؟ .

« كلّكم راع ومسؤول عن رعيّته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيّته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيّته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها ، والخادم راع في مال سيّده ومسؤول عن رعيّته ، وكلّكم راعٍ ومسؤول عن رعيّته » (٢) .

---

(١) التحريم : ٦ . وتتمّتها : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، عن ابن عمر ﷺ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٣ ، الحديث ١١٠٨) .

الكل راع ، عليه أن يرعى أمانة الله فيما استرعاه ، و « إنّ الله سائل كلّ راع عمّا استرعاه ، حفظ أم ضيّع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » (١) .

وأقرب ما يُسأل الإنسان عنه: أهله ·· أولاده ·· زوجته ·· ابنه ·· ابنته · هؤلاء ماذا صنعت معهم ؟ هل وقيتهم النّار ؟ هل علّمتهم الخير؟ هل دعوتهم إليه ؟ هل حذّرتهم من الشر ، وبصّرتهم بعواقبه وآفاته ؟

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢) .

﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴾ :

وممّا يجعلهم قرّة عين : أن يكونوا بررة ، يعرفون حقّ آبائهم وأمّهاتهم ، كما يعرفون حقّ الله تبارك وتعالى · فإنّ من مكدّرات الحياة أن يجد الإنسان ابناً عاقًّا ، يتعب فى تربيته ، ويكدح في السعي عليه ، حتى يصبح شاباً قوياً مفتول الذراعين ، فإذا هو بعد ذلك يتنكّر لأهله ·· يتنكر لأبيه وأمّه ، وقد يتطاول عليهما بالقول أو الفعل ، مع أنّ الله تعالي يقول : ﴿ .. فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً ﴾ (٣) .

طالما شكا النّاس قديماً وحديثاً من عقوق الأولاد الذين لا يعترفون بالجميل لأهله ، وكثيراً ما يفعل الولد هذا طاعة امرأته ، أو طاعة لشيطانه ، أو طاعة لهواه ، وهذا من أسباب البلاء ، كما جاء في حديث الترمذى : « إذا فعلت أمّتى خمس عشرة خصلة حلّ بها البلاء – وذكر منها : وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمّه ، وبرّ صديقه ، وجفا أباه » (٤) .

---

(١) رواه النسائى ، وابن حبان ، عن أنس ﷺ ، قال الأستاذ القرضاوى : وعزاه في الجامع الصغير إلى النسائي أيضاً ويبدو أنه في « الكبرى » إذا لم أجده في مظانه في « الصغرى » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٦٢ برقم ١١٤١) ، وقال المناوى : ورواه عن أنس أيضاً البيهقى في الشعب وفيه معاذ بن هشام حديثه في الستة لكن أورده الذهبى فى الضعفاء وقال : قال ابن معين : صدوقاً وليس بحجة ، وقال غيره : له غرائب وتفرّدات (فيض القدير : ٢ / ٢٣٧ – ٢٣٨ برقم ١٧٤٥) ·

(٢) طه : ١٣٢ · (٣) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ ·

(٤) رواه الترمذي بسند ضعيف عن علي ﷺ · أنظره كاملاً في ص : ١٠٠ ·

ليس هذا من شأن الإنسان المؤمن .

شكا أحد الشعراء قديماً ابناً عاقًّا له فقال :

غذوتك مولوداً وعُلتـك يافعاً ... تعلّ بما أُسـدي إليك وتنهل
إذا ليلةٌ نابتك بالشـجو لم أبت ... لشكواك إلاّ سـاهراً أتململ
كأنّي أنا المطـروق دونك بالذي ... طُرقـت به دوني فعينى تَهْمِل
فلّما بلغـت السّنّ والغاية التي ... إليها مـدى ما كنتُ فيك أُؤَمّل
جعلت جزائي غلظـةً وفظاظةً ... كأنّك أنت المنعـمُ المتفضّلُ !

هذا لا يكون قرّة عين أبداً ، إنّما يكون نكداً وغصّة في حلق أبيه .

نكران الجميل شيىء يؤذي النفس ، ويجرح القلب ، ولا سيما إذا جاء من أقرب النّاس إليك ، إذا طُعنت من أحبّ النّاس إليك ، وأعزّهم عليك : من ابنك ، من بنتك ، من زوجتك ، من أقاربك .

ولهذا سأل عباد الرحمن ربّهم أن يجعل لهم من أزواجهم وذريّاتهم قرّة أعين ، ويؤدّون حقّ الله ، ويؤدّون حقّ الأبوين : ﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

هم- أيضاً - أرادوا أن يمتد الخير في الناس ، وأن يكون لهم مكان في عالم الخير والهدى ، وأن يكونوا أئمّة للمتقين ، وهذا طموح لا غبار عليه ، لأنّه ليس طموحاً يتعّق بالدنيا ، ولا يتعلّق بالدرهم والدينار ، ولا بالمناصب ، وإنّما يريدون أن يكونوا قدوة لأهل الخير ، يقتدي بهم النّاس ، ولا حرج من أن يسأل المؤمن ربه أن يكون إماماً في الخير .

والإمامة نوعان : إمامة في الخير ، وإمامة في الشرّ .

والأئمة نوعان : أئمّة يدعون إلى الجنّة ، وأئمّة يدعون إلى النّار والعياذ بالله .

وصف الله أئمّة الخير بقوله فى بعض رسله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (١) .

(١) الأنبياء : ٧٣ .

وقال في جماعة آخرين : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) . فمن أراد الإمامة فعليه أمران : الصبر ، واليقين ، الصبر في مقاومة الشهوات ، واليقين في مقاومة الشبهات ، وبذلك يستقيم فكره ، ويستقيم سلوكه .

هذا شأن أئمّة الخير .

أمّا أئمّة الشر فمثل : فرعون وهامان وقارون ، ومن على شاكلتهم ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ (٢) .

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾: ولكن أيّ إمامة هذه؟ إنّهاإمامة في الشرّ .. فى الطغيان .

﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ : ما أكثر الأئمّة الذين يدعون إلى النّار اليوم ، يدعون بأقلامهم ، يدعون بألسنتهم ، يدعون بأفكارهم ، يدعون بكتبهم .. بصحفهم .. بأقلامهم ومسلسلاتهم .. أئمّة يدعون إلى النّار من أجابهم إلى دعوتهم قذفوه فيها ، كما جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه : « .. دعاة على أبواب جهنّم ، من أجابهم إليها ، قذفوه فيها » (٣) .

احرص – أخي المسلم – على أن تكون من عباد الرحمن ، الذين يتطلّعون إلى هذه المقامات العُلى : ﴿ .. رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ .

اللهم اجعلنا من هؤلاء ، اللهم اجعل لنا حظًّا من هذه الإمامة ، يا ربّ العالمين .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

---

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) القصص : ٤١ .

(٣) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ... » الحديث ، رواه البخاري في الفتن ، ومسلم في الإمارة (شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط : ١٥ / ١٤ – ١٥ برقم ٤٢٢٢) .

● الخطبة الثانية :

أمّا بعد :

أحبّ أن ألفت أنظار الإخوة المصلّين إلى أنّ الظهر قد بكّر الآن ، فعلينا أن نبدأ مبكّرين ، ولا يتخلّف المصلّي حتى يُؤذّن الظهر ويصعد الخطيب على المنبر ، فإنّه بهذا يُحرم أجراً كثيرا .

وقد جاء في الحديث الصحيح : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأوّل فالأوّل ، ومثل المُهَجِّر كمثل الذي يُهدي بَدَنَةً ، ثمّ كالذي يُهدي بقرة ، ثمّ كبشاً ، ثم دجاجة ، ثمّ بيضة ، فإذا خرج الإمام طَوَوْا صحفهم يستمعون الذكر »[(1)] .

معنى هذا : أنّ (سجلّ الدوام) قد طُوي ، ومن أتي بعد ذلك يُعتبر كأنّه أتى متأخّراً عن الموعد ، فيوجه إليه بعض اللّوم ، أو على الأقل يحرم حين ذلك من أجر التكبير .

فأرجو من الإخوة أن يراعوا هذا إن شاء الله .

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات ، إنّك سميعٌ قريبٌ مجيب الدعوات .

اللهم أكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وارض عنّا وأرضنا .

﴿ .. رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[(2)] .

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ ﴾[(3)] .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾[(4)] .

---

(1) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة ﷺ ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه ، و « المُهَجِّر » : هو المُبكِّر الآتي في أول ساعة ، وانظر تعليق الشيخ القرضاوى علي الحديث في كتابه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى : ١ / ٢٤٥ - ٢٤٦ برقم ٣٧٤) .

(2) البقرة : ٢٠١ . (3) آل عمران : ٨ . (4) آل عمران : ١٤٧ .

﴿ . . رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وصلّوا على نبيّكم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأقم الصلاة .

* * *

---

(١) الفرقان : ٧٤ .

(٢) النحل : ٩٠ .

(٣) الأحزاب : ٥٦ .

١٣ - حقوق الإِنسان في الإِسلام

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

خلال الأسبوع المنصرم احتفلت الأمم المتحدة واحتفل العالم معها ، باليوم العالمي لحقوق الإنسان ، وذلك بمناسبة مرور أربعين عاماً على إعلان (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان) .

المسلمون أولى الناس بحقوق الإنسان :

ونحن المسلمين أوّل من يحتفل بحقوق الإنسان ويهتمّ بها ، فالإسلام - قبل أن يعلن الغرب مواثيقه عن حقوق الإنسان ، سواء من الأمم المتحدة أم من غيرها من الهيئات والثورات - قد قرّر للإنسان حقوقة منذ أربعة عشر قرناً أو تزيد .

الإسلام يوازن بين الحقوق والواجبات :

لم يكن الناس يعرفون أنّ لهم حقوقاً قبل الإسلام ، كلّ ما يعرفونه : أنّ عليهم واجبات ، ولا يدرون أنّ لهم حقوقا ، فجاء الإسلام وقرّر أنّ للإنسان حقوقا تُرعى ، كما أنّ عليه واجبات تُؤدّى ، فكلّ واجب يقابله حقّ ، كما أنّ كلّ حقّ يقابله واجب .

ولهذا قامت التكاليف في الإسلام على هذين الأمرين : الواجبات والحقوق ، وهذا ما يخالف فيه الإسلام فلسفة الغرب الآن .

فالغرب ينادي دائماً بالحقوق ولا يهتمّ كثيراً بالواجبات ، حقوق الإنسان .. حقوق الأطفال .. حقوق العمّال .. حقوق المرأة ، حقوق حقوق ، وكأنّ الإنسان مُطَالِبٌ فقط بما له ، وليس مُطَالَباً بما عليه .

إذا أديت الواجبات فقد رعيت الحقوق :

الإنسان في الشريعة الإسلاميّة مخلوق مُكَلَّفٌ مُطَالَبٌ مسؤول ، أكثر ممّا هو مُطَالِب سائل ، الإنسان في الغرب أبداً يقول : ماذا لي ؟ أمّا في الإسلام فإنّه يجب أن يقول : ماذا عليّ ؟

وإنّما تُرعى الحقوق حقا ، يوم تُؤدّى الواجبات ، فحقّ كل إنسان هو واجب

على غيره : حقّ الولد في الرعاية المادية والمعنوية والتربية الحسنة هو واجب على أبويه ، وحقّ الأب في البرّ والإكرام والرعاية عند العجز أو الشيخوخة هو واجب على أولاده ، وحقّ الفقير في كفايته من العيش هو واجب على الغني ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحرومِ ﴾ (١) .

وحقّ المحكوم في العدل وتكافؤ الفرص واجب على الحاكم .. وهكذا .

هذه الحقوق إنّما تُرعى حينما تُؤدى الواجبات ، فهذه فلسفة الإسلام الذي يمزج بين الواجب والحقّ ، بل يؤكّد كلّ التأكيد ، ويركّز كلّ التركيز على أداء الواجب ، فإنّما تضيع الحقوق حينما تضيع الواجبات .

تقرير الحقوق لأهلها دون مطالبة منهم :

جاء الإسلام وقرّر أنّ للنّاس حقوقا ، ولكلّ إنسان حقوقا . قرّر ذلك دون أن تقوم ثورة تطالب بحقوق الإنسان ، دون أن تُسيّر مظاهرة تنادي بحقّ الفقراء في أموال الأغنياء ، أو بحقّ الضعفاء على الأقــوياء ، أو بحقّ المرأة علـــى الرجل ، أو بحقّ المحكوم على الحاكم .

لم تحدث ثورة ، ولم تحدث مطالبة ، ولكن دون أن يطالب الناس فإنّ ربّ الناس .. ملك الناس .. إله الناس ، هو الذي قررّ لهم هذه الحقوق .

قرّرها من أوّل يوم ، أوّل آيات نزلت في القرآن عُنيت بالإنسان ، ورفعت من شأن الإنسان : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢) ، منذ هذه السطور الأولى في كتاب الله عزّ وجل ارتفع شأن الإنسان .

الإنسان في الإسلام له شأن أيّ شأن ، وهذا أساس من أسس تثبيت حقوق الإنسان .

حقوق الإنسان في الإسلام تقوم على دعامتين أساسيتين :

١ - عقيدة التوحيد :

الدعامة الأولى : هى عقيدة التوحيد ، كلمة (لا إله إلاّ الله) ، هذه الكلمة إيذان بعالم جديد ، بميلاد جديد للإنسان ، تحرير للإنسان من العبوديّة ، وخصوصاً

---

(١) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .   (٢) العلق : ١ - ٥ .

من عبوديّة البشر للبشر ، لم يعد هناك إنسان يستعبد إنساناً ، ولم يعد هناك حقّ لإنسان أن يؤلّه إنسانًا .

كيف تؤلّه من هو مثلك .. من خُلق من تراب مثلك ؟ ويعود إلى التراب مثلك ؟ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ .. ﴾ (١) .

كيف تؤلّه إنساناً أنت مثله ؟ أو كيف تستعبد إنساناً هو مثلك ؟!

إنّما هي الأخوّة العامّة ، الناس جميعاً إخوة ، أبناء أب واحد ، وعبيد لرب واحد ، وهذا ما أعلنه النبي ﷺ على الملأ ، على مرأى ومسمع من الجموع المحتشدة ، التي تطّهرت ولبست ملابس إحرامها لله ، في تلك الساحة المقدّسة في حجّة الوداع .

أعلن النبي ﷺ ميثاق حقوق الإنسان الأوّل ، حينما نادي في الشهر الحرام والبلد الحرام : أيّها الناس : « ... فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ... » (٢) : لا يحلّ لأحد أن يعتدي على دم أحد .. على حياة أحد .. على مال أحد . علـى عـرض أحد . « يا أيها الناس ، ألا إنّ ربكم واحد ، وإنّ أباكم واحـد ، ألا لا فضـل لعربىّ على أعجميّ ، ولا لعجميّ على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى ... » (٣) ﴿ .. إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴾ (٤) .

في حجّة الوداع ، وأمام هـذه الجمـوع الهائلة ، أبلغ النبي بلاغه الأخير للنّاس ، قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى : إنّ الرب واحد ، والأب واحد ، وأنّ

---

(١) طه : ٥٥ ، وتتمتّها : ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ .

(٢) جزء من حديث أبي بكرة الذي أخرجه مسلم في صحيحه في باب : « تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال » . أنظر : (صحيح مسلم بشرح النووى : ١١ / ١٧٠) ط . دار الفكر .

(٣) رواه أحمد عن أبى نضرة قال : حدثنى من سمع خطبة رسول الله ﷺ فى وسط أيام التشريق ، قال عنه الألباني في « غاية المرام » : هذا إسناد صحيح ، وجهالة الصحابي لا تضرّ كما هو معلوم ، ولذلك قال ابن تيمية في « اقتضاء الصراط المستقيم » ص ٦٩ : إسناده صحيح .

(٤) الحجرات : ١٣ .

الدماء والأعراض والأموال مصونة ، لا يجوز أن يُعتدى عليها ، وأنّ الناس سواسية كأسنان المشط .

قُرّرت حقوق الإنسان بناءً على أنّ النّاس عبيد لربّ واحد .

عقيدة التوحيد إذن هى الأساس الأوّل لتقرير حقوق الإنسان ، لم يعد هناك مجال لفرعون من الفراعنة ، يقول للنّاس : أنا ربكم الأعلى ، ولا لنمروذ من النماريذ يقول : أنا أحي وأميت ، ويقتل رجلاً بغير حق ويقول : قد أمته ، ويحكم على رجل بالاعدام ثمّ يعفو عنه ويقول : ها قد أحييته .

لم يعد هناك مجال لفرعون ونمروذ ، إنّما المجال الآن للراكعين الساجدين الموحّدين ، الذين يعلنون في كلّ حين : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، الألوهيّة لله وحده .

هذه الحقيقة هي بداية تحرير للإنسان ، من ظلمات القرون وظلم القرون .

كان النبى ﷺ يختم رسائله إلى الملوك والأمراء - قيصر والنجاشي والمقوقس ، وغيرهم من ملوك النصاري ورؤسائهم - بهذه الآية : ﴿ . . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ . . ﴾ (١) .

ليس هناك أحد يمكن أن يكون ربًّا لأحد ، ولا لأحد أن يكون عبداً لأحد ، العبوديّة المدنيّة المعروفة لا تعنى الخضوع المطلق ، لا ، العبوديّة الحقيقيّة إنّما هي لله وحده .

هذا هو التوحيد الذي جاء به الإسلام .

٢ - تكريم الإنسان :

ثمّ كانت هناك الدعامة الثانية : وهي تكريم الإنسان .

الإسلام كرّم الإنسان : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ . . ﴾ (٢) من حيث هو آدمي ، من حيث هو إنسان .

---

(١) آل عمران : ٦٤ . (٢) الإسراء : ٧٠ .

كرّمه بعدّة أشياء :

(أ) استخلفه في الأرض ، جعله الله في الأرض خليفة ، وهي منزلة رنت إليها الملائكة ، واشرأبّت إليها أعناقهم ، وتمنّوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب ، فقال لهم : ﴿ . . إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . ﴾ (١) ، وهيّأه ليقوم بهذا الدور : الخلافة في الأرض .

(ب) كرّم الله الإنسان بأن صوّره فأحسن صورته : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢) ﴿ . . وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ . . ﴾ (٣) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (٤) .

(جـ) ثمّ زاد على ذلك بشيء أكبر وأعظم وأعمق ، هو أنّه ميزّ الإنسان بذلك العنصر الروحي ، الذي جعله مخلوقاً متفرّداً متميّزاً على غيره .

الإنسان ليس هو هذا الغلاف الطيني ، ليس هو هذا الهيكل من العظام والدماء واللحم والأعصاب والخلايا والأجهزة ، هذه يشترك فيها مع الحيوان ، إنّما هو ذلك السرّ المخبوء داخل هذا الغلاف ، الذي أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٥) .

نفخة الروح هي التي جعلت الإنسان إنساناً ، واستحقّ بها أن تسجد له الملائكة .

هذا هو العنصر الروحي .

الإنسان حيوان عند الغربيّين :

ولذلك ليس الإنسان حيواناً كما يقول الغربيّون من قديم ، اليونانيّون من قديم قالوا : الإنسان حيوان ناطق ، أي : مفكّر ، والاجتماعيّون المحدثون يقولون عنه : حيوان اجتماعيّ ، والماركسيّون يقولون : هو حيوان منتج ، والتطوريّون يقولون : حيوان متطوّر .

---

(١) البقرة : ٣٠ ، ٣١ .
(٢) التين : ٤ .
(٣) التغابن : ٣ .
(٤) الانفطار : ٦ ، ٨ .
(٥) الحجر : ٢٩ ، سورة ص : ٧٢ .

على أيّ حال هو حيوان عند هؤلاء وأولئك ، وإن كان حيواناً موصوفاً بصفة من الصفات ·

الإنسان مخلوق متفرّد ، ليس حيواناً ولا إلهًا :

ولكن الإنسان في الإسلام ليس حيواناً ، كما أنّه ليس إلَهاً ·

هناك من ألّه الإنسان ، وهناك من هبط به إلى درك الحيوانيّة ·

الإنسان ليس حيواناً ، وإن اشترك مع بعض الحيوانات في الصفات ، كما أنّ الحيوان يشترك مع النبات في بعض الصفات ، ولكنّنا لا نعرّف الحيوان فنقول : هو نبات متطوّر ، لا ، فالحيوان غير النبات ، والإنســان غير الحيوان ، والنبات غير الجماد ، وإن كان الجميع يشترك في صفات بعضها تتميز عن بعض ·

الإنسان مخلوق متفرّد :

ومن الأشياء التي ميّز الله بها الإنسان وكرّمه : أنّه سخّر له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ·

سخّر له كلّ ما في الوجود : العالم العلوي ، والعالم السفلي ، الشمس والقمر والنجوم ، والبحار والأنهار ، والجبال والأشجار ، كلّ هذا الكون مسخّر لخدمة الإنسان ·· لمنفعة الإنسان : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوها ·· ﴾ (١) ·

الكون مسخر للإنسان ، وهذا يفيد فائدتين :

الفائدة الأولى : إنّ الطاقات الكونيّة كلّها مبذولة للإنسان ، يستطيع أن يسخّرها لخدمته : الطاقة الشمسيّة ·· الطاقة الترابية ·· المائيّة ·· المعدنيّة ·· الهوائية ·· الضوئيّة ، كلّها مسخّرة للإنسان ·

الفائدة الثانية : أنّ هذا الكون المسخر للإنسان ، لا يجوز أن يعبده الإنسان ، كما فعلت شعوب وأمم قديماً وحديثا ، تعبد قوى من الطبيعة هي مسخّرة لها ، قلبوا الحقائق ، الإنسان المخدوم أصبح خادماً ، والمتبــوع أصــبح تابعاً ، والسيّد أصبح عبداً ، الذى سُخّرت له هذه الأشياء أصبح يعبد هذه الأشياء !

---

(١) إبراهيم : ٣٣ ، ٣٤ ·

الإنسان - بهذا المفهوم الإسلامي - أصبح جديراً أن تكون له حقوق ، وأن تكون له مكانة ، وأن تكون له كرامة تُرعى ، فلا يجوز لأحد مهما يكن قدره ، أن يهينهذا الإنسان ، أو يستعبد هذا الإنسان .

حقوق الإنسان منذ المرحلة الجنينيّة :

الإسلام جاء ليحترم الإنسان ، وليكرّم الإنسان ، من حيث هو إنسان ، منذ يولد وإلى أن يموت ، بل قبل أن يولد له حقوق تُرى وهو جنين في بطن أمّه .

من أجل ذلك حرّم الإسلام الاعتداء على الجنين ، حتى الأم التي تحمل هذا الجنين ليس لها أن تتصرف في جنينها بالإجهاض ونحوه ، كما ينادي بذلك كثير من الغربيّين المعاصرين وتلاميذهم في ديارنا .

لم يُجز الإسلام للأب - بحـال من الأحـوال - أن يقتل ابنه أو ابنته من إملاق ، أو خشية إملاق ، كما كان يفعـل العرب في الجاهليّة ، وخصوصاً مع البنات ، فقد كانوا يتخلّصون منهـم بالوأد (دسّها حيّة في التراب) ألا ساء ما يحكمون ! ﴿ وَإِذَا الموءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ (١) .

ولم يُجز الإسلام للأمّ أن تجهض جنينها ولو جاء من حرام .

المرأة الغامديّة المعروفة التي جاءت تطلب من النبي التطهير بإقامة الحدّ عليها ، بعد أن ارتكبت الفاحشة ، وتقول : يا رسول الله طهّرني ، أقم عليّ حدّ الله ، فأنا حُبلى من الزنى ، فلم يرض النبي ﷺ أن يقيم عليها الحدّ وقال : « فاذهبي حتى تلدى » أى أنّه إن كان لنا سبيل عليك ، فليس لنا سبيل على ما في بطنك ، ما ذنب هذا الكائن الحيّ ؟ إنّه مخلوق محترم ، لم يجن ولم يذنب ، ولا يحمل وزر غيره .

ثمّ تذهب وتأتي به بعد الولادة فيقول : « اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه »(٢) .

هذا هو الإسلام ، يرعى الإنسان منذ هو جنين في بطن أمّه ، كما يرعاه بعد موته ، حيث يوجب غسله وتكفينه والصلاة عليه، ودفنه ، وتنفيذ وصاياه ، وقضاء

---

(١) التكوير : ٨ ، ٩ .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه ، باب : « حدّ الزنا » .

ديونه قبل توزيع تركته ، وحرّم التمثيل بجثته (تشويها) ولو فى الحرب ، كما حرّم كسر عظمه [1] ، وأمر ألاّ يذكر الموتى إلاّ بخير ، فقد أفضوا إلى ما قدّموا [2] .

رعاية الإنسان من حيث هو إنسان :

الإسلام يرعى الإنسان من حيث هو إنسان ، في أيّ أرض كان ، فلا اعتبار بالأقاليم ، من أيّ لون كان ، أبيض أو أسود ، فالقيمة للإنسان من داخله وليست بلون جلده ووجهه .

يرعي الإنسان بأىّ لغة يتكلّم : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [3] .

يرعى الإنسان من أىّ طبقة كان ، من طبقة الأغنياء أم من طبقة الفقراء ، من طبقة الخاصّة أم من طبقة العامّة .

بل ليس في الإسلام طبقات ، كما كان النّاس في أوربّا قديماً - هناك طبقة النبلاء ، وطبقة الفرسان ، وطبقة رجال الدين ... الخ ، طبقات تُورث ، ولكلّ منها حقوق تظلّ ثابتة لا تتغيرّ - وكما كان النّاس في فارس ، وفي الهند قديماً وإلى اليوم ، ليس في الإسلام شيىء من ذلك .

الناس سواسية ، من حيث الكرامة الإنسانيّة الكلّ سواء ، حتى اختلاف الدين لا يؤثّر في الكرامة الإنسانيّة العامّة ، وقد روى البخاريّ عن سهل بن حُنيف وقيس

---

(١) رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « كسر عظم الميت ككسره حيًّا » رواه أبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير . وانظر تعليق الشيخ عليه في كتابه : (المنتقى : ٢ / ٩١٩ برقم ٢٢٣٥) .

(٢) روى البخاري وأحمد من حديث عائشة : « لا تسبّوا الأموات ، فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا » ، وروى النسائي من حديث عائشة أيضاً : « لا تذكروا هلكاكم إلاّ بخير ، إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه » رمز له السيوطي بالحسن ، وقال الحافظ العراقي : إسناده جيّد (فيض القدير للعلامة المناوي ، الحديثان : ٩٧٦٥ ، ٩٧٨٢) ، والمراد بالاموات : المسلمون منهم ، فيحرم سبّهم ، إلاّ لمصلحة شرعيّة ، كسّب أهل البدع والفسقة والظلمة للتحذير من الاقتداء بهم ، وكجرح الرواة وبيان حالاتهم .

(٣) الروم : ٢٢ .

ابن سعد : « أنّ النّبيّ ﷺ مرّت به جنازة فقام ، فقيل له : إنّها جنازة يهوديّ [أرادوا أن يعرفوه أنّه ليس بمسلم] فقال : أليست نفسا ؟ » (١) . بلى ، ولكلّ نفس في الإسلام حرمة ومكان .

من هنا رعي الإسلام كرامة الإنسان حيًّا وميّتًا :

رعى الإنسان حيًّا : بحفظ ماله ، وحفظ دمه ، وحفظ عرضه ، لا يجوز أن يُهان في حضرته ، أو يتكلم عنه بسوء في غيبته .

ورعاه ميّتًا فقال : « لا تذكروا هلكاكم إلاّ بخير » (٢) « لا تسبّوا الأموات ، فإنّهم أفضوا إلى ما قدّموا » (٣) .

حقوق الإنسان في الإسلام : فرائض وضروريّات :

جاء الإسلام يحافظ على حقوق الإنسان كلّها ، حقوقة المادّية والمعنويّة ، الدينيّة والدنيويّة ، العقليّة والجسميّة ، واعتبر هذه الحقوق من الضروريّات الخمس أو الست التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها ، وهي : الدين ، والنفس ، والعقل ، والنّسل ، والمال ، والعرض .

إنّ ما يعدّه الغرب حقوقاً يعدّه الإسلام واجبات وفرائض ، وهذا أوثق وأوكد ، فحقّ الإنسان يمكنه أن يتنازل عنه ، أمّا واجبه المفروض عليه من ربه ، فيلزمه أن يراعيه ويقوم عليه ولا يفرّط فيه .

إذا كان التعلّم حقًّا للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم ، الذي يعلّمه الإسلام أنّ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب : « الجنائز » باب : « من قام لجنازة يهودي » ، ومسلم في كتاب : « الجنائز » باب : « القيام للجنازة » .

(٢) رواه النسائى عن عائشة ؓ ، ورمز له السيوطى بالحسن (الجامع الصغير : ٢ / ٢٠٠) وجوّد الحافظ العراقي إسناده ، وتتمّته : « إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا ، وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه » . ويُستثنى من النهي ما تمسّ الحاجة إلى ذكره ، كجرحهم في شهادتهم وروايتهم ، أو تحذير من بدعتهم وفساد طويّتهم ، كما أوضح العلاّمة المناوي (فيض القدير : ٦ / ٣٩٤ برقم ٩٧٦٥) .

(٣) رواه البخاري فى كتاب الجنائز ، وابن حبان في صحيحه ، من حديث عائشة ؓ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٠٢ برقم ٢١٩٥) .

وإذا كان نقد المخطىء أو المنحرف حقًّا للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم ، فهو يدخل في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتواصي بالحقّ ، كما يدخل في باب النصيحة التي جعلها الرسول الكريم الدين كلّه ، لأئمة المسلمين وعامّتهم .

وإذا كانت مقاومة الظلم حقًّا للإنسان في الغرب ، فهي واجب على الإنسان المسلم وعلى المجتمع المسلم : « إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده » (١) .

وإذا كان لجوء المضطهد المظلوم من بلده إلى بلد آخر يأمن فيه حقًّا للإنسان في الغرب ، فهو واجب على الإنسان المسلم إذا استطاع إليه سبيلا ، اسمع قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَيَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُوراً ﴾ (٢) .

يوجب الإسلام على المسلم أن يدافع عن حقّه ، ولا يرضى بهوان نفسه ، ولا يفرّط في كرامته وكرامة أهله ، ولا يستسلم للظلم إلاّ من عجز وضعف ، فلا يكلّف الله نفساً إلاّ وسعها ، وفي الحديث : « لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه ، قالوا : يا رسول الله ، وكيف يذلّ نفسه ؟ قال : يتعرّض للبلاء بما لا يطيق » (٣) .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، والنّسائى ، وابن حبان فى صحيحه ، وروواه أحمد أيضاً فى مسنده ، من حديث أبى بكر الصديق ﷺ . (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٤٣ برقم ١٣٧٥) .

(٢) النساء : ٩٧ - ٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي وصحّحه ، وابن ماجه ، من حديث حذيفة ، وقال البغوي : هذا حديث حسن غريب ،وفي سنده : على بن زيد وهو ضعيف ، والحسن مدلّس وقد عنعن ، لكن له شاهد يتقوّى به من حديث ابن عمر أخرجه الطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات (شرح السنة للبغوي بتحقيق الأرناؤوط : ١٣ / ١٧٩ برقم ٣٦٠١) (الإحياء بتخريج العراقي : ١ / ٤٦) .

بهذا ارتقى الإسلام بحقوق الإنسان وحمل الفرد والمجتمع المحافظة عليها ، والمحاماة عنها ،وحمل الأمّة المسلمة عبء الدفاع عن المستضعفين المضيّعة حقوقهم ، ولو كان ذلك بإعلان الحرب ، وشنّ القتال ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالمستَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخرِجْنَا مِنْ هَذِه القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (١) .

بين النظرية والتطبيق :

هذا ما جاء به الإسلام ، وطبّقه المسلمون تطبيقاً عمليًا ، ولم يكن مجرّد فلسفة مجرّدة ، أو أفكار نظريّة ، أو أحلام طوباوية ، كجمهوريّة أفلاطون ومدينة الفارابي !

في المسجد نجد الكلّ سواسية ، في الحجّ الجميع سواسية ، أذاب الإسلام بشعائره كلّ الفوارق التي تميّز النّاس بعضهم من بعض .

الراشدون من حكام المسلمين لم يفرّقوا بين أحد وأحد ، فالنبى ﷺ وضع لهم القاعدة : « .. وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٢) .

عمر والأمير الغسّاني :

هذا عمر بن الخطّاب يسوّي بين أمير وسوقة ، حينما وطئ الأعرابيّ ثوب ذلك الأمير الغسّاني - جبلة بن الأيهم - وهو يطوف بالكعبة ، وقد أسلم حديثا ، فلمّا داس على طرف ردائه التفت إليه ذلك الأمير - وكان لا يزال به شيىء من كبر الجاهليّة - فلطمه على وجهه ، فذهب الرجل إلى الخليفة عمر يشكر ذلك الأمير ، فقال عمر : لطمة بلطمة ، أو يعفو ويصفح .

---

(١) النساء : ٧٥ .

(٢) متفق على صحتّه من حديث عائشة رضي الله عنها ، ونصه كاملا : أنّ قريشاً أهمّهم شأن المرأة المخزوميّة التي سرقت ، فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترىء عليه إلاّ أسامة بن زيد حبّ رسول الله ﷺ ، فكلّمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : « أتشفع في حدّ من حدود الله » ثم قام ، فاختطب ، ثم قال : « إنّما أهلك الذين قبلكم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (شرح السنة للبغوى : ١٠ / ٣٢٨ برقم ٢٦٠٣) .

قال : يا أمير المؤمنين : أتسوّي بيني وبينه وأنا ملك وهو سُوقة ؟! فقال له : إنّ الإسلام قد سوّى بينكما ، إمّا أن يلطمك كما لطمته ، وإمّا أن ترضيه ، قال : سأحاول أن أرضيه .

ولكن الرجل بيّت في نفسه أمراً وفرّ بليل ، وخرج من المدينة إلى بلاد أخرى مرتدًّا ، والعياذ بالله ، آثر أن يبقى على عنجهيّته ، وإن عاد إلى الكفر ، ولم يقبل أن يقتص منه ، ولم يبال عمر رضي الله عنه به .

بعض الناس يقول : ألم يكن من الأولى أن يتساهل عمر في هذه القضية ونكسب هذا الأمير ؟ لا ، خسارة شخص ولا خسارة مبدأ ، ليذهب إلى الجحيم ، يعوّض الله الإسلام غيره آلافاً وآلافًا ، ولكن مبدأ المساواة - وأنّ لكلّ إنسان أن يطالب بحقّه إذا ظُلم - أعظم من ذلك الأمير الذي ارتدّ وكفر .

متي استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا ؟ :

وكلّنا يعرف تلك القصّة ، قصّة عمر مع عمرو بن العاص وابنه الذي ضرب ذلك القبطيّ المصريّ بغير حقّ ، وذهب الرجل وابنه من مصر إلى المدينة - كم عانى وكم تعب حتى وصل إلى هناك ؟! - وشكا عمرو وابنه إلى عمر .

وأحضر عمر عمروا وابنه ، وقال للرجل : اضرب ابن الأكرمين - لأنّ ابن عمرو بن العاص كان يقول لابن القبطي وهو يضربه : أنا ابن الأكرمين ! - ثم قال له : أدرها على صلعة عمرو ، فما ضربك ابنه إلاّ بسلطانه ، فقال : يا أمير المؤمنين : إنّما اضرب من ضربني ، ثمّ التفت عمر إلى عمرو وقال له كلمته التاريخيّة التي تحفظها ويحفظها التاريخ : متى استعبدتم الناس يا عمرو ، وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا ؟!

كلمة عمر - التى قالها على البديهة - أصبحت تفتتح بها مواثيق وإعلانات حقوق الإنسان اليوم : إنّ الناس يولدون أحراراً متساوين (١) .

العبرة الكبيرة هنا : ما الذي جعل هذا القبطيّ يجوب الفيافي والقفار ، راكباً

---

(١) جاء في المادّة (١) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : «يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وُهبوا عقلا وضميرا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء » نقلا عن كتاب (حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة) للشيخ محمد الغزالي رحمه الله .

جمله أو دابّته حتى يصل إلى المدينة ؟ لقد كان هو ومواطنوه والآلاف من أمثاله في مصر - في عهد الرومان المسيحيّين أمثالهم - يُضربون ويُهانون ويُحبسون ويُقتلون وتراق الدماء أنهاراً،في عصور سُمّيت:عصور الشهداء ، ولم يكن يرفع أحد رأسه .

ما الذى حرّك هذا الرجل حتي قطع هذه المسافة الطويلة ؟ .

لا شيىء إلاّ اعتقاده أنّ هذا دين جديد ، جاء ينصف الناس ، ويقيم عدل الله بينهم ، ولا يقيم فوارق بين العباد ، اعتقاده هذا هوّن عليه المتاعب وبُعْد الشقّة ، فلم يعبأ بالمعاناة ووعثاء السفر ، وفراق الأهل والوطن ، من أجل أن يأخذ حقّه .

هذا ما جاء به الإسلام ، وهو غرة في جبين الإنسانيّة .

الحضارة الغربيّة وحقوق الإنسان :

الحضارة الغربيّة اليوم تُعلن حقوق الإنسان ، وهي - حقيقة - تُعنى بحقوق الإنسان في ديارها ، الإنسان هناك محترم أيّ احترام له حقوق ، له كرامة ، كلّ إنسان يعرف حقوقه التي ينصّ عليها الدستور ، ويحافظ عليه القانون ، وتقوم على رعايتها السلطة .

في داخل بلادهم كلّ الحقوق مرعيّة - فيما عدا قضيّة التمييز العنصري ، واحتقار الملوّنين - ولكنّهم إذا خرجوا من تلك البلاد لا يراعون لأحد حقًّا .

في هذه الأربعين سنة التي مضت على إعلان حقوق الإنسان ، كم انتهكت حرمات ، كم سُفكت دماء ؟ كم انتهبت أموال ؟ كم شُرّد أناس من أوطانهم وخصوصاً في أوطاننا نحن المسلمين ؟ ما أكثر الذين أوذوا وشُرّدوا ، شُرّد شعب بكامله من أرضه في فلسطين ، شُرّدت شعوب إسلاميّة من أوطانها .

هناك من المسلمين ملايين وعشرات الملايين مشرّدين في أنحاء العالم .. من بورما ، من أريتريا ، من الصومال .. من أقطار شتّى يحكمها طغاة مستبدّون ظالمون .

الغرب وراء هذه المظالم كلّها :

أليس هؤلاء هم الذين يؤيدون غارات ما يسمّى (إسرائيل) على لبنان إلى العهد الأخير ؟ ومظالم تلك الدولة المغتصبة مع أطفال الحجارة ، مع أولئك الأشبال الأطهار ؟

أليس هؤلاء وراء كلّ مظلمة ؟

نحن المسلمين أصبحت دماؤنا أرخص الدماء في الأرض ، وأصبحت أرضونا نهباً لكل طامع ·

حقوقنا أين هي ؟

الإنسان في عصر حقوق الإنسان أصبح في كثير من البلاد مضيّعا ·

لقد أعلنت منظمة العفو الدوليّة أنّ حوالي ثلث العالم يعيشون مضطهدين من حكومات ظالمة لا ترعى حقوقهم ، وهذه مصيبة كبرى ·

أناس يُحكمون بغير إرادتهم ، أناس سُلّطوا على أناس لا يستطيعون التخلّص منهم ، هذه هي مصيبة العالم الذي يدّعى حقوق الإنسان ·

كم في السجود من أبرياء ؟ كم هناك من أناس تُمزّق أجسادهم السياط ؟ كم هناك من أناس يُعانون من مظالم الفراعنة الجدد ، في عصر يُحتفل فيه بحقوق الإنسان ؟

ونحن المسلمين كم نُعاني ونُعاني من جرّاء هذه المظالم ؟ ولا يمكن أن ننال حقوقنا إلاّ أن ننتزعها من براثن الوحوش ، من أيدي أولئك المغتصبين ·

لا يستطيع أحد أن ينال حقّه إلاّ بالكفاح ، إلاّ بالجهاد ، فما أُخذ بالقوّة لا يُستردّ إلاّ بالقوّة ، ولا يفلّ الحديد إلاّ الحديد ·

في عصر حقوق الإنسان نبكي نحن المسلمين علي ديار وأوطان هنا وهناك مضيّعة ، وعلى إخوة لنا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء ، كما كانوا يعلموننا قديماً في علم الإنشاء ·

نبكي على إخوة لنا هنا وهناك ، يطالبون بحقهّم ولا يجدون نصيرا ·

لو أنّ إنساناً غربيًّا أصاب ظفره شييء ، أو اختطف ، أو سُرق ، لقامت الدنيا ولم تقعد ، ولكنّ الملايين منّا نحن العرب والمسلمين يُعانون ما يُعانون ولا يكاد يلتفت إليهم أحد ·

أهذا هو عالم حقوق الإنسان ؟

أين حقوق الإنسان أيّها الناس في عصر يأكل الأقوياء فيه الضعفاء ·· غابة يفترس القويّ فيها الضعيف ·· بحر يأكل السمك الكبير فيه السمك الصغير ؟

لا مكان إلاّ لمن يأخذ حقّه بيده ، فلنقوّ أنفسنا ، ولنعدّ العدّة ، ولنحرص على أن نكون نحن المسلمين في ديارنا مثلاً للحقوق التي يجب أن تُرعى ·

كم في ديار المسلمين من حقوق تُهضم بأيدي المسلمين ؟!

لا يجوز أن نعيب على الغرب أنّه يضيّع حقوقنا ، ونحن في ديارنا مضيعو الحقوق ، يأكلها مواطنون لنا ، كلّ إنسان يقول : نفسي . . نفسي ، يقول : لي . . لي ، ولا يقول - يوماً ما - : عليّ .

هذه هي الآفة ، وهذه هي الكارثة ، ولا نجاة لنا إلاّ بالعودة إلى الإسلام ، التزام بالحقوق ، والتزام بالواجبات ، كما شرعها الله ، وكما جاء بها محمد رسول الله ﷺ .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* *

• الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة :

فلنذكر ضعف الإنسان :

إذا كنّا تحدثنا عن حقوق الإنسان ، فينبغي أيضاً أن نذكر هذه الأيّام ضعف الإنسان . . الإنسان الذي طغى في هذا العصر ، وظنّ أنه سيطر على شيء ﴿ . . حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ (٢) ، ثمّ تأتي الأحداث وراء الأحداث ، لتعلّم الإنسان أنّه مخلوق ضعيف : ﴿ . . وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٣) .

أيّها الإنسان ما أنت ؟ أنت حفنة من التراب ، تتغذّى ممّا يخرج من التراب ، ثمّ تواري أخيراً في التراب ، ترابٌ يمشي علي تراب .

أيّها الإنسان المتألّه ما أنت ؟ لو أنّ السماء تمسك أمطارها عنك هل تستطيع أن

---

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) يونس : ٢٤ .

(٣) النّساء : ٢٨ .

تفعل شيئاً ؟ ماذا تستطيع إذا لم تنزل عليك قطرات الماء ؟ كان الناس قديماً يقولون : النيل عندنا في مصر يُغنينا عن أمطار السماء ، فلمّا شحّت الأمطار في أفريقيا لم يستطع الناس أن يفعلوا شيئًا ، ثمّ لمّا زادت الأمطار أصبح الناس يشكون الفيضان ، الفيضان يغرق ويدمّر في السودان .. في باكستان .. في بنغلادش .

ماذا تصنع أنت أيّها الإنسان ؟

ثمّ انظر أخيراً إلى ضعف الإنسان في الاتحاد السوفيتي الذي يملك القدرات العلميّة ، والإمكانات التكنولوجيّة ، والصواريخ والأقمار الصناعيّة ، والسفن الفضائيّة ، رغم هذا كلّه ، ماذا صنع السوفييت أمام هزّة أرضيّة .. زلزلة استمرّت ثواني معدودات ؟! فإذا بها تجعل عالي المدن سافلها ! ثمان وأربعون قرية دُمّرت على من فيها !

أين العلم ؟ أين الصواريخ ؟ أين الأقمار ؟ أين سفن الفضاء ؟ أين المخزونات النّوويّة ؟ أين .. أين ؟

الإنسان ضعيف أمام هذا كلّه .

اعتبر أيّها الإنسان ، واذكر بهذا أنّ هناك زلزلة أكبر من هذه الزلزلة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾(١) .

اللّهمّ نبّهنا من سكرتنا ، وأيقظنا من غفلتنا ، وتب علينا توبة نصوحا .

اللّهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا .

اللّهمّ ارع أوطاننا وديارنا .

اللّهمّ ردّنا إلى الإسلام ردًّا جميلا .

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا .

اللّهمّ استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا .

---

(١) الحج : ١ ، ٢ .

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم انصر إخواننا المجاهدين فى سبيلك فى فلسطين ، وفي أفغانستان ، وفي أريتريا ، وفي الفلبين ، وفي كلّ مكان من أرض الإسلام .

اللهم أيدّ إخواننا المضطهدين والممتحنين ، اللهم أفكك بقوتك أسرهم ، وأجبر برحمتك كسرهم ، وتولّ بعنايتك أمرهم .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللهم ردّ عنّا كيدهم ، وغلّ حدّهم ، وأذل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

عباد الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .   (٢) الأحزاب : ٥٦ .

١٤ ـ معركة الحجاب في فرنسا

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

في الأسبوع الماضي سافرت إلى فرنسا ٠٠ إلى باريس ، لأحضر وأشارك في حوار بين المسلمين والفرنسيين ، أو بين مجموعة من الإسلاميّين ومجموعة من المستشرقين معظمهم من الفرنسيّين (١) .

الحوار فريضة إسلاميّة :

ونحن نرحب بالحوار ٠٠ بالحوار مع المخالفين ، أيًّا كان هؤلاء المخالفون ، وخصوصاً أهل الكتاب منهم ، فنحن تجمعنا معهم عدّة روابط : أنّهم يؤمنون بالله في الجملة ، ويؤمنون بالنبوّات ورسالات السماء ، ويؤمنون بالآخرة ، ويؤمنون بوجوب عبادة الله ، ويؤمنون بالقيم الروحيّة ، والأخلاقيّة ، فهناك قواسم مشتركة تجمع بيننا وبينهم .

ونحن المسلمين مطالبون بأن ندعو إلى ديننا ، وأن نحاور الآخرين بالتي هي أحسن كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٠٠ ﴾ (٢) ، فالحوار مع الآخر فريضة إسلاميّة ، دعا إليها القرآن الكريم .

حوار بالتي هي أحسن :

والقرآن هنا يطالب أن يكون الجدال والحوار بأحسن الأساليب ، وأرقّ الوسائل وألطفها ، فإذا كانت هناك وسيلتان أو طريقتان للحوار ، إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها ، فنحن المسلمين مأمورون أن نتبع التي هي أحسن .

في الموعظة اكتفى القرآن بأن تكون موعظة حسنة : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

---

(١) كان ذلك في أكتوبر ١٩٩٤ م ، وكان لمشاركة الشيخ القرضاوي في هذا الحوار أثر إيجابيّ بارز ، فقد استطاع – بحمد الله – أن يقنع الحاضرين بمفاهيم الإسلام الراقية في العديد من الجوانب .

(٢) النّحل : ١٢٥ .

بالحكمة والموعظة الحسنة .. ﴾ ، ولكنّه في الجدال والحوار لم يكتف إلاّ بالتي هي أحسن : ﴿ .. وجادلهم بالتي هي أحسن .. ﴾ ، لماذا ؟ لأن الموعظة تكون مع الموافقين، والحوار والجدال يكون مع المخالفين، ويكفي الموافق أن تعظه موعظة حسنة، ولكن المخالف لابدّ أن تسلك إليه أحسن السبل، حتى تصل إلى قلبه، وتدخل إلى عقله ، وتحاول إقناعه واستمالته إلى صفّك ، وإلى صراطك المستقيم .

نماذج قرآنيّة من أساليب الحوار :

ومن هنا نجد القرآن الكريم يقول - فى حوار المشركين - على لسان النبى ﷺ : ﴿ .. وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ (١) ، أحد الفريقين لابدّ أن يكون على هدى والآخر في ضلال مبين ، وهو متأكّد ومستيقن أنّه على الهدى وأنّهم على الضلال ، ولكنه حين يجادل الآخرين لا يقول لهم مباشرة : أنتم على الضلال ، إنّما يخاطبهم بهذه الصيغة : ﴿ .. وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ .

ويقول في هذا السياق : ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ (٢) ، كان مقتضى المقابلة في السياق أن يقول : قل لا تُسألون عمّا أجرمنا ولا نُسأل عمّا تجرمون ، ولكنّ القرآن لم يشأ أن يصفهم بالإجرام ، يريد أن يصل إلى قلوبهم فلم ينسب إليهم الإجرام ، قال عن المسلمين : لا تُسألون عمّا أجرمنا ، ولكنّه لم يقل: ولا نُسأل عمّا تجرمون ، وإنّما قال: ﴿ ولا نسأل عما تعملون ﴾ .

حوار أهل الكتاب :

القرآن يأمر بحوار أهل الكتاب بالتي هي أحسن : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (٣) ، أي اذكروا عند الجدال بالتي هي أحسن نقاط الاتفاق .. المواضع التي تتفقون فيها بعضكم مع بعض ، ولا تذكروا نقاط التباين والتمايز والاختلاف ، ليقترب بعضكم من بعض : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (٤) .

---

(١) سبأ : ٢٤ . (٢) سبأ (٣) العنكبوت : ٤٦ . (٤) العنكبوت : ٤٦ .

على هذا الأساس رحّبتُ بالحوار مع غير المسلمين ، ومع هؤلاء النصارى والمستشرقين .

وفي كتبي دعوتُ إلى الحوار مع كلّ المخالفين : المخالفين في الدين ، والمخالفين في الفكر ، والمخالفين في السياسة ، لسنا مُغلقين ، نحن منفتحون على غيرنا ، وليس عندنا ما نخافه أو نخاف عليه أحدا .

ذهبت إلى باريس ، وبدأنا الحوار ، ولكن كان هناك موضوع حيّ وساخن ، فرض نفسه على ساحة الحوار ، وأخذ منّا معظم الوقت ، ولابدّ أن أشرككم في هذا الأمر .

الحجاب على رأس موضوعات الحوار :

كان هذا الموضوع الحار الساخن هو موضوع (الحجاب) .. حجاب الطالبات في مدارس فرنسا ، هذا الموضوع الذي تتحدث عنه فرنسا كلّها ، ويتابعه الإعلام : مرئيّه ومسموعه ومقروؤه .

هؤلاء التلميذات .. الطالبات اللآئي يردن أن يلتزمن بتعاليم دينهنّ ، وأحكام شرعهنّ ، وفرض ربّهنّ ، في غطاء الرأس [(١)] .

الحجاب مفروض فى محكم القرآن :

يُراد بالحجاب : الخمار .. تغطية الرأس ، وهذا أمر فرضه الله تبارك وتعالى فى محكم القرآن ، حيث يقول عزّ وجل في سورة (النّور) : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا [وما ظهر منها على ما رأى ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين : الوجه والكفّان ، أو الكحل والخاتم ، فما عدا ذلك ينبغي أن يُستر ويُغطّى] ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. ﴾ [(٢)] .

الخمار هو غطاء الرأس ، فلا بدّ للمسلمة أن تغطى بخمارها على جيبها ، أي

---

(١) كلمة (الحجاب) أصبحت تستعمل الآن هذا الاستعمال ، وإن كان استعمالها اللّغوي غير ذلك .

(٢) النّور : ٣١ .

: على فتحة الصدر ٠٠ وفتحة الجيب ٠٠ القميص ، فقد كان نساء الجاهلية يبدين هذا النّحر وهذا الصدر لتظهر فيه القلائد والزينة وغير ذلك ٠

فجاء الإسلام يأمر بضرب الخمار على الجـيوب : ﴿ ٠٠ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ، وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ ٠٠٠ ﴾ [1] إلخ ، وذلك في الزينة الباطنة ، ﴿ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ، وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] ، جاء هذا في سورة (النور) ٠

وجـاء في سـورة (الأحـزاب) : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [3] ، لتعرف المسـلمة الجادّة من اللّعوب العابثة ، لتعرف المسلمة العفيفة المحصنة من تلك التي تحاول إغراء الرجال ولفت الأنظار والانتباه إليها ٠

هذا أمر الله تبارك وتعالى في كتابه للمؤمنات ، فلا عجب أن تلتزم أولئكم الطالبات المسلمات المؤمنات في فرنسا بهذا الأمر ، وأن يذهبن إلى المدارس بهذا الخمار أو بهذا الحجاب ٠

موقف المتعصبين من مديري المدارس في فرنسا :

ولكن – للأسف – جُنّ جنون هؤلاء من مديري مدارس البنات المتعصبين ، وقامت قيامتهم ولم تقعد ، وحاولوا منع هؤلاء الطالبات المسلمات ، وأرادوا أن يفرضوا عليهنّ أن يتخلّين عن الحجاب ، ولماذا ؟ قالوا : لأنّ الحجاب رمز دينيّ ، ونحن لا نسمح بالرموز الدينيّة ، ولا نريد هذه الرموز الدينيّة المعبّرة عن شخصيّات دينيّة مختلفة !!

هل الحجاب رمز دينيّ كالصليب ؟ :

قلت لهم : هذا ليس بصحيح ، الحجاب ليس رمزاً دينيًا ، الرمز ما ليس له وظيفة إلاّ أنّه شعار وإعلان مثل : الصليب على صدر النصرانّي ، ونجمة داود

---

(١) النور : ٣١ ٠ (٢) النور : ٣١ ٠ (٣) الأحزاب : ٥٩ ٠

السداسية على صدر اليهوديّ ، والطاقية المعروفة على رأس اليهودي ، هذه هي الرموز الدينيّة لأنّه لا وظيفة لها إلاّ الإعلان .

ولكن هذا الحجاب له وظيفة ، وهو وظيفة الستر والحشمة ، وهذا أمر من الله للمسلمة ، فكيف تفرضون على المسلمة أن تتخلّى عن فرض من فروض دينها ؟ أين الحرّيّة الشخصيّة ؟ وأين حرّيّة التديّن التي توفرّها دساتيركم ، والتى يحميها ميثاق حقوق الإنسان ، وتحميها مواثيق الأمم المتحدة ؟؟! .

أنتم بلاد الثورة التي نادت بالحرية كما تزعمون ، وتقولون عن فرنسا : أمّ الحرّيات ! أين هي الحرّيّة إذا لم يكن للمسلمة الحق في حرّيّتها الشخصية : أن تلبس ما تشاء ؟ وحرّيّتها الدينيّة : أن تلبس ما يطلبه منها دينها ؟! كما أنّ هناك من النساء ومن البنات من يلبسن القصير والمينى والميكرو ومثل هذه الأشياء ، ولا تعترضون عليهنّ ، لماذا تعترضون على الفتاة المسلمة ؟!

أين حرّيّة التديّن إذا لم تمارس المسلمة حقّها ؟! وهو واجب عليها في دينها ، وليس مجرّد حقّ لها .

التسامح الإسلامي بلغ القّمة :

ألا ترتقون إلى المستوى الذي ارتقي إليه الإسلام ؟

الإسلام بلغ الغاية ، وبلغ الذروة في التسامح مع المخالفين .

هناك درجة دنيا في التسامح : أن تتسامح مع الإنسان المخالف لك فيما يوجبه دينه عليه ، لا تفرض عليه أمرًا يحرّمه دينه ، ولا تلزمه بأمر يتخلّى به عن واجب من واجبات دينه ، هذه هي الدرجة الأولى في التسامح .

ولكن هناك درجة أرقى وأعلى ، وهي : أن تتسامح مع مخالفك فيما هو مباح له في دينه ، وليس واجباً ، وليس فرضا .

وهذا ما صنعه المسلمون في أمور مباحة أو يعتقد أهل الكتاب من النصارى أنّها مباحة في دينهم ، مع أنّ الإسلام يحرّمها أشدّ التحريم ، وذلك مثل أكل الخنزير وشرب الخمر ، فقد أجاز المسلمون جميعاً لأهل الكتاب أن يأكلوا الخنزير ، وأجاز جمهورهم أن يشربوا الخمر ، ما داموا لا يروّجون هذه الأشياء بين المسلمين ، والكلمة المأثورة عن الصحابة في ذلك : اتركوهم وما يدينون .

شيىء مباح لا يوجبه الدين عليهم - فلم يوجب الدين على المسيحى أن يأكل

الخنزير ولا أن يشرب الخمر ولكن أباح له ذلك [1] – وهو محرّم في الإسلام ، ومع هذا تسامح المسلمون في هذا وقالوا : لا نضيقّ عليهم في أمر أباحه لهم دينهم . فكيف تريدون أنتم من المسلمين أن يتخلّوا عن فرض ربّانيّ ، وواجب شرعي ، وحكم دينيّ من أحكام الإسلام ؟! أين التسامح الذي تدّعون ؟!

أين أنتم من الحضارة الإسلاميّة ؟ :

لماذا لا تقلّدون الحضارة الإسلاميّة ؟ تلك الحضارة التي وسعت الأديان ، ووسعت الثقافات ، وشاركت فيها عناصر شتّى ، منهم يهود ، ومنهم نصارى ، ومنهم سريان ، ومنهم عروق وأديان مختلفة ، ولم تفرض على غير المسلمين ولا على غير المسلمات مالا يفرض عليهم دينهم .

كان غير المسلمات يعشن في المجتمع الإسلامي حاسرات الرؤوس ، لم يفرض عليهنّ الإسلام أن يغطّين رؤوسهنّ لماذا لا تفعلون مثلها فعلت الحضارة الإسلاميّة ؟ لماذا لا تقبلون التنوع والتعدّد ، والتنوّع إثراء للحضارة ، وهذا أمر مطلوب ؟ .

كيف تلزمون المسلمة بضدّ ما ألزمها الله تعالى به ؟!

أين الحرّيّة ؟

أين الحقوق ؟

أين الحرمات ؟

أين كرامة الأفراد ؟

بلاد المسلمين التي تمنع الحجاب :

هذا ما قلناه للقوم ، وحاولوا أن يتملّصوا من هذا الأمر ، وقال بعضهم فيما قال : إنّ الحجاب ليس واجباً دينياً ، وليس فرضاً شرعياً ، بدليل أنّ هناك بلاداً إسلاميّة تمنع الحجاب ! وضربوا مثلاً لذلك بـ (تركيا) و (تونس) .

فقلت لهم : إنّ هذه ليست بلاداً إسلاميّة ، هذه بلاد علمانيّة ، العلمانية هى الحاكمة فيها ، والمسلمون لم يسلّموا في تركيا إلاّ بعد أن ضحّوا بالآلاف ومئات الآلاف ، وقاوموا هذه العلمانيّة التي فُرضت علي المجتمع ، علمانيّة التشريع ،

---

(١) بل إنّ بعض النصارى ينازع في إباحة شرب الخمر في دينهم ، ولهم في ذلك وجهة نظر يدلّلون على صحّتها .

وعلمانيّة التعليم ، وعلمانيّة الثقافة ، وعلمانيّة الإعلام ، وعلمانيّة التقاليد ، كلّها فرضت بالحديد والنّار ·

(خلع الحجاب) فرضه أتاتورك وحزبه فرضاً ، وأصبح مفروضاً على المسلمة لعقود من السّنين تحت نير العلمانيّة المتجبّرة : ألاّ تتحجب ، ولكن هذا ليس من الإسلام في شيىء ·

وتونس ، تبيح الزني وتحرم تعدد الزوجات ، وتعتبر الحجاب جريمة ، لا تجيز للمسلمة دخول المدرسة أو الجامعة أو تولى أيّ وظيفة حكوميّة ، بل تمنع المحجبة من العلاج في أيّ مستشفى حكومي ، حتى الحامل لا تدخل مستشفى الولادة إلاّ بعد أن تُجبر على خلع الحجاب !

هذه البلاد التي تمنع الحجاب تخالف أمر الله ، وتحادْ الله ورسوله ، جهاراً نهاراً ، عيانا بيانا ، صراحة لاشكّ في ذلك ، ولم يعرف هذا قبل عصر العلمانيّة فى زمننا ·

البلاد الإسلاميّة أنواع :

هناك بلاد تلزم الطالبة المسلمة بالحجاب ، وذلك مثل السعوديّة ، ومثل قطر في مدارسها ، ومثل السودان ، ومثل إيران ·

وهناك بلاد تدع هذا الأمر حرّيّة شخصيّة ، من أرادت أن تتحجّب فلتتحجب كما في مصر ، وعندما أراد وزير التعليم في مصر أن يصدر قراراً فيه مساس بهذه الحرّيّة ، هاج الناس وثارت الدنيا ، وقامت ولم تقعد ، حتى اضطرّ الوزير أن يتنازل عن قراره ويقول : لا تمنع محجّبة من الدخول إلى مدرســة ، وهذا هو معنى العلمانيّة ·

وهذا ما قلناه لهم : إنّ العلمانيّة هي التي تدع الناس أحراراً في مسائل الدين ·

والنوع الثالث من البلاد الإسلاميّة هو الذي يحارب الحجاب ، وأنا أقول : بلاد إسلاميّة ، أي أنّ شعوبها إسلاميّة ، وإن لم تكن أنظمتها إسلاميّة ·

هذه البلاد هي التي تمنع الحجاب وتعتبره جريمة ، ولا تسمح للطالبة في المدرسة أو في الجامعة أو في أيّ وظيفة من وظائف الحكــومة أن ترتدي الحجاب وتلبس الخمار !

يُسمح للمتبرّجة أن تلبس ما تشاء ، يُسمح للكاسيات العاريات المائلات المميلات أن يدخلن المدارس والجامعات ، وأن يوظّفن فى سائر وظائف الدولة ، إلاّ المسلمة الملتزمة بالحجاب !

بل يوجبون على المرأة إذا أرادت أن تدخل مستشفى للعلاج أو للولادة ، أن تخلع الحجاب قبل أن تعمل العملية الجراحيّة أو نحو ذلك ّ!

الأصل في العلمانيّة الحياد مع الدين :

وهذا عجب ، فالأصل في العلمانيّة أنّها تقف موقفاً محايداً من الدين . هذه هي العلمانيّة اللّيبراليّة كما يسمّونــها ، لا تؤيدّ الدين ولا ترفضه ، لا تواليه ولا تعاديه ، تدع الناس أحرارا ، هي لا تدرّس لهم الدين ولا تعلّمهم الدين ، ولا تقف من الدين موقفاً إيجابيًّا ، لا موقف التأييد ولا موقف الرفض .

العلمانيّة المعادية للدين :

هناك علمانيّة أخرى : العلمانيّة الماركسيّة الشيوعيّة ، هي التي تقف موقفاً مضاداّ من الدين ، مناقضاً للدين ، معادياً للدين ، لأنّ الدين في نظرها أفيون الشعوب ومخدّر الجماهير ، والأصل أنّها ضد الدين .

ولكن أنتم يا دعاة العلمانيّة الليبرالية لماذا تعادون الدين وتعادون أحكامه الملزمة في الشؤون الشخصيّة ؟! دعوا الناس أحراراً في حياتهم الشخصيّة ، ولا تتدخّلوا فيها رغم أنوفهم .

هذه المسلمة التي اختارت الحجاب طوعاً وبإرادتها ، لماذا تُقسر قسرًا ، وتُقهر قهرًا ، على أن تخلع حجابها ؟! ليس هذا من العلمانيّة التي نعرفها عندكم يا آل فرنسا .

هل الحجاب أمر جديد على الحياة الإسلاميّة ؟ :

قالوا أيضا : هذا الحجاب أمر جديد على المسلمات ، جاء به الأصوليّون المسلمون ! وخلال السنوات وعشــرات السنوات الماضية ، لم يكن هناك هذا الحجاب ، وكانت المسلمة كغيرها من النساء ، تخرج متبرّجة لابسة الملابس الإفرنجيّة وملابس الحضارة الحديثة ، لا تُميز مسلمة من غير المسلمة .

قلت لهم : هذا صحيح ، ولكن هذا كان بتأثير الاستعمار العربى على الحياة الإسلاميّة .

ظلّت المسلمة ثلاثة عشر قرناً ، لم يعرف خلال هذه القرون أنّ مسلمة واحدة خلعت غطاء رأسها ، هذا ما لم يحدث طوال التاريخ .

بل كانت المرأة المسلمة لو حدث منها حركة اضطراريّة سقط بها حجابها أو طار منها ، تعتبر نفسها كأنّها عارية ، وتحاول أن تغطي رأسها بأيّ شيء .

هذا ما كان عليه المسلمات خلال القرون ، حتى دخل الاستعمار الغربيّ بلاد المسلمين ،وبدأ يغيّر الشخصيّة الإسلاميّة ، ويغيّر معالم الأمّة ومعالم هويّتها ، ويفرض سلوكه بمؤثّرات شتّى ، فبدأ تقليد الخواجات والأجانب ، الطبقة العليا من القوم بدأن يقلّدن نساء الخواجات ، ثمّ الطبقة التي بعدهنّ ثمّ التي بعدهنّ ، حتى أصبح هذا في وقت من الأوقات أمرًا شائعًا .

كنّا في وقت من الأوقات .. في الستينيات من هذا القرن ، يمرّ الإنسان في العواصم الكبرى في البلاد العربيّة والإسلاميّة ، فلا يكاد يجد امرأة محجّبة ، تجدها عجوزاً أكل الدهر عليها وشرب ، ومع هذا تلبس ما يسمّى : (الجيبونيز) أو (الميني) أو (المكرو) أو هذه الأشياء ، هذا بتأثير الاستعمار ، وبتأثير سلطان الحضارة الغربيّة الماديّة الإباحيّة .

عودة المسلمات إلى الحجاب حركة نسائيّة تحرريّة :

الآن بعد الصحوة الإسلاميّة المعاصرة ، بعد أن امتدّ هذا البعث الإسلامي شرقاً وغربًا ، وشمالاً وجنوبا ، بعد أن اكتشف المسلمون واكتشفت المسلمات ذواتهم وذواتهنّ ، وعرفوا من هم ، بدأت المسلمة تعود إلى رشدها ، وترجع إلى ربها ، وتلتزم الحجاب طواعية ، هي حركة نسائية إسلاميّة طوعيّة اختياريّة إيراديّة تحرريّة ، فكثيرًا ما التزمت الفتيات هذا الأمر برغم آبائهن وبرغم أزواجهنّ .

أجل هي حركة تحرريّة ، استردّت المسلمة شخصيتها الحقيقيّة ، واستعادت الثقة بنفسها ، وتمرّدت على التقليد الأعمى للحضارة الغربيّة ، والمرأة الغربيّة .

كانت المسلمة قبل ذلك تقلّد المرأة الغربيّة ، وتمشي وراءها ، وتتبّع سننها ، شبرًا بشبر ، وذراعًا بذراع ، كما ذكر لنا النبي ﷺ : « حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم »[1] أي أصبح جحر الضبّ (مُودة) ينبغي أن يسلكها الجميع ، وتظهر (مودة) اسمها : مودة جحر الضب !

---

(١) ونصّه كاملاً : « لتتبعنّ سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراعٍ ، حتى لو =

ولكن المسلمين خرجوا من جُحر الضب ، خرجوا من قوقعة التقليد إلى باحة الحرّيّة ، تحرّروا من الاتّباع ، وبدأت المسلمة تعود إلى دينها .

دعوى أنّ مفكّرين مسلمين أنكروا الحجاب :

وقال هؤلاء فيما قالوا : إنّ هناك من مفكّرى المسلمين وعلمائهم من يقول : إنّ الحجاب ليس من الإسلام !!

قلت لهم : من هؤلاء الذين يزعمون أنّهم مفكّرون ؟ هناك قوم دخلاء على العالم الإسلامي وعلى الفكر الإسلامي ، يُراد تلميعهم ، ويُراد إعطاؤهم ألقاباً جديدة: المفكّر الإسلامي - العالم الإسلامي، وهو لا يفقه من الإسلام شيئا، ما درس القرآن ، ولا درس السنّة ، ولا درس الأصول ، ولا درس العربيّة ، ولا غاص في بطون الكتب الإسلاميّة ، ومع هذا يُدّعى له لأنه مفكّر ، ويأتي أحدهم ليقول : إنّ هذا كان في أيّام البعثة ، أراد القرآن أن يُعالج وضعاً معيّناً ، وقد زال هذا الوضع!!

كأنّ القرآن إنّما أُنزل لبضع سنوات ، ثمّ يجب أن يُشطب ويُنسخ ولا يُعمل به بعد ذلك .

هذا القرآن .. كتاب الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كتاب محفوظ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، يخاطب الأمّة فى عصر النبوّة ، وفي عصر الصّحابة ، وفي سائر العصور ، وإلى أن تقوم الساعة .

والأمّة ملزمة بأحكام ربها ، لا يغنيها عن ذلك شيىء: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾(٢)،

= دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم ، قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟! » متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدري (شرح السنة للبغوي : ١٤ / ٣٩٢ برقم ٤١٩٦) ، وروى الحاكم عن ابن عباس : « لتركبنّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو أنّ أحدهم دخل جحر ضبّ لدخلتم ، وحتى لو أنّ أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه » ورمز له السيوطيّ بالصّحّة (الجامع الصغير : ٢ / ١٢٢ - ١٢٣) ، قال العلاّمة المناوي : رواه الحاكم في الإيمان عن ابن عباس وقال : على شرط مسلم ، وأقرّه الذهبي ، ورواه عنه أيضاً البزّار ، قال الهيثمي : ورجاله ثقات (فيض القدير : ٥ / ٢٦١ - ٢٦٢ برقم٧٢٢٤) .

(١) الحجر : ٩ .

(٢) الأحزاب : ٣٦ . وتتمّتها : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا ﴾ .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

ولقد وجدنا من هؤلاء العصريّين من ينكر تحريم الخمر ، وهي من قطعيّات الدين ، وممّا علم منه بالضرورة ، ومن ينكر تحريم الربا ، وهو ممّا أجمعت عليه الأمّة بكلّ مذاهبها وطوائفها .

فليقل هؤلاء الشاردون المحرّفون ما شاؤوا ، فالقرآن والسنّة وإجماع الأمّة طوال قرونها حجّة عليهم ، ولا تجمع هذه الأمّة على ضلالة .

الحكّام الذين أنكروا وجوب الحجاب :

وقالوا فيما قالوا : إنّ هناك من حكّام المسلمين من قال : إنّ الحجاب ليس بواجب !!

قلنا لهم : حكّام المسلمين هؤلاء ليسوا حجّة على الإسلام ، بل الإسلام حجّة على الحكّام وعلى المحكومين ، الإسلام هو القرآن والسنّة ، الإسلام هو إجماع الأمّة وخاصّة في خير قرونها ، أمّا هؤلاء المبتدعون ، المتنكّرون للشريعة ، المقلّدون للخواجات ، فلا عبرة بهم ولا وزن لهم .

ما قيمة حاكم يقول : الحجاب هو أمر يتبع التقاليد ، يتبع الغرف ، وأنا بناتي يسبحن في الحمّامات مع الرجال ، ويلعبن الرياضة في المتنزّهات ، وفي الأندية أمام أعين الرجال ؟! ما قيمة هذا الحاكم ؟ مهما يكن أمره فإنّ الإسلام حجّة عليه ، الإسلام يعلو ولا يُعلى .

لهذا سقطت كلّ تلك الشبهات التي أثارها هؤلاء وبقي الحجاب فرضًا دينيًّا ، وواجبًا شرعيًّا ، يجب أن تُمكّن منه المسلمة .

موقف مخجل للمسؤولين المسلمين :

ومن المؤسف أنّ أحدًا من المسؤولين في بلاد الإسلام ، لم يُثر هذا الأمر مع هؤلاء ، لم تحتج دولة إسلاميّة ، لم يُثر هذا الموضوع ، حتى إنّ وزير الخارجيّة الفرنسي زار عددًا من البلدان العربيّة ولم أر صحفيًّا أحرجه وسأله : ما هذه الضجّة التي تقيمونها على حجاب الطالبات المسلمات في فرنسا ؟

---

(١) النور : ٥١ .

لم نر أحداً اهتمّ بهذا الأمر ، كأنّ المسلمين أصبحوا جماعة مفككة ، لا يهتمّ بعضهم بأمر بعـــض ، و « من لا يهتمّ بأمر المســلمين فليــس منهم ، ومن لم يصبح ، ويمسى ناصحاً لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولإمامه ، ولعامّة المسلمين ، فليس منهم » (١) .

إنّها عقدة من رواسب الحروب الصليبيّة :

قلنا لهؤلاء : هب أنّ هذا رمز كما تدّعون - وهو ليس برمز وإنّما له وظيفة ووظيفته السّتر والحشمة - أتمنعون من يضع الصليب على صدره ؟ أتمنعون اليهوديّ الذي يضع الطاقية على رأسه ؟ أتمنعون السيخيّ الذي يلبس عمامته ولا يخلعها ؟ حتي أنّهم عندما يصرّحون لمن يركبون الدراجات الناريّة يلزمونه أن يكون معه خوذة وهذا السّيخيّ لا يمكن أن تدخل الخوذة مع العمامة في رأسه ، ومع هذا يسمحون له، لأن هذا أمر من أمور دينه ، لماذا تتسامحون مع كلّ أهل الأديان إلاّ المســلمين إذن ؟!

قلنا لهم : الأمر إذن فيه شيىء ، إذا سمحتم لنا أن نقول بصراحة وحريّة : هذا راسب من رواسب الحروب الصليبيّة ، هي عقدة قديمة مع الإسلام والمسلمين يجب أن تتحرروا منها .

لا ينبغي - إذا كنّا نريد أن نتحاور بحقّ - أن نتحاور ونفوسنا مليئة بالعقد ، يجب أن نحلّ هذه العقد وأن نتعامل معًا ونتحاور معًا ندًّا لندٍّ .

نحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس ، دعونا من الحروب الصليبيّة وما حدث فيها ، ولنبدأ صفحة جديدة .

أمّا إذا أصررتم على أن تعاملوا المسلمين بهذه الروح ، فلن يُفلح حوار ، ولن يفلح لقاء .

لماذا الخوف من الإسلام ؟ :

لماذا تخافون الإسلام ؟ ما هذه المقولات التى تظهر ما بين الحين والحين تحمل التخويف من الإسلام .. التخويف ممّا سمّوه : الخطر الأخضر ؟

---

(١) رواه الطبراني عن حذيفة بن اليمان ، من رواية عبد الله بن أبى جعفر الرازي وهو مختلف فيه ، فقد ضعّفه بعضهم ووثقه آخرون ، ويشهد للحديث أحاديث أخرى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥١٤ برقم ٩٩٧) .

لقد زال الخطر الأحمر بزوال الاتحـــاد الســـــوفيتي ٠٠دولة الشرّ كما سمّاها (ريجن) ، وزال الخطر الأصفر الصيني بتقارب الصين مع الغرب ، قالوا : وبقي خطر واحد ، هو المخوف وهو المرعب وهو المهدِّد ، وهو خطر الإسلام !

وعلى هذا وقفوا جميعاً مع الصرب ضد المسلمين في البوسنة والهرسك ، وقف معهم الكاثوليك الفرنسيّون ، ووقف معهم البروتستانت البريطانيون ،ووقف معهم الأرثوذكس الروس واليونان ، وقفوا جميعًا لتأييد هؤلاء الذين يقولون عن أنفسهم : نحن فرسان الصليب ، نحن ندفع عن أوربّا خطر الإسلام الزاحف إليها ، نحن نقدّم خدمة للغرب كلّه فيجب أن يساعدنا الغرب ٠

وقد ساعدهم الغرب بالفعل ٠

هذا هو للأسف ما يجري ٠

إنّ الإسلام يفتح ذراعه للجميع ، وهو ليس خطرًا إلاّ على المادّيّة والإلحاد ، وعلى الإباحيّة والفساد ٠

ليس الإسلام خطرًا ، ولكنه رحمة الله للعالمين : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١) ٠

ولن ينقذ البشريّة المعذّبة ٠٠ الحائرة ٠٠ القلقة ذلك القلق المَرَضِيّ ، لن ينقذها ممّا تعاني من أزمات وويلات ، إلاّ هذا الإسلام ، يوم يحمله مسلمون ٠٠ صادقون ٠٠ واعون ٠٠ صدقوا الله ما عاهدوه عليه : ﴿ ٠٠ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٢) ٠

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل يوم المسلمين خيرًا من أمسهم ، وأن يجعل غدهم خيرًا من يومهم ، وأن يغفر لنا ما مضى ، ويصلح لنا ما بقي ، إنه سميع قريب ٠

أقول قولي هذا - أيّها الإخوة والأخوات - وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم ٠

* *

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ ٠

(٢) الأحزاب : ٢٣ ٠ وأولها : ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ ٠

● الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

جنون إسرائيل بعد الضربات الفدائيّة :

جُنّ جنون إسرائيل ، بعد أن ضُربت تلك الضربات الفدائيّة القويّة في عُقر دارها · · في تل أبيب ، وفي القدس التي تحكمها ، ضربات الشباب الذين باعوا أنفسهم لله ، وضحّوا بها رخيصة ليؤدّبوا إسرائيل ·

وهي الآن تحاول الانتقام ·

دمّرت بيت الشاب الفدائيّ المؤمن الذى ضحّى بنفسه لله عزّ وجلّ ، وتريد الآن أن تحاصر وتعلن الحرب ، سرّيّة وعلنيّة ، واتخذت من الخطوات ما تريد به القضاء على الحركة الإسلاميّة · · حركة المقاومة الإسلاميّة (حماس) ·

تريد إسرائيل أن تحتلّ الأرض ، وتنتهك العرض ، وتشرّد الأهل ، ولا يقف أحد ضدّها ·

ماذا أخذ الفلسطينيون منها إلى الآن ؟ كلامًا ووعودًا ، ولم يحصلوا منها على شيىء ذى بال للأسف ·

ولهذا لابدّ أن تظلّ المقاومة حيّة وقائمة ، لا بدّ أن يظلّ الجهاد ، ولا يمكن أن تُستردّ الحقوق إلاّ بالجهاد ·

فلسطين كلّها أرض إسلاميّة ، واغتصاب اليهود لها لا يعطيهم الحقّ ولا المشروعيّة في البقاء فيها ، هم أخذوها بالقوّة فيجب أن يُطردوا منها بالقوّة ·

قد يفعل الساسة ما يفعلون، ويرضخون لما يرضخون، ولكن أحكام الشرع باقية .

أرض الإسلام يجب أن تظلّ أرضًا للإسلام ·

أرض الإسراء والمعراج ،أرض النبوّات ، والأرض التي بارك الله فيها للعالمين ، ووصفها القرآن بالبركة في ستّة مواضع ، هذه الأرض يجب أن تظلّ إسلاميّة ·

قالوا : الأرض مقابل السلام !

أيّ أرض وأيّ سلام ؟!

أرضنا مقابل سلامهم ! يجب أن نسلّمهم أرضنا ، أو نسمح لهم بالبقاء في أرضنا ، أو نسمح لهم بمشروعيّة امتلاك أرضنا ، في مقابل أن يعيشوا في سلام !

أيّ صفقة هذه ؟!

ومع هذا فما سلّموا الأرض إلى اليوم ، يريدون سلاماً بلا مقابل .

ولهذا ينبغي أن يظلّ الجهاد ، وأن تظلّ المقاومة .

وما دام هناك شباب باعوا أنفسهم لله ، ووضعوا رؤوسهم على أكفّهم ، وأرواحهم في أيديهم ، وقالوا : يا رياح الجنّة هبّي ، ويا خيل الله اركبي . ما دام هذا الشباب المؤمن الذي لا يُبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، هؤلاء الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة ، وقد باعوا وأرادوا أن يسلّموا حتى يستحقّوا الثمن ، ما دام هؤلاء الشـــباب باقين ماضـــين فى طريقهم ، فنحن بخير إن شاء الله .

وليفعل اليهود ، ولتفعل إسرائيل ما تشاء ، ولتهدّد ما تهدّد ، فإنّها لن تقف ذلك الفدائىّ الذى لا يُبالي ما يصيبه في سبيل الله :

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا على أيّ جنب كان فى الله مصرعي

اللهّم انصر الإسلام وأعزّ المسلمين .

اللهّم اجعل كلمة الإســـلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السّفلى .

اللهّم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك في فلسطين ، وفي لبنان ، وفي كشمير ، وفي البوسنة والهرسك ، وفي كلّ مكان من أرض الإسلام .

اللهّم عليك باليهود الغادرين ، اللهّم عليك بالصربييّن الحاقدين ، اللهّم عليك بالوثنييّن المتعصّبين ، اللهّم عليـــك بأعدائك أعداء الدين ، اللهّم رُدّ عنّا كيدهم ، وفلّ حدّهم ، وأدل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ، اللهّم أنزل عليهم بأسك الذي لا يردّ عن القوم المجرمين ، اللهّم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر .

اللهّم أيد إخواننا المضطهدين في سبيلك ، اللهّم أمدّهم بملأ من جندك ، وأيدهم بروح من عندك ، واحرسهم بعينك التى لا تنام ، واكلأهم في كنفك الذي لا يُضام .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئناً ، سخاء رخاء وسائر بلاد الإسلام .

اللّهّم ارفع مقتك وغضبك عنّا ، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا . اللّهّم آمين .

عباد الله ، يقول الله تبـــارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

اللّهّم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمدّ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ . (٢) الحشر : ١٠ .
(٣) الأحزاب : ٥٦ . (٤) العنكبوت : ٤٥ .

١٥ ـ منع كتاب (الحلال والحرام) في فرنسا [(١)]

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

طلب إليّ بعض الإخوة أن أحدّثكم في قصّة كتابي (الحلال والحرام في الإسلام) ، ومنعه من وزارة الداخليّة الفرنسيّة ، وأسباب هذا المنع ، وقد نشر ذلك في عامّة الصحف ووسائل الإعلام .

تساؤلات من أنحاء العالم حول منع الكتاب :

والحقيقة أنّي طوال هذا الأسبوع كنت في شغل شاغل حول هذا الأمر ، منذ مساء الجمعة الماضية ، والاتصالات الهاتفيّة والاتصالات برسائل (الفاكس) من العالم العربي ومن العالم الأوربي ، ومن أمريكا ومن غيرها ، تسأل ، عن سرّ هذا المنع ، ما الذي في الكتاب حتى يُمنع ؟

الكتاب كتاب للتعليم لا للمواجهة :

قلت لهم : في الحقيقة إنّني في غاية الاستغراب والدهشة ، لا أجد في الكتاب شيئاً يمكن أن يكون سببًا للمنع ، هذا كتاب تعليمي ، وليس كتاب مواجهة ، كتاب يعلّم المسلمين ما ينبغي أن يكون عليه سلوك المسلم في حياته الفرديّة ، وفي حياته الأسريّة ، وفي حياته العامّة ، في كلّ ما يتعلّق بفكرة (الحلال والحرام) في هذه الأمور ، وهي فكرة أساسيّة في كلّ دين .

الكتاب مُتهم من المتشدّدين بالتساهل والتيسير :

لا يتعرّض الكتاب للمواجهة ولا يدعو إلى عنف ، وليست لهجته لهجة

---

(١) في يوم الجمعة ٥ / ١٢ / ١٤١٥ هـ - ٥ / ٥ / ١٩٩٥ م فوجىء المسلمون والعالم الإسلامي بقرار وزير الداخليّة الفرنسي (شارل باسكوا) بمصادرة كتاب (الحلال والحرام في الإسلام) للشيخ القرضاوي ، واعتبر القرار الذى نشر في الجريدة الرسميّة الفرنسيّة إنّ « تداول هذا الكتاب في فرنسا من شأنه أن يتسبّب في أخطار للأمن العام ، نظراً إلى نبرته المعادية للغرب وأفكاره المخالفة للقوانين والقيم الأساسيّة التي تقوم عليها الجمهوريّة الفرنسيّة » !! .

تشنّج ، بل لهجة تسامح وتيسير ، والذين انتقدوا هذا الكتاب من المسلمين إنّما انتقدوه لأنّه كتاب ميسّر ، وكتاب متسامح أكثر من اللازم ، حتى قال بعض الإخوة المتشدّدين على سبيل النكتة : هذا كتاب (الحلال في الإسلام) ، إشارة إلى أنّه كتاب يضيّق دائرة المحرّمات .

ولمّا سُئلتُ - فى دولة البحرين - منذ عدّة سنوات : مالك تميل إلى تضييق المحرّمات ؟ قلت هم : لست أنا الذى يميل إلى تضييق المحرّمات ، الإسلام هو الذي ضيقّ في المحرّمات ، المحرّمات محدودة ، وكلّ ما عدا ذلك مباح ، فالأصل في الأشياء الإباحة ، والنبي ﷺ يقول : « ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإنّ الله لم يكن لينسى شيئا » ثمّ تلا النبي ﷺ قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (١) ، هذا هو الحديث الذي رواه أبو الدرداء عن النبي ﷺ (٢) .

الكتاب مُتهم بالتساهل والتيسير والتسامح ، فكيف يمنع مثل هذا الكتاب ؟!

الكتاب ليس ابن اليوم :

ثمّ إنّ هذا الكتاب ليس ابن اليوم ولا وليد الأمس إنّ له نحو ستّ وثلاثين سنة يوزّع ويُنشر في آفاق العالم الإسلامي كلّه .

نُشر باللغة العربية في مصر .. في لبنان ..في سوريا .. فى الجزائر .. في المغرب .. في الكويت .. حتى في أمريكا .

أعتقد أنّه نُشر بالعربيّة ما لا يقلّ عن خمسين مّرة ، بعضها بإذن المؤلّف ، وبعضها من غير إذنه .

ترجمة الكتاب إلى لغات العالم المختلفة :

ثمّ ترجم إلى لغات عدّة ، لا أكاد أعـــرف لغة ذات قيمة إلاّ وتُرجم إليها الكتاب ، أحياناً بإذن المؤلّف ، وأحياناً بغير إذنه .

كنت منذ سنوات في اجتماع منظمة الدعوة الإسلاميّة في (أوغندا) وفي

---

(١) مريم : ٦٤ .

(٢) رواه الحاكم وصحّحه وأخرجه البزار (الحلال والحرام في الإسلام : ص ٢٣) ط . المكتب الإسلامي .

عاصمتها (كمبالا) ، وبعد صلاة الجمعة قُدّمت لألقي كلمة في النّاس ، وقال مقدّمي : إنّ هذا هو فلان صاحب كتاب (الحلال والحرام) الذي قرأتموه بلغتكم السواحليّة ، وسألت الأخ بعد ذلك : هل ترجـم الكتاب إلى السواحليّة ؟ قال : نعم ، ومن سنوات عدّة ، وطُبع عدّة طبعات .

ومنذ سنوات كنت في الجامعة الإسلاميّة العالميّة في إسلام آباد في باكستان ، والتقيت بالطلبة الصينيّين والطالبات الصينيّات - حوالي خمسين طالباً جاءوا من الصين ليدرسوا في هذه الجامعة - وبعد أن فرغت من المحاضرة والأسئلة ، وإذا بعدد من الطلاب جاءوا بكتاب (الحلال والحرام) يريدون منّي التوقيع عليه ، قالوا : هذا كتاب تُرجم إلى لغتنا الصينيّة ، وما عرفت هذا من قبل .

الكتاب - والحمد لله - انتشر في الآفاق ، بالعربيّة وبغير العربيّة ، باللّغات الإسلاميّة وباللّغات الأجنبيّة .

أصل تكليفي بتصنيف هذا الكتاب :

وأصل هذا الكتاب - في الواقع - كان تأليفه بتكليف من مشيخة الأزهر ، في عهد شيخها الأكبر وشيخنا الشيخ محمود شلتوت رحمه الله ، وبتكليف مباشر من المدير العام لإدارة الثقافة الإسلاميّة الأستاذ الدكتور محمّد البهي رحمه الله ، وكان ذلك بناء على طلبات من الجاليات الإســلاميّة والأقليّات الإسلاميّة في الأقطار المختلفة ، في أوربّا وأمريكا واستراليا وغيرها .

طلبات عدة جاءت تطلب من الأزهر ومن وزارة الأوقاف في مصر : الكتابة في عدّة موضوعات .. ثلاثين موضوعا ، من هذه الموضوعات : ما يحلّ للمسلم وما يحرم عليه ، وكلّفت بالكتابة في هذا الموضوع .

كان الأصل في الكتاب أن يؤلّف ليترجم إلى اللغات الأخرى ، ليقرأه المسلمون باللّغات الأخرى ، وتقرأه الجاليات المختلفة في البلدان المختلفة .

والحمد لله ألّفت الكـتاب منذ سـنة (١٩٥٩) م ، وأثنت عليه اللجنة المختصة ، وأقرّته مشيخة الأزهر ، وكتب فيه المفكّر الإسلامي المعروف الأستاذ محمد المبارك تقريراً قال فيه : إنّ هذا الكتاب هو خير كتاب في موضوعه فيما أعلم .

كتاب أُقر من أكبر هيئة علميّة إسلاميّة فى العالم ، وهي (الأزهر الشريف) ، ماذا بعد ذلك ؟!

ثمّ تلقّاه العالم الإسلامي كلّه بقبول حسن ، وأثنى عليه كبار العلماء ، قال الفقيه الكبير الأستاذ مصطفى الزرقاء : إنّ اقتناء هذا الكتاب واجب على كلّ أسرة مسلمة ، وقرّره الأستاذ الكبير الشيخ علي الطنطاوي فى تدريس مادّة الثقافة الإسلاميّة ، حينما كان يقوم بتدريسها في كلّيّة الشريعة وكلّية التربية بمكّة المكّرمة . وكتب إليّ الأستاذ أبو الأعلى المودودي حين وصلته نسخة من الكتاب يقول : إنيّ أعتزّ بهذا الكتاب واعتبره إضافة جليلة إلى مكتبتي ، وخرّج أحاديثه المحدّث المعروف الشيخ ناصر الدين الألباني (١) .

وقدّمت طالبة - في أوائل الستينيات - من جامعة البنــجاب بلاهور في باكستان : دراسة حوله ، حصلت بها على الماجستير ، وكذلك طالب في جامعة كراتشي .

العالم الإسلامي تلقّى الكتاب كلّه بالقبول ، ولم أر أحدًا قال : إنّ الكتاب يحمل دعوة إلى العنف أو أيّ شيىء من هذا .

فالغريب أن يصدر من وزارة الداخليّة الفرنسيّة ، هذا القرار الذي يمنع تداول الكتاب وبيعه ونشره ، باللّغتين العربيّة والفرنسيّة (٢) .

أسباب المنع عند الداخليّة الفرنسيّة وتفنيدها :

لماذا ؟ وهذا أعجب .

التعليل والحيثيّات التي استند إليها هذا القرار المتعسّف : إنّ هذا الكتاب فيه لهجة تحمل عداء واضحًا للغرب ، وأنّه مخالف ومعارض للقيم والقوانين الأساسيّة التى تقوم عليها الجمهوريّة الفرنسيّة !! .

هل في الكتاب لهجة معادية للغرب ؟ :

حينما سُئلت عن هذا ، قلت : إنّ هذا كلام غير صحيح بالمرّة ، لا يحمل الكتاب أيّ لهجة أو أيّ نبرة عدائيّة لا للغرب ولا للشرق .

---

(١) في كتابه (غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام) ، وهو نوع من التكريم للكتاب وصاحبه ، فعلماء الحديث من قديم لا يخرّجون أحاديث الكتب المغمورة أو التافهة ، إنّما يخرّجون الكتب التي لها قيمة ووزن علمى وشهرة عند أهل العلم وجماهير الناس .

(٢) علماً بأنّ الكتاب كان يُوزّع في فرنسا منذ عام (١٩٩٠ م) بالتعــاون بين داري النشر : (عكاظ) في باريس ، و (ريحان) في المغرب ، فما سرّ هذا التوقيت ؟! .

من قرأ الكتاب من أوّله إلى آخره لا يلحظ فيه هذه اللّهجة ، لأنه - كما قلت - كتاب يعلّم المسلمين ما ينبغي أن يعرفوه من أمور الحلال والحرام ، ليس فيه أيّ نبرة عدائيّة إطلاقاً .

بالعكس ، الكتاب في فصله الأخير يتحدث - بإجمال عن (علاقة المسلم بغير المسلم) ، وهي علاقة تقوم علي آيتين من كتاب الله - كما حدّد ذلك الكتاب - في سورة (الممتحنة) تُعتبران دستورًا للعلاقات مع غير المسلمين ، يقول الله تعالى : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

هنا انقسم غير المسلمين إلى هذين النوعين :

نوع لم يقاتل المسلمين في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم ، وليس بيننا وبينهم عداوة ، فهؤلاء لا ينهى الإسلام « أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم » .

العلاقة بيننا وبينهم قائمة على القسط والبرّ ، القسط : العدل ، والبرّ : الإحسان ، البرّ كلمة أعظم من العدل وأوسع ، العدل : أن تعطي الإنسان حقّه ، والبرّ : أن تتفضّل فتعطيه فوق الحق ، وأن تتنازل عن حقّك أحياناً .

هذا هو البرّ ، وهي الكلمة التي يعبر بها المسلمون عن أقدس الحقوق البشريّة وهو : حقّ الوالدين ، حين يقولون : برّ الوالدين .

فالإسلام جاء يحثّ على أن نعامل غير المسلمين الذين لم يقاتلونا ولم يخرجونا من ديارنا ، بأن نبرّهم ونقسط إليهم ، فإنّ الله يحبّ المقسطين .

منزلة أهل الكتاب في الإسلام :

هذا في شأن غير المسلمين عامّة ، لأنّ هذه الآيات نزلت في شأن المشركين الوثنيّين ، أمّا أهل الكتاب فلهم منزلة خاصّة في الإسلام .

أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا ذبائحهم ، وأن يتزوّجوا من نسائهم ، كما صرّحت بذلك آية من كتاب الله من سورة (المائدة) ، وهي من أواخر ما نزل من

---

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ .

القــرآن : ﴿ .. وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ، والمحْصَنَاتُ مِّنَ المؤْمِنَاتِ وَالْمحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ .. ﴾ [1] .

أباح الإسلام للمسلم أن يتزوّج من الكتابيّة ، أي : أن تكون ربّة بيته ، وشريكة حياته ، وأمّ أولاده ، وأن يكون أصهاره من أهل الكتاب ، وأن يكون أجداد أولاده وجدّاتهم وأخوالهم وخالاتهم وأولاد أخوالهم وأولاد خالاتهم من هؤلاء الكتابيّين ، لأن الله ربط بين النّاس بلحـــمتين : لحمة النسب ولحمة المصــاهرة كمــا قال تعــالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. ﴾[2] .

فما دام قد أجاز التزوّج من هؤلاء فمعناه : أباح مخالطتهم ، وأباح أن يكونوا أقرباءه ، وأن تقوم بينهم المودّة والرحمة .

أيّ سماحة أعظم من هذه السماحة ؟!

لا يمكن أن يرقى دين في السماحة إلى هذا الحد .

وأكثر من ذلك أنّ (النّصارى) لهم وضعيّة خاصّة ، لهم منزلة أخصّ في أهل الكتاب قال الله تعالى : ﴿ .. وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .. ﴾ [3] .

بل الإسلام يوصي بالرحمة بالحيوان :

هذا ما ذكره الكتاب في الفصل الأخير وقال [4] : وكيف يبيح الإسلام للمسلم أن يسيء إلى غير المسلم أو يؤذيه ، وهو يوصي بالرحمة بكل ذي روح ، وينهى عن القسوة على الحيوان الأعجم .

لقد سبق الإسلام جمعيّات الرفق بالحيوان بثلاثة عشر قرنا ، فجعل الإحسان إليه من شعب الإيمان ، وإيذاءه والقسوة عليه من موجبات النّار .

ويحدّث رسول الله ﷺ أصحابه عن رجل وجد كلباً يلهث من العطش ،

---

(١) المائدة : ٥ . (٢) الفرقان : ٥٤ . (٣) المائدة : ٨٢ .

(٤) أنظر ص ٣١٠ - ٣١١ من كتاب (الحلال والحرام فى الإسلام) ط . المكتب الإسلامي .

فنزل بئراً فملأ خفّه منها ماء ، فسقى الكلب حتى روي ، قال الرسول ﷺ : « فشكر الله له فغفر له » فقال الصحابة : يا رسول الله ، إنّ لنا في البهائم أجرا ؟ قال : « في كلّ كبد رطبة أجر » [1] .

وإلى جوار هذه الصورة المضيئة التي توجب مغفرة الله ورضوانه يرسم النبي صورة أخرى توجب مقت الله وعذابه فيقول : « دخلت امرأة النّار في هرّة حبستها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض » [2] .

فإذا كان الإسلام رحمة عامّة للحيوانات والبهائم فكيف لا يكون رحمة للإنسان ؟

هذا ما جاء به الكتاب ٠

فكيف يقال : إنّه يحمل لهجة واضحة عدائيّة للغرب ؟!

وأنا قلت لمندوب القسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية حينما سألني عن هذا : أنا أتحدّى الوزير الفرنسي أن يأتي لي بشيء يدلّ على أنّ الكتاب يحمل لهجة عدائيّة للغرب ٠٠ في أيّ فصل من الكتاب ؟ وفي أيّ صفحة منه ؟ وفي أيّ سطر ؟ ليدلّني على هذا ٠

الكتاب لا يحمل أيّ شيء من هذا الذي قاله ٠

هل في الكتاب خطر على القيم والقوانين الأساسيّة لفرنسا :

كيف يقول : إنّ الكتاب يشكّل خطراً على الأمن العام في فرنسا ، لأنّه يحمل لهجة معادية للغرب بوضوح ، ولأنّه يعارض القيم والقوانين الأساسيّة في فرنسا ؟!

قلت لهم : ما القيم التي يعاديها الكتاب وتقوم عليها فرنسا ؟ قال لي مندوب الإذاعة البريطانيّة : إنّهم يقولون : إنّ الكتاب يدعو المرأة إلى طاعة زوجها ، وهذا تفريق بين الجنسين ، والدستور الفرنسي يسوّي بينهما ٠

---

(١) رواه مالك ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن حبان في صحيحه بلفظ قريب ، من حديث أبي هريرة ، وانظر تعليق الشيخ القرضاوي عليه في (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٠٠ برقم ٤٩٥) ٠

(٢) رواه البخاري ، وللحديث روايات أخرى أنظرها في (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٢٨ برقم ١٣٣٣) ، والمراد بخشاش الأرض : حشرات الأرض ونحوها ٠

وعرفت من الإخوة في فرنسا أنّهم قالوا : إنّ الكتاب يقول إنّه يجوز للزوج أن يضرب امرأته الناشز ، صحيح إنّ الكتاب قال إنه يضربها ضرباً خفيفاً غير مبّرح ولا يكون في الوجه ... الخ ، ولكن أجاز الضـرب ، وهذا معارض للقوانين الفرنسيّة .

قلت له : هذا ليس رأى الكتاب ، وليس رأى المؤلّف ،هذا هو الإسلام ، هذا ما جاء في القرآن ، القرآن يقول : ﴿ .. وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَـعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً .. ﴾ (١) هذا في حالة النشوز ، وليس في الحالة العاديّة .

والقرآن لم يأمر بالضرب ابتداء وإنّما قال : « فعظوهنّ » . وينبغى للرجل - عند حالة النشوز - أن يبدأ بالوعظ .. بالكلمة المؤثّرة .. بالإرشاد الحكيم .. بتخويف امرأته من الناحية الدينيّة ومن الناحية الدنيوية ، وينبغي أن يستمر في ذلك فترة من الزمن .

فإذا لم يُجد هذا انتقل إلى المرحلة الثانية وهي : الهجر في المضجع .. في السرير ، لا يعتزل عنها في حجرة أخرى ، بل في نفس المضجع ، لعلّه يوقظ فيها غريزة الأنثى ، فتراجع نفسها ، وتتخلّى عن نشوزها .

ثمّ إذا لم تُجد هذه الوسـيلة ولا تلك ، يلجأ إلى هذه الوسيلة الأخيرة : الضرب ، لجوء المضطرّ .

وقلت في الكتاب : إنّ هذا قد يصلح لبعض النساء ، وفي بعض الأحوال ، وبقدر معينّ ، وليس أمرًا عامًّا ، لأنّه قد يفسد في بعض النساء ، بعض النساء لا تحتمل الضرب ، ولا تقبله ، ولكن بعض النساء ربّما تتلذّذ بالضرب .

والزوج الحكيم هو الذي يعرف متى يستخدم هذا الأمر ، إن اضطرّ إليه ، وأُجبر عليه .

والنبي ﷺ حينما علّق على هذا الأمر قال : « أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته أوّل النّهار ويجامعها آخره » (٢) يعني : حسن العشرة لا يليق منه أن يضرب الرجل امرأته .

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) أنظر : البخاري - كتاب النكاح ، باب : ما يكره من ضرب النساء ، وقد روي في ذلك حديث عبد الله بن زمعـــة ، وقد رواه مسلـــم وأحمـــد وأصحاب الســـنن بألفاظ =

وقال عليه الصلاة والسلام عن الذين يضربون النساء : « ولا تجدون أولئك خياركم » (١) ، خيار الناس لا يضربون نساءهم .

ولذلك نجد النبي عليه الصلاة والسلام لم يضرب في حياته امرأة ولا خادماً ولا دابّة ولا شيئاً ما .

وإذا اضطرّ الإنسان للضرب ، فليس معنى هذا أن يأتي بسوط أو بخشبة ويضرب بها امرأته ، إنّما هو من نوع ما قاله النبي ﷺ لخادم عنده اغضبته في أمر من الأمور ، فأمسك بالسواك وقال لها : « لولا مخافة القَوَد [أي القصاص] يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك » (٢) .

= مختلفة ، ذكرها الحافظ ابن حجر في (الفتح : ٩ / ٣٠٣) حديث (٥٢٠٤) . وانظر : (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : ٩ / ٤١٩٠) .

(١) رواه أبو داود (٢١٤٦) وابن ماجه (١٩٨٥) والدارمي (٢ / ١٤٧) والنسائي في الكبرى ، وابن حبان في صحيحه (الإحسان : ٩ / ٤١٨٩) والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي (٢ / ١٨٨ ، ١٩١) كلّهم عن ابن أبى ذباب ، وله شاهد من حديث ابن عباس عند ابن حبان (٤١٨٦) وآخر مرسل عند البيهقي (٧ / ٣٠٤) من حديث أم كلثوم بنت أبى بكر ، ونصّ الحديث كما عند ابن حبان : « لا تضربوا إماء الله » قال : فذئر النساء (أي نشزن) وساء أخلاقهنّ على أزواجهنّ ، فقال عمر بن الخطاب : ذئر النساء وساءت أخلاقهنّ على أزواجهنّ ، منذ نهيت عن ضربهنّ ، فقال النبى ﷺ : « فاضربوا » فضرب الناس نساءهم تلك الليلة ، فأتى نساء كثير يشتكين الضرب ، فقال النبي حين أصبح : لقد طاف بآل محمّد الليلة سبعون امرأة كلّهنّ يشتكين الضرب ، وأيم الله لا تجدون أولئك خياركم » ، وأمّا حديث ابن عباس الذي أشرنا إليه ، فنصه : إنّ الرجال استأذنوا رسول الله في ضرب النساء ، فأذن لهم ، فضربوهنّ ، فبات فسمع صوتاً عاليا ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : أذنت للرجال فى ضرب النساء ، فضربوهنّ ، فنهاهم ، وقال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

(٢) رواه الطبرانّي في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك ، وأبو يعلي فى مسنده ، عن أمّ سلمة ﵂ ، ورمز له السيوطيّ بالحسن (الجامع الصغير : ٢ / ١٣٣) ، قال المنذري : رواه أبو يعلى بأسانيد أحدها جيّد (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٩٣١ برقم ٢٢٦١) ، وقال الهيثمي : أسانيده عند أبي يعلى والطبراني جيّدة (فيض القدير : ٥ / ٣٤٤ برقم ٧٥٢٥) .

فهذا ما جاء به الكتاب ، ولم يفتح الكتاب الباب ليقول للرجال : اضربوا نساءكم ٠

حدود طاعة المرأة للرجل :

أمّا مسألة إنّ المرأة تطيع الرجل ، فهذا مبنيّ على قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ٠٠ ﴾ (١) ، الرجال هم المسؤولون ٠

أيّ شركة لابدّ أن يكون لها مدير ، لابدّ أن يكون لها رئيس ، لا يمكن أن يكون لها رئيسان متكافئان في السلطات ، المركب التي فيها رئيسان – كما يقولون – تغرق ، لابدّ من رئاسة مسؤولة ، فمن أحقّ بالرئاسة : الرجل أوالمرأة ؟

القرآن قال : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ٠٠ ﴾ (٢) ، ومن لطائف التعبير القرآني أنّه لم يقل : الرجال قوّامون على النساء بما فضّل اللهّ الرجال على النّساء ، لا ، ولكنّه قال : « بما فضّل الله بعضهم على بعض » أي أنّ النساء مفضّلات فى بعض الجوانب ، والرجال مفضّلون في بعض الجوانب ٠

المرأة مفضّلة بما لديها من جهار عاطفِي هيّأه الله فيها لتكون أمًّا ، والرجل عنده الجهاز العقلي أقوى ، فهو أبصر بالعواقــب ويمكن أن يتحكّم في عواطفه أكثر من المرأة ، ثمّ هو الذي ينفق على تأسيس الأسرة ، يدفع مهرًا ويؤسّس بيتًا ، فإذا انهدمت الأسرة انهدمت على أمّ رأسه ٠

من أجل هذا جعل الله الرجال قوّامين على النّساء ٠

وهذا لا ينفي المساواة ، لأنّ أصل المساواة ثابت بالكتاب والسنّة :

القرآن الكريم قال : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ٠٠ ﴾ (٣) ، أي أنّ المرأة من الرجل والرجل من المرأة ، كلّ صنف يكمّل الآخر ، ليس أحدهما خصماً لصاحبه ، ولا عدوًّا له ٠

(١) النساء : ٣٤ ٠ (٢) النساء : ٣٤ ٠

(٣) آل عمران : ١٩٥ ٠

والمرأة مكلّفة مثل الرجل تماماً ، فالتكاليف القرآنيّة للجميع ٠٠ حينما يقول : « يا أيها الذين آمنوا » موجّهة إلى الرجال وإلى النساء جميعا ، حتى التكاليف الاجتماعية يقول القرآن الكريم: ﴿ وَالْمؤْمِنُونَ وَالمؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ ٠٠ ﴾ (١) ، المرأة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مثل الرجل ٠

فليست المرأة دون الرجل في الإنسانيّة ، ولا في الواجبات الاجتماعيّة والواجبات الدينيّة ، هى مكلّفة مثل الرجل ، وتُجازى بالجنّة مثل الرجل ، أو بالنّار مثل الرجل ، المسؤوليّة واحدة ، والجزاء واحد ، هذا هو ما جاء به الإسلام ٠

والنّبيّ ﷺ يقول : « إنّما النّساء شقائق الرجال » (٢) .

عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - وقف أمام المرآة يوماً يجمّل من نفسه ، ويأخذ من لحيته ، ويرجّل من شعره ، فقال له نافع مولى ابن عمر : ما هذا يا ابن عمّ رسول الله ، أتقف أمام المرآة تجمّل في نفسك ، وإليك يضرب النّاس أكباد الإبل من شرق وغرب ليستفتوك في دين الله ؟! قال : وماذا في هذا يا نافع ؟ إنّي أتزينّ لامرأتي ، كما تتزيّن لي امرأتي ، وإنّي أجد هذا في كتاب الله ، قال له : أين هذا في كتاب الله ؟ قال : في قول الله تعالى : ﴿ ٠٠ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ٠٠ ﴾ (١) .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمعْرُوفِ ﴾ : أي كما أنّ على المـرأة أن تتجمّل لزوجها ، على الرجل أن يتزيّن لزوجته ويتجمّل لها ٠

﴿ وللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ : بعض المفسّرين يقول : هي درجـة القوامة والمسؤوليّة ، وبعض المفسّرين - كالإمام الطبري - يقول : « وللرجال عليهنّ درجة »

---

(١) التوبة : ٧١ ٠

(٢) رواه عن عائشة : أحمد : (٦ / ٢٥٦) وأبو داود (٢٣٦) والترمذي (١١٣) والدارمي (١ / ١٩٥) كما رواه أحمد عن إسحاق بن عبد الله بـن أبى طـلحة عن جـدته أم سليم (٦ / ٣٧٧) ونسبه أيضـاً إلى البزّار عن أنـس فى صحـيح الجامع الصـغير وزيادته (٢٣٣٣) ٠

(٣) البقرة : ٢٢٨ ٠

أى فى رعاية حقوق النساء ، أنّ الرجل عليه أكثر من المرأة ، ممّا ينبغي أن يُراعى في حفظ الحقوق ، وفي رعاية الأمور (١).

هذا ما جاء به الإسلام ، وهذا ما كان وجهة الكتاب فيه ، فكيف يُقال إنّ الكتاب يعارض القيم والقوانين التى تقوم عليها الجمهوريّة الفرنسيّة ويشكّل خطراً على الأمن العام ؟! .

استياء المسلمين والأحرار في فرنسا :

الواقع أنّ المسلمين استاؤوا في فرنسا ، واتحاد المنظمات الإسلاميّة قاد حملة طيّبة ، وكتب مذكّرة إلى وزارة الداخلية ، وتجاوب الإعلام الفرنسي بحقّ في هذه القضيّة ، حتى كتب أحد الكُتّاب الفرنسيّين في جريدة (ليموند) يدافع عن الكتاب ، وينوّه بما فيه من سماحة، واتحاد الناشرين الفرنسيّين قال : إنّنا سنطبع الكتاب بالفرنسيّة ونوزعه رغم أنف وزارة الداخليّة ، وتجاوب الكثيرون وقالوا : إنّ الكتاب يحمل روح الاعتدال ، وليس فيه روح العنف بالمرّة ، ولا يشكّل أيّ خطر كما تدّعي وزارة الداخليّة .

كان الرأي العام في غالبه ضدّ هذا القرار المتعسّف الظالم ، ولذلك سرعان ما

---

(١) قال الإمام الطبري بعد أن عدّد أقوال أهل التأويل في هذه المسألة : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس ، وهو أنّ الدرجة التي ذكر الله تعالى ذكره في هذا الموضع : الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها ، وإغضاؤه لها عنه ، وأداء كلّ الواجب لها عليه ، وذلك أنّ الله تعالى ذكره قال : « وللرجال عليهنّ درجة » عقيب قوله : « ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف » فأخبر تعالى ذكره أنّ على الرجل من ترك ضرارها في مراجعته إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك من أمورها وحقوقها ، مثل الذي له عليها من ترك ضراره في كتمانها إيّاه ما خلق الله في أرحامهنّ وغير ذلك من حقوقه ، ثمّ ندب الرجال إلى الأخذ عليهنّ بالفضل إذا تركن أداء بعض ما أوجب الله لهم عليهنّ فقال تعالى ذكره : « وللرجال عليهن درجة » بتفضّلهم عليهن ، وصفحهم لهنّ عن بعض الواجب لهم عليهنّ ، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس بقوله : ما أحبّ أن استنظف جميع حقّي عليها ، لأنّ الله تعالى ذكره يقول : « وللرجال عليهنّ درجة » ، ومعنى الدرجة : الرتبة والمنزلة ، وهذا القول من الله تعالى ذكره وإن كان ظاهره ظاهر الخبر ، فمعناه معني ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل ليكون لهم عليهن فضل درجة (جامع البيان : ٢ / ٤٥٥) ط . البابي الحلبي .

تراجع الوزير ، وبعث مستشاره إلى عميد مسجد (باريس) يطلب إليه أن يلتمس الإفراج عن هذا الكتاب والرجوع عن هذا القرار ، حفظاً لماء الوجه ٠

وفعلاً كتب عميد مسجد (باريس) كتاباً يلتمس فيه هذا الأمر ، وذهب الوزير في يوم الثلاثاء الماضي إلى المسجد وأعلن أنّه سيلغي هذا القرار ، وأنّه كان خطأً إداريًّا سخيفاً !!

بل هو خطأ سياسيّ وثقافي وحضاري :

وهو في الواقع خطأ إدارى ، وخطأ ثقافي ، وخطأ سياسيّ ، وما كان ينبغي لبلد - مثل فرنسا - يزعم أنّه بلد الحرّيّات وأبو الحرّيّات ٠٠٠ الخ ، أن يقع في مثل هذه الغلطة الواضحة الفاضحة ، ويمنع كتابًا في بلد يدّعي أنّ فيه حرّيّة الرأي وحرّيّة النشر وحرّيّة التعبير ٠٠٠ الخ ٠

حينما أُرسل إليّ بالأمس هذا الكلام ، قالوا : ما تعليقك على هذا ؟ قلت : والله أنا أرحّب بهذا ، الرجوع إلى الحقّ فضيلة ، وقد قال سيّدنا عمر - رضي الله عنه - في رسالته الشهيرة في القضاء : لا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس وهُديت إلى رشدك فيه اليوم ، أن تراجع فيه نفسك ، فإنّ الحق قديم ، وإنّ الرجوع إلى الحقّ خير من التمادى في الباطل ، فإذا كان الوزير رجع إلى الحقّ فنحن نرحّب بهذا ونحيّيه على هذا ٠

ولكنّي - كما قلت لجريدة الشرق - أريد خطوة أخرى تكمّل هذه الخطوة ، وتكتب في سجلّ هذا الوزير ، وهي الرجوع عن القرار المتعسّف في مسألة الحجاب ، فقد منعوا الطالبات المسلمات من ارتداء الحجاب في مدارس فرنسا !

والحجاب فرض دينيّ على المسلمة ، الله تعالى يقول : ﴿ ٠٠ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ٠٠ ﴾(١) ، فالمسلمة ملتزمة بأن تغطّي رأسها ، وتغطّي نحرها وذراعيها وساقيها ، هذا فرض من الله تبارك وتعالى ، وليست المسلمة حرّة فيه ٠

فينبغي أن تُترك للمسلمة حرّيّة ممارسة دينها ، ولا تُجبر على أمر يخالف شرع ربها ، فهذا ينافي الحرية الدينية ، ويُنافي الحرية الشخصيّة ٠

---

(١) النّور : ٣١ ٠

وهذا ما قلته لهم حينما اشتركت في المؤتمر الذي كان بين المسلمين وغير المسلمين في شهر أكتوبر من العام الماضي .

العبرة من هذا الدرس :

هذه - أيّها الإخوة - هي قصّة هذا الكتاب ، وقصّة وزارة الداخليّة الفرنسيّة .

والعبرة من هذا : أننّا نحن المسلمين ينبغي لنا أن نتمسّك بحقنا ولا نفرّط فيه ، صحيح أنّه - للأسف - لم تقم أيّ جهة من الجهات المسؤولة - لا منظمة المؤتمر الإسلامي ، ولا جامعة الدول العربية ، فيما عدا المنظمة الإسلاميّة للثقافة والتربية والعلوم لم يقم أحد من هؤلاء - بأيّ خطوة ، وهذا يدلّنا - للأسف - على أن مؤسساتنا متخلفة ولا تحسّ بالأمور ، ولكن إخوتنا في فرنسا قاموا بما ينبغي عليهم .

نحن أصحاب الحق ، نحن ندعو إلى الدين الحق ، وما دمنا ندعو بالحكمة والموعظة الحسنة ونحاور بالتي هي أحسن ، فلا يمكن أن نتخلّى عن موقفنا .

نحن أصحاب الرسالة الخالدة ، الرسالة التي وضع الله فيها الهداية للبشريّة ، الهداية التي تتضمّن كلمات الله الأخيرة للبشر : ﴿ .. وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

نتمسّك بحقنا ولا نفرّط فيه أبدًا ، وندعو إلى ديننا ، والحمد لله هذه الدعوة تلقى صدى واسعاً .

كان من أسباب منع الكتاب أنّهم قالوا : إنّ الكتاب يلقي رواجًا وانتشارا واسعاً بين المسلمين (٢) !! .

---

(١) النّحل : ٨٩ .

(٢) والغريب العجيب أن يصرّح بذلك مستشار وزير الداخليّة للشعائر التعبديّة (أندرى داميان) حيث قال : « نحن اخترنا هذا الكتاب لأنّه لقي نجاحاً كبيراً فهو إجراء بيداغوجي» !! وهنا بيت القصيد ، فالكتاب أصبح ممنوعاً فى جميع الأراضي الفرنسيّة لمجرّد كونه وجد إقبالاً كبيراً لدى المسلمين الفرنسيّين ، وهذا - في حدّ ذاته - يسبّب مصدر إحراج للإدارة الفرنسيّة التى تتابع باهتمام وقلق شديدين تنامي الوعي الإسلامي بين الجاليات الإسلاميّة في فرنسا ، بالإضافة إلى تزايد عدد معتنقي الدين الإسلامي من الفرنسيّين أنفسهم .

هل هذا سبب ؟!

الكتاب يلقى رواجاً لأنّه يحمل كلمة الإسلام الصادقة ، فلا بدّ أن يلقى رواجاً بين المسلمين ، وبين غير المسلمين كثير من غير المسلمين - والحمد لله - قرأ الكتاب وهداهم الله بسببه ٠

كلمة الحقّ لا بدّ أن تستمر ، ولابدّ أن نستمسك بها ، والله غالب على أمره ، والله تعالى يقول : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ٠٠ ﴾ (١) وصدق الله العظيم ٠

أقول قولي هذا ، واستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم ٠

* *

* الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

فضل عشر ذي الحجّة :

نحن الآن في عشر ذي الحجّة ، أفضل أيّام العام التي جاء فيها حديث ابن عباس في البخاريّ : « ما من أيّام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من هذه الأيام » يعني أيّام العشر (٢) ٠

يستحب فيها الصيام ، ويستحب فيها الذكر ، ويستجب فيها الصدقة ، ويستحب فيها صلة الرحم ، ويستحب فيها كلّ عمل خير ، وهو يضاعف أجره عند الله تبارك وتعالى ٠

ومن أعظم هذه الأيام أجراً يوم التاسع منها ، وصيامه - كما جاء عن النبى

---

(١) الأنبياء : ١٨ ٠

(٢) رواه البخاري ، والترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والطبراني في الكبير بإسناد جيّد ، وأبو داود الطيالسي في مسنده ، وتتمته: قالوا : يا رسول الله ، ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله ، إلاّ رجل خرج بنفسه وماله ، ثمّ لم يرجع من ذلك بشيء » ٠ انظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٥١ - ٣٥٢ برقم ٦١٠) (شرح السنة للبغوي : ٤ / ٣٤٥ برقم ١١٢٥) ٠

ﷺ - يكفّر ذنوب سنتين ، قال : « صيام يوم عرفة إنّي أحتسب لى الله أن يكفّر السنة التي بعده ، والسنة التي قبله » [1] . فصيام هذا اليوم ينبغي أن نحرص عليه .

ومن فجر يوم عرفة يبدأ التكبير عقب الصلوات ، إلى عصر آخر أيّام التشريق (٢٣ صلاة) .

وفي هذه الأيام ينبغي للمسلم القادر أن يحرص على الأضحية ، ضحّوا فإنّها « سنّة أبيكم إبراهيم » [2] ، إنّها تذكّرنا بما حدث بين إبراهيم وإسماعيل من ذلك الموقف الخالد ، الذى أسلم الوالد فيه ولده ، وأسلم الولد فيه رقبته لله عزّ وجلّ ، ففداه الله بذبح عظيم [3] ، وكانت سنّة الأضاحي تذكيراً بهذا الموقف الإنسانيّ الخالد .

الأضحية مشروعة بالكتاب والسنّة والإجماع ، ويستطيع المسلم أن يضحّي بنفسه ، أو يوكّل من يضحّي عنه ، ومن أجل ذلك قامت جمعيّة قطر الخيريّة ، وقامت المصارف الإسلاميّة ، وقامت الجهات المختلفة للتبرّع بثمن الأضحية في بلد آخر .

فتستطيع إن كنت تريد أن تجمع الحسنتين : أن تضحّي هنا وتضحّي في بلد آخر ، أو كنت لا تريد أن تضحى هنا ما دام الناس يجدون اللحم ، وتكون أضحيتك

---

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والترمذي واللفظ له ، من حديث أبى قتادة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣١٦ برقم ٥٢٥ .

(٢) عن زيد بن أرقم قال : قال أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما هذه الأضاحي ؟ قال : « سنّة أبيكم إبراهيم » ، قالوا : فما لنا فيها يا رسول الله ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » ، قالوا : فالصوف يا رسول الله ؟ قال : « بكلّ شعرة من الصوف حسنة » . الحديث عند ابن ماجه (٣١٢٧) ، والحاكم (٢ / ٣٨٩) وصحّحه ، وقال الذهبي : قال أبو حاتم : عائذ الله منكر الحديث . وفي الزوائد : في إسناده أبو داود ، واسمه نفيع بن الحارث ، وهو متروك ، واتهم بوضع الحديث .

(٣) قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (الصافات : ١٠٢ - ١٠٩)

في البوسنة والهرسك ٠٠ في فلسطين ٠٠ في الفلبين ٠٠ في البنغلادش ٠٠ في الصومال ٠٠ في السودان ٠٠ في أيّ بلد آخر من بلاد المسلمين الفقيرة ٠

والأضحية هناك أرخص من هنا ، تستطيع بثمن الأضحية الواحدة هنا أن تضحّي بثلاث في البلاد الأخرى ، وهم أشدّ حاجة ، ووكيلك هناك يذبح باسمك ، فكأنّك حاضر ، الوكيل يقوم مقام الأصيل ٠

فعلينا أن ننتهز هذه الفرصة ، ونعطي إخواننا بعض ما تجود به أنفسنا ، فالمسلمون بعضهم أولياء بعض ، والمؤمنون إخوة ، والمسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ، ولا يتركه ٠

هذه مناسبة العيد ، وهي مناسبة عظيمة وكريمة ، لا ينبغي أن يأتي العيد على إخواننا المسلمين وهم لا يجدون ما يقوتهم ، فلنوسّع عليهم كما وسّع الله علينا ، شكراً لنعمة الله سبحانه وتعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ٠٠ ﴾ (٢) .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علّمنا ، وأن يفقهنا في ديننا ، وأن يجعل لنا من أمرنا رشدا ، وأن ينصر الإسلام ويعزّ المسلمين ٠

اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفْلى ٠

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في سبيلك في فلسطين ولبنان ، وفي البوسنة والشيشان ، وفى كشمير والسودان ، وفي كلّ مكان يقاتل فيه أبناء الإسلام ٠

اللهم خذ بأيدي إخواننا المضطهدين والممتحنين ، اللهم افكك بقوتك أسرهم ، واجبر برحمتك كسرهم ، وتول بعنايتك أمرهم ٠

اللهم اجعل هذا العيد بشير خير ونصر لأمّة الإسلام ، واجعله نذير وبال وحسرة على أعداء الإسلام حيثما كانوا ٠

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) الرحمن : ٦٠ ٠ (٢) إبراهيم : ٧ ٠

(٣) آل عمران : ١٤٧ ٠

اللهم ولّ أمورنا خيـــارنا ، ولا تولّ أمورنا شرارنا ، وارفع مقتك وغضبك عنّا ، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ، واجعل هذا البلد آمنا مطمئنًّا سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

اللّهمّ صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمّد ، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيرا .

﴿ . . وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) الأحزاب : ٥٦ .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

١٦ ـ مؤتمر السّكّان بالقاهرة (١)

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

في هذه الأيام ينعقد في القاهرة .. قاهرة الأزهر .. قاهرة الدعوة إلى الإسلام .. القبلة الثقافيّة للمسلمين في أنحاء الأرض ، يشاء الله أن ينعقد فيها مؤتمر يسمّى : مؤتمر السكّان والتنمية ، تعقده الأمم المتحدة فى مصر .

ليته لم ينعقد بمصر :

وكما قلت في مصر : كنّا نربأ بمصر – بلد الأزهر وعاصمة العروبة وقلب الإسلام الخافق – أن تستضيف مثل هذا المؤتمر ، حتى لا يسير في جنباتها أولئك الشواذ : دعاة الشذوذ الجنسي ، الذين يتزوّجون من جنسهم : الرجال بالرجال والنساء بالنساء !

هذه الجمعيات الشاذة ما كان القاهرة أن تستقبلها ، كان عليها أن تغلب القيم الدينية والاعتبارات الأخلاقيّة على القيم الاقتصاديّة والاعتبارات السياحيّة .

ولدينا العبرة من السيرة النبويّة ، بل من القرآن الكريم ذاته .

حينما أرسل النبي ﷺ عليّ بن أبى طالب ليلحق بأبى بكر في موسم الحج من العام التاسع للهجرة ، ليعلن فى النّاس مبادىء أساسيّة منها : إنّه لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وكان في إعلان هذه المبادىء خسارة مادّيّة واقتصاديّة على أهل مكّة ، قالوا : كنّا نستفيد من هؤلاء كثيرا .

ولكنّ القرآن نزل يحسم القضيّة ، ويبيّن الحقائق ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .

---

(١) انعقد في الفترة من ٥ إلى ١٣ من سبتمبر ١٩٩٤ م ، تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة ، وبمشاركة أكثر من عشرين ألفاً من أعضاء الوفود يمثّلون (١٩١) دولة من أعضاء المنظمة الدوليّة .

(٢) التوبة : ٢٨ .

« وإن خفتم عيلة » أي : فقرًا وحاجة ، « فسوف يغنيكم الله من فضله » بموارد أخرى لا تحسبون حسابها ، وقد كان ، فقد فتح لهم البلاد ، وأقبل عليهم الفيء غدقا ، ووسع الله عليهم من فضله .

وثيقة المؤتمر المثيرة :

كنّا نودّ أن ترفض القاهرة هذا المؤتمر ، أما وقد انعقد هذا المؤتمر ، فقد ثار لغط كبير ، وثارت مجادلات شتّى حول مشروع برنامج هذا المؤتمر ، الذي أُعدَّ في شكل وثيقة أعدّها المسؤولون عن هذا الجانب في الأمم المتحدة .

هذه الوثيقة ، أو هذا المشروع ، ترجم باللغة العربيّة ، في مائة وإحدى وعشرين صفحة من الصفحات (الفولسكاب) الدقيقة .

لم يذكر فيها اسم الله قط :

وثيقة مطوّلة لم يذكر فيها اسم الله قط ، لا في أوّلها ، ولا في أوسطها ، ولا في آخرها ، و « كلّ أمر ذي بال لا يُبدأ ببسم الله فهو أبتر » [(١)] . فكيف بأمر يتعلّق بالعالم كلّه لا يذكر فيه اسم الله أبدا ، لا تذكر فيه القيم الإيمانيّة ولا الأخلاقيّة باعتبارها محرّكات وضوابط ، دوافع لفعل الخير ، وروادع عن ارتكاب الشر ؟!

هذه هي الوثيقة ، أو هذا هو المشروع الذي قُدّم ليكون أساس المناقشات في مؤتمر القاهرة .

عُزل الدين ،وعُزل الإيمان بالله ، وعُزل الإيمان باليوم الآخر ، وعُزلت قيم السماء عن هذه الوثيقة .

لا تلازم بين زيادة السكّان والفقر :

تربط هذه الوثيقة - أو هذا المشروع - ما بين زيادة السكّان ونموّهم المطّرد في العالم وما بين الفقر ربطاً لزوميًا ، كأنّها معادلة حسابيّة رياضيّة : إذا زاد السكّان وُجد الفقر !

وهؤلاء أناس ينقصهم الإيمان بالله ، الإيمان بأنّ لهذا الكون ربًّا خالقاً رازقاً ، تكفّل منذ خلق هذه الأرض برزق من فيها وما فيها من الأحياء .

---

(١) قال الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث (الإحياء) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة (٢٠٦/١) ط . دار المعرفة ببيروت .

ليس لهذا الأمر ذكر عندهم ، ولا يجري في بالهم ، ولا يدور في خواطرهم .

إذا زاد السكان وُجد الفقر ! وهذا قاله أحد الاقتصاديّين منذ القرن الماضي اسمه : (مالتوس) ، كان ينذر العالم بكارثة خطيرة بعد سنين قليلة ، أو عقود قليلة من السنين .

ومرّت عشرات السنين ، ومرّ قرن أو أكثر ، ولم تحدث الكارثة ، لأنّ الله هيّأ للناس أسباباً لم يكونوا يعلمونها ، الحاجة تفتق الحيلة ، وقد علّم الله الإنسان ما لم يكن يعلم : ﴿ . . وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

استطاع الناس أن يزرعوا أراضي جديدة ، وأن يعرفوا فنّ زراعة الصحراء ، وأن يقلّلوا من استخدام الماء ، بعد أن كانوا يروون بغمر الأرض بالماء ، أصبحوا يروون عن طريق الرشّ أو عن طريق التنقيط ، ويحاولون أن لا يتبخرّ الماء ويضيع سدى .

بل حاولوا زيادة الإنتاج في الأرض المزروعة نفسها عن طريق تحسين البذور ، أصبحت الأرض - المساحة نفسها - تُؤتي أكلها أضعاف ما كانت تُؤتي من قبل .

هيّأ الله للنّاس بواسطة قوانين الوراثة والتطعيم والتهجين في الحيوانات والنباتات ، تحسين النّوعيّة وتحسين الكيفيّة ، واستطاع الإنسان أن يستخدم الطاقة الشمسيّة .

هيّأ الله للنّاس أسباباً لم تكن تخطر لهم على بال ، وهؤلاء يظنّون أنّ العالم اليوم هو سيكون عالم الغد وما بعد الغد ، ما يدريكم أنّ الله سيفتح للنّاس أبواباً لا تخطر لأحد على بال ؟ : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

الله هو الرزاق :

إنّ الله تعالى من أسمائه : (الرزّاق) ، يقول عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى

---

(١) النّحل : ٨ .　　(٢) فاطر : ٢ .　　(٣) الذاريات : ٥٦ - ٥٨ .

الله رزقها [هذا تكفّل من الله عزّ وجلّ] ،ويعلم مستقرّها ومستودعها .. ﴾[1] ، ﴿ وفي السّماء رزقكم وما توعدون * فورب السّماء والأرض إنّه لحقّ مثل ما أنّكم تنطقون ﴾ [2] .

الرزق موجود ، مبثوث في هذا الكون ، مذخور في باطن الأرض ، أو منشور على ظاهرها ، منه ما عرفه النّاس ومنه ما لا يعرفوه ، منه ما لا يزال الإنسان يجهله ، حوالي ثلاثة أرباع هذه الكرة مياه : بحار ومحيطات ، سخّرها الله للإنسان ، ولم يكتشف الإنسان كل ما في البحر ، ولم يصل إلى كل ما في البحار ، ولم ينتفع بكلّ ما يعرفه في البحار .

الأرزاق موجودة ، وعلى الإنسان أن يبحث ويفكّر ويسعى في مناكب الأرض ، ويلتمس الرزق فى خباياها ، يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ هو الّذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النّشور ﴾[3] .

فمن مشى في مناكب الأرض ، من فكّر وبحث وسعى واجتهد وكدح، فإنّه جدير أن يأكل من رزق الله في هذه الأرض ، ومن تقاعس وتقاعد وتكاسل ، فهو جدير أن يحرم من رزق الله .

إنّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضّةً كما قال عمر ﷺ ، ولكن على النّاس أن ينتشروا في الأرض ويبتغوا من فضل الله ، ويبحثوا عن رزقهم ليصلوا إليه :

بين الجاهليّة القديمة والجاهليّة الحديثة :

إنّ أهل الجاهليّة قديماً كانوا يقتلون أولادهم ، إمّا من إملاق واقع ، أو خشية إملاق متوقّع ، فقال الله عز وجلّ : ﴿ .. ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نّحن نرزقكم وإيّاهم .. ﴾ [4] إذا كان الفقر واقعاً ، فقدّم كفالة رزقهم على رزق أولادهم ، وفي سورة أخرى قال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نّحن نرزقهم وإيّاكم [رزقهم مكفول لهم قبل أن يُخلقوا] ، إنّ قتلهم كان خطئًا كبيرًا ﴾ [5] .

---

(1) هود : ٦ .
(2) الذاريات : ٢٢ ، ٢٣ .
(3) الملك : ١٥ .
(4) الأنعام : ١٥١ .
(5) الإسراء : ٣١ .

والجاهليّة الجديدة تريد أن تقتل الأطفال ، ولكن في بطون أمّهاتها ، عن طريق الإجهاض ، لا .. لا ينبغي أن يُقتل الأولاد ، لا ينبغي أن نستسلم لهذه الجاهليّة الحديثة .

الرزق موجود ، مبثوث في الأرض ، منذ خلق الله هذه الأرض : ﴿ .. وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ .. ﴾ (١) . قبل أن يسوّي الله السماء خلق الأرض « .. وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها .. » الأقوات مقدّرة في هذه الأرض .

صحيح أنّ الله لا ينزل الرزق للناسّ بكثرة وبسطة ، حتى لا يطغوا ولا يبغوا في الأرض : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢) ينزّل كلّ شيء بقدر ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٣) ، حسب تقدير الله وحكمته ، يظهر الشيء في أوانه .

الله تعالى يقول في سورة أخرى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ .. ﴾ (٤) أي قبل أن يخلق الله آدم ويخلق البشريّة ، مكّن لهم في الأرض وجعل لهم فيها معايش ، هيّأ لهم معايشهم ثمّ خلقهم ، ولكن هؤلاء كأنّما يعترضون على الله ، ويظنّون أنّهم متحكّمون في كلّ شيء ، وينسون أنّ الله هو الخالق ، وأنّ الله هو الرازق ، وأنّه مدبّر الأمر كلّه : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٥) .

الرزق بيد الله ، فلا ينبغي أن نربط ما بين زيادة السكّان والفقر لا محالة ، فإنّ

---

(١) فصّلت : ١٠ . (٢) الشورى : ٢٧ . (٣) الحجر : ٢١ .
(٤) الأعراف : ١٠ ، ١١ . (٥) يونس : ٣١ .

الله سيهدي النّاس إلى طرق وأساليب تهيىء لهم المعايش والأرزاق التي ضمنها الله تعالى لهم .

تنظيم الأسرة لنسلها لمبّررات شرعيّة مقبول :

لا مانع من أن تتدبّر الأسرة المسلمة أحوالها ، وأن تحاول تنظيم النّسل ، لا مانع أن يتفق الزوج والزوجة - كلاهما مع صاحبه - على أن يكون الحمل في فترات معقولة ، ما بين كل طفل وآخر فترة من الزمن ، حتى تستريح الأمّ من ناحية ، وحتى يتهيّأ للأسرة الرعاية الصّحية ، والرعاية التعليميّة ،والرعاية الاجتماعيّة ، فقد أصبح الناس الآن يعيشون مستقلّين ، وغدت تربية الأطفال تحتاج إلى جهد جهيد ، ومتابعة مستمّرة .

في الزمن الماضي كانت الأسرة يعيش بعضها مع بعض ، يعيش الولد مع أبيه وأمّه ، وتأتي زوجة الابن فتقول لها حماتها - أم الزوج : عليك أن تلدي وتنجبي أولاداً ، وعليّ أن أربّي ! الآن لم يعد هـذا ، أصبح النّسل يكلّف أهله تكاليف كثيرة ، فلا مانع من تنظيمه .

على أن يكون هذا من حقّ الأسرة ، ومن اختيار الأبوين ، أمّا أن يكون هذا فلسفة عامّة للبشريّة كلّها وللنّاس جميعاً ، فهذا ما نرفضه .

وسائل مرفوضة لغايات غير محمودة :

هذه الوثيقة ، أو هذا المشروع الذي قدّم للمؤتمر ، قام على هذا الأساس ، وأراد أن يعالج هذا الهدف - الذي هو نفسه ليس بمقبـول في نظر القيم الدينيّة الأصيلة ، بوسائل وأساليب أكثرها أيضا - أو كثير منها على الأقلّ - مرفوض فى ميزان الدين .. فى ميزان الخلق .. في ميزان الشرائع السماويّة كلّها .

يريدون إباحة الإجهاض بلا قيود :

من هذه الوسائل ذكروا: الإجهاض ، وتحت عناوين شتّى : الإجهـاض المأمون .. تخفيف الأمر على المرأة الحامل .. الحمل غير المرغوب فيه .. الخ ، وهذا كلّه ليس بمقبـول إسلاميًّا ولا دينيًّا ، حتى بابا الكاثوليـك وقف ضد هذا بقوّة ،وهنا اتفق الأزهر والفاتيكان ، ووقف المسجد والكنيسة معاً ضدّ الطوفان المدمّر للأديان .

احترام الإسلام لحياة الجنين :

إنّ الإسلام يُعطي للجنين حقّ الحياة ،ولا يجيز لأحد - ولو كان أباه أو أمّه - الاعتداء عليه ، لأنّه كائن حيّ محترم ، ولو جاء من حرام .

المرأة التي جاءت إلى النبي ﷺ تطالبه أن يطهّرها ، ويقيم حدّ الله عليها ، وتقول له : إنّها حُبلى من الزنى ، فماذا قال لها النبي ﷺ ؟ قال لها : « فاذهبي حتى تلدي » ، أي إن كان لنا سبيل عليك فما لنا سبيل على ما في بطنك ، ما في بطنك مخلوق لا ذنب له حتى نقيم الحد عليك وعليه ، وذهبت المرأة أشهراً ثمّ عادت وقد وضعت وليدها ، فقالت : ها أنا قد وضعت يا رسول الله ، قال : « اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه » (١) .

هكذا يحترم الإسلام الجنين الكائن الحيّ في بطن أمّه ، ويرتّب على ذلك أحكاماً ، فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تصوم رمضان إذا كان صيامها يضرّ بجنينها ، وعليها أم تفطر حتى لا تؤذي هذا المخلوق في رحمها ، هذا ما يريده الإسلام .

ولكن هؤلاء يريدون الإباحيّة الجنسيّة ، أطلقوا العنان للشهوات ، ثمّ إذا حملت المرأة أعطوها حقّ التخلّص منه ، وقالوا : إنّها حرّة في جسدها !

إنّ هذا ليس جسدها ، هذا كائن آخر أدخله الله عليها ، فليس من حقّها أن تقتله ، لأنّها لم تهب له الحياة ، الله هو واهب الحياة ، فلا يجوز لأحد من مخلوقاته أن يستلبها بغير إذنه .

الإجهاض من الأمور الخطيرة التى تضمّنتها هذه الوثيقة ، المتضّمنة لمشروع برنامج هذا المؤتمر .

تعدّد أشكال الأسرة في الوثيقة :

من الأشياء الخطيرة التي تضمّنها هذا المشروع ، ما جاء في الصفحة التاسعة والعشرون : إنه ينبغي على الجميع أن يقدّموا الدعم للأسرة ، مع الأخذ في الاعتبار تعدّد أشكال الأسرة !!

نحن نعرف شكلاً واحداً للأسرة ، هذا الشكل هو ارتباط بين رجل وامرأة ، بعقد شرعيّ له أركانه وشروطه ، وبهذا العقد وهذا الارتباط تنشأ الحياة الزوجيّة ، تنشأ الأسرة المسلمة ، وهذا آية من آيات الله ، ذكرها الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه ، باب : « حدّ الزنا » .

(٢) الروم : ٢١ .

هؤلاء يقولون : هذا شكل من أشكال الأسرة ، ولكن هناك أشكال أخرى .

هنك أسرة بلا عقد ، اثنان يعيشان معاً وليس بينهما عقد زواج ، ليس بينهما ارتباط شرعي يكلّف كلاًّ منهما حقوقًا وواجبات تجاه الآخر .

وهذا - للأسف - ما لاحظته في أوربّا : إن كثيراً من الشبّان والبنات يرتبط بعضهم ببعض ويعيشون معاً ، ولكن دون زواج .

حينما كنت أُعالَج في صيف سنة (١٩٨٥ م) في مدينة (بون) بألمانيا ، سألت الممّرضات اللائّى كنّ يشرفن على تمريضى : هل هنّ متزوّجات ؟ لم أجد منهنّ متزوجة ، ؛كلهن (MISS) - أى : آنسة - وليس (MRS) - أى : متزوّجة - كما يقولون .

وعرفت السبب في هذا : إنّ الزواج مسؤوليّة ، ولماذا يتحّملون المسؤوليّة ؟

الشاب يتنقل من واحدة إلى أخرى ، والفتاة تنتقل من واحد إلى آخر ، وإذا أعجبها شخص تعيش معه سنة .. سنتين .. ثلاثة ، ثمّ تبحث عن غيره ، كما يبحث هو عن غيرها .

فهذا شكل من أشكال الأسرة : الحياة معاً دون ارتباط ودون عقد .

الأسرة ذات الجنس الواحد ! :

ومن أشكال الأسرة : الأسرة ذات الجنس الواحد ، أى : الأسرة مكونة من رجلين ، أو مكونّة من امرأتين ، يتزوّج الرجل الرجل ، وتتزوّج المرأة المرأة !!

جمعيّات الشّواذ المنتشرة في العالم ، هؤلاء - للأسف - جعلوا هذا شكلاً من أشكال الأسرة ينبغي أن يدعم !

كيف ندعم هؤلاء الذين خرجوا على فطرة الله ، وعلى شرائع السماء ، وعلى قيم الأخلاق كلّها ؟!

يتزوّج الرجل الرجل !! وللأسف أقرّت هذا بعض القوانين في أوربا ، وباركت ذلك بعض الكنائس ، وبعض القسس يخرج في (التلفاز) ويقول : القس الفلاني يعقد عقود زواج الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء !!

هذا ما يريدون منّا أن نقرّه : تعدّد أشكال الأسرة .

الله سبحانه وتعالى ذكر لنا قوم لوط ، وكيف عاقبهم بعذابه ، وأنزل عليهم نقمته ، وصبّحهم بكرة عذاب مستقر ، وجعل قراهم عاليها سافلها ، وأمطر عليهم :

﴿ . . حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [1] ، أجل ليست عقوبة الله ببعيدة عن هؤلاء الظالمين !

كيف نقرّ عمل قوم لوط ؟! وكيف نقرّ السحاق بين النساء ؟! وقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى ، وركّب في كلّ منهما الميل الفطرى إلى الآخر ، وجعل من وراء ذلك الإنجاب وبقاء الحياة البشريّة إلى ما شاء الله .

هؤلاء وقفوا ضدّ فطرة الله ، وفطرة الكون ، وشرائع السماء كلّها .

الوثيقة تدعو إلى تأخير الزواج :

هذه الوثيقة تتحدّث عن العمل على تأخير الزواج ، لا ينبغي أن يتزوّج الإنسان مبكّرا ، وتقدّم البدائل له إلى حين يتزوّج ، ومعنى تقديم البدائل إتاحة فرص الشهوات الحرام إلى أن يأتي وقت الزواج ! فهؤلاء لا يحترمون شريعة ولا دينا .

هؤلاء وقفوا من هذا الأمر موقف الإباحيّة والتحلّل .

القرآن يقول : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ . . ﴾ [2] ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « يا معشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج . . » [3] ، وهؤلاء يقفون ضدّ هذا كلّه .

هذه الوثيقة وهذا المشروع المقدّم لمؤتمر القاهرة تضمّن أشياء كثيرة مخالفة للإسلام ، بل مخالفة لجميع الأديان ، لا يقبلها دين من الأديان ، ولا شريعة من الشرائع ، بحال من الأحوال .

عزل الأسرة عن العلاقات الجنسيّة لأولادها :

جد في هذه الوثيقة : إنّ على الجميع أن يساعدوا المراهقين والمراهقات ، وأن يقدّموا لهم الثقافة والمعلومات الجنسيّة والتناسليّة ، وأن يساعدوا مقدّمي الرعاية

---

(١) هود : ٨٢ ، ٨٣ ، وأولها : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا . . ﴾ .

(٢) النّور : ٣٢ .

(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ لهما ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائي ، وتتمّته : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنّه له وجاء » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٤٩ - ٥٥٠ برقم ١٠٩٥) .

الصّحيّة ، بحيث يكون هناك خصوصيّة ،وسرّيّة لهؤلاء المراهقين ، ولا تتدخّل الأسرة في شأنهم !!

يريدون رفع وصاية الآباء والأمّهات عن الأبناء والبنات ، النبى ﷺ يقول : « كلّكم راع ومسؤول عن رعيّته ... والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيّته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيّتها ... » (١) ، ولكن هؤلاء يريدون أن يمحوا هذه الرعاية ، فلا تكون الأسرة مسؤولة عن أبنائها وبناتها ، بل يمضي كلّ منهم وراء المتع والملذات ، كما يشتهي .

نحن لا نمانع ، بل هو مطلوب شرعاً أن نقدّم لهم التثقيف الجنسي الصحيح ، فى جوّ من الجدّيّة والوقار والإيجابيّة ،والإسلام أعطانا في هذا أشياء كثيرة وتوجيهات مفيدة ، ولكن ليس معنى هذا أن نتيح لهم الاتصال المحرّم في فترة المراهقة ، وإذا حملت الفتاة علينا أن نجهضها ، ما هذا ؟!

وصاية فكريّة وأخلاقيّة علينا من العالم الجديد :

هذه مجتمعات غريبة جاءت تريد أن تفرض نفسها علينا ، تريد أن تفرض الوصاية الفكرية والأخلاقية ، ولا تكتفي بالوصاية السياسيّة .

العالم الجديد ، أو النظام العالمي الجديد ، لا يكتفي بأن يفرض وصايته السياسيّة علينا ، حتى يريد أن يفرض الوصاية الفكريّة ، والوصاية الأخلاقيّة والسلوكيّة على حياتنا ، وأن يلزمنا بقيمه وأخلاقه وسلوكيّاته ، وما خلقنا الله عبيداً لأحد ، وما خلقنا الله أذناباً لأحد ، نحن لنا ديننا ولهم دينهم .

ليسوا نصارى ولا مؤمنين بدين :

مع أنّهم لو كانوا نصاري حقًّا .. لو كانوا مسيحيين متبعين لتعاليم المسيح عليه السلام ، لوجدوا دينهم ينهاهم عن مثل هذا ، ولكن هؤلاء لا دين لهم ، ليسوا نصارى ولا مسلمين ولا بوذيّين ولا غير ذلك ، هؤلاء انخلعوا من كلّ دين وأرادوا أن يفرضوا هذا على العالم .

لهذا وقف المسلمون ضدّ هؤلاء ، وقف مجمع البحوث الإسلامية ، ولجنة

---

(١) من حديث ابن عمر الذي رواه البخاري ومسلم ، أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٣ برقم ١١٠٨) .

الفتوى بالأزهر ، والجماعات الإسلاميّة ، والنقابات المهنيّة ، في مصر ، وفي المملكة العربية السعوديّة : هيئة كبار العلماء ، ورابطة العالم الإسلامي ، وفي البلاد الإسلاميّة المختلفة هاج الناس هنا وهناك ، وطالبوا بمقاطعة المؤتمر ،وكنّا نودّ لو قوطع المؤتمر .

ولكن لا مانع من حضور المؤتمر ، إذا حضرنا ونحن متماسكون لا مستسلمون ، ونحن متحدون لا متفرّقون ، ونحن أمامنا قيم عليا نؤمن بها ونكيّف حياتنا وفقاً لها ، ليست ممّا صعد من الأرض ولكنّها ممّا نزل من السماء .

نحن الأمّة الوسط : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴾ (١) . نحن شهداء على البشريّة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾ (٢) .

الخوف من تنامي العالم الإسلامي :

إنّ هناك أشياء كثيرة في هذا المؤتمر لا يرضى عنها الله ، ولا رسوله ، ولا رسله جميعا ، ولا المؤمنون .

وهناك أشياء خلف هذا المؤتمر لم يعلنوا عنها ، إنّهم يخافون مّا سمّوه : تنامي العالم الثالث ، وفي الواقع هم يخافون من تنامي العالم الإسلامي (٣) .

العالم الإسلامي يزداد يوماً بعد يوم ، وهم يتناقصون يوماً بعد يوم ، وهذا أمر طبيعي إذا كان الناس يخافون من تحمّل أعباء الأسرة ، قال لي أحد الأطباء - وكان يشرف عليه طبيب كبير في بريطانيا لكنّه لا ينجب - وسأله : لماذا لا تنجب ؟ قال له : ولماذا أنجب ؟! اعطني مبرراً واحداً يجعلني أنجب ! .

---

(١) آل عمران : ١١٠ . وتتمتها : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

(٣) تشير أوراق المؤتمر الدولى للسكّان والتنمية بوضوح إلى اختلال التوزيع الإقليمي لسكّان العالم ، وأنّه في الفترة من (١٩٩٥ م) وحتى (٢٠١٥) يُتوقع أن يتزايد سكان المناطق الأكثر نموًّا (أي أوربّا وأمريكا) بما يقارب (١٢٠) مليون نسمة ، بينما سيتزايد سكان المناطق الأقلّ نموًّا بما قدره (١٧٢٧) مليون نسمة أي أكثر من (١٤) ضعفا .

هذا الإنسان كأنّه يريد أن يحكم على البشريّة بالفناء بعد جيل واحد ، فلو أنّ كلّ الناس امتنعوا عن الإنجاب لكان معناه : أن تنتهي البشريّة .

البشريّة أعطته وجوده ، كان عليها أن يعطي كما أخذ ، خصوصاً أنّه رجل في القّمة من العلم ، كان عليه أن يتحّمل المسؤولية ويربّي جيلا . . طفلاً أو طفلين على الأقل ، لكنّه يريد أن يعيش لنفسه .

العالم الغربيّ يريد أن يعيش على اللّذّة والمتعة ، ولا يريد حتى من أولاده أن يزاحموه في متعته ولذّته ، كأهل الجاهليّة !

النبى عليه الصلاة والسلام سئل : أيّ الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » ، قيل : ثمّ أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك » (١) : أن يزاحمك في اللّقمة ، وهؤلاء لا يريدون لذرّيتّهم أن تزاحمهم ، يريدون أن يستمتعوا بالحياة وحدهم ، فلا عجب أن يتناقص نسلهم (٢) .

كنت في فرنسا في هذا الصيف ، فوجدت الفرنسيّين يشكون من تناقص النسل وتكاثر المسلمين هناك ، هناك أكثر من أربعة ملايين مسلم من أبناء الشمال الأفريقي والسنغال وغيرها من البلاد التي كانت مستعمرات فرنسيّة من قبل ، هؤلاء يتكاثرون وأولئك يتناقصون ، فهم يقولون إنّه لو استمرّ الحال على هذا لأصبحنا بعد عقود قليلة من السنين ونحن أقلّيّة ،وصار هؤلاء أكثريّة ! فهم يخافون من المسلمين داخل بلادهم ، ويخافون منهم خارج بلادهم ، لأنّ الشعب الإسلامي شعب ولود .

ومن قديم قال أحدهم في كتابه (الإسلام قوّة الغد العالميّة) : إنّ المسلمين لهم المستقبل ، وجعل من أسباب هذا : كثرة النّسل بين المسلمين .

هؤلاء يخشون من تزايد العالم الإسلامي . . من تزايد المسلمين في العالم ، وقبل سقوط (الاتحاد السوفيتي) كانوا يخوّفون من كثرة المسلمين هناك ، وأنّه بعد

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ في كتاب (الأدب) من صحيحه ، باب : (قتل الولد خشية أن يأكل معه) ، كما أخرجه في كتاب (الحدود) باب : (إثم الزناة) ، وكتاب (التوحيد) باب : (قول الله تعالى : فلا تجعلوا لله أندادا) ، وتتمته : قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » .

(٢) بل تشير الوثائق إلى أن هناك بلداناً أوربيّة مهدّدة بالفناء التام خلال أقلّ من نصف قرن ، إذا استمرت معدّلات النموّ السكاني فيها تتناقص كما هو الحال الآن .

مدّة قليلة سيصبح المسلمون هم حكام الاتحاد السوفيتي ، ولعلّ هذا ما جعلهم يعجّلون بسقوطه ، خشية أن يؤول في النهاية إلى المسلمين ٠

توزيع الثروة بين العالم المتقدّم والبلاد النّامية :

ثمّ هؤلاء الذين يربطون بين زيادة السكّان والفقر ، لماذا لا يذكرون سوء استهلاك الثروة في العالم وسوء توزيعها ؟ الأمم المتحدة تقول : إن (٢٥ ٪) من السكان يعيشون في العالم المتقدم ، أو العالم الغربي ، أو العالم الأوّل كما يسمّونه ، والأكثريّة تعيش في العالم الثالث، ولكن(٢٥ ٪) تستهلك من مواردالعالم (٧٥٪) : (٨٠ ٪)من الأخشاب، و (٧٠ ٪)من المعادن، و (٦٠ ٪) من الغذاء ٠٠٠الخ ، هكذا يستهلك العالم الغربي ٠

في أمريكا وحدها نشرت الصحف : إنّ المسكرات والمخدّرات والخمور وهذه الأشياء يُنفق عليها وحدها سنويًا : (٢٥ بليون دولار) !

أمّا ما ينفق على التسليح فهو بمئات المليارات ، لماذا لا يوفّر هذا لتنمية العالم ، وتنمية الدول الفقيرة ؟

تطويق العالم الثالث بالديون المرهقة :

إنّ العالم المتقدم ٠٠ العالم الغربي ٠٠ العالم الأوّل ، المسرف في استهلاكه ، المتمتع بلذاته ، طوّق العالم الثالث ٠٠ العالم الفقير ٠٠ العالم الكادح ، طوّقه بأغلال من الديون ، أنهكته وأرهقته وجعلته يلهث من أجل أن يعطـي فوائد الديون (الربا) ٠

الدولُ المدينة بالمليارات وعشرات المليارات تلهثُ وتتعب من أجل أن تسدّد الفوائد ، أمّا أن تسدّد الأقساط فهيهات هيهات ٠

لم يكف العالم الغربي ما نهبه من خيرات هذا العالم في آسيا وأفريقيا في أيام الاستعمار - نهب الثروات وأقام بنيته الحضاريّة هناك: الطرق والمؤسّسات والسكك التي تحت الأرض وغيرها من الأشياء التي أقامها من هذه البلاد التي يحتلّها ، واستنزف خيراتها ومواردها - لم يكفه هذا فبدأ يشتري المواد الخام منها بأرخص الأسعار ، ثمّ يصنّعها ويعيدها إليها بأغلى الأسعار ٠

وهناك النّاس لا يستطيعون أن يقوموا بمشروعات التنمية فيحتاجون إلى الاستدانة ويمدّون اليد إلى هؤلاء ، ومعظم هذه الديون تعود إليهم فى صورة أخرى ،

لأنّهم يعطون الديون في صورة أدوات مستهلكة، وفي صورة خبراء من عندهم ، وفي صورة أشياء يستغنون عنها، ولكـــن على هـــذه الدول أن تســدّد خدمة الدّين (الأقساط والفوائد) فلا تستطيع أداء الأقساط فتسدّد الفوائد ٠

وكثيراً ما تستدين من جديد لتوفّي الدّين القديم ، فمتي يمكن أن توفّي وقد قال الشاعر قديماً :

إذا ما قضيت الدّين بالدّين لم يكن

قضاء ، ولكن كان غرماً على غرم ؟!

هذه هي حالة هذا العالم الثالث والعالم الإســلامي ، أمام العالم المقتدر المتمكّن ، الذى يريد أن يفرض نفسه ويفرض وصايته على هذا العالم ، متجاهلاً دياناته ، متجاهلاً شرائعه ، متجاهلاً قيمه وأخلاقه ٠

لا ، لا ينبغي أن نستسلم لهذا ٠

إنّنا مسلمون ، وإسلامنا يفرض علينا أن نعتزّ بشخصيّتنا ، وأن نعتزّ بإيماننا ، وأن نعتزّ بقيمنا ، وأن نعتزّ بأحكام شريعتنا ، ولا نفرّط فيها ، ولا يملك المشرق والمغرب : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِىَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

أقول قولي هذا ، واستغفر الله لى ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم ٠

* *

• الخطبة الثانية :

أمّا بعد :

فقد ورد أنّ في يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له ، ولعلّها تكون هذه الساعة ٠

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها

---

(١) فصّلت : ٣٣ ٠ (٢) الزخرف : ٤٣ ٠

معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كلّ خير ، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شر .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى ، وقلوبهم على التقى ، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل .

اللهم أكرمنّا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عناّ وأرضنا .

اللهم جنّبنا كيد الكائدين ، ومكر الماكرين ، وانصرنا على القوم الكافرين .

﴿ .. رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

اللهم انصر إخوتنا فى فلسطين ، وانصر إخوتنا في البوسنة والهرسك ، وانصر إخوتنا في كشمير ، وانصر إخوتنا في الصومال ، وانصر إخوتنا في سائر بلاد الإسلام .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللهم ردّ عنّا كيدهم ، وفلّ حدّهم ، وأدل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين .

اللهم ارفع مقتك وغضبك عنّا ، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مُطْمَئِنًّا ، سخاء رخاء ، وسائر بلاد المسلمين .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

---

(١) يونس : ٨٥ ، ٨٦ . (٢) آل عمران : ١٤٧ .

(٣) الأحزاب : ٥٦ .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمّد ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (1) .

* * *

(1) العنكبوت : ٤٥ .

١٧ ـ التدخين آفة ضارّة
وهو حرام [1]

١٤١٧/١/١٤ هـ
١٩٩٦/٥/٣١م

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

طلبَّ إليّ بعض الإخوة أن أحدّثكم عن التدخين ، بمناسبة اليوم العالمى للتدخين ٠

والتدخين آفة من الآفات ، ابتلي بها النّاس في عصرنا وابتلي بها العرب والمسلمون خاصّة ، وأصبحت داء يتناقله النّاس بعضهم عن بعض ٠

هو كالأوبئة التي تُعدي كما يُعدي الأجرب السليم ، وسرعان ما تنتشر هذه الآفة انتشار النّار في الهشيم ، الصغير يقلّد الكبير ، والابن يقلّد الأب ، والفقير يقلّد الغني ويبدأ الناس كما قالوا : (أولّه دلع وآخره ولع) ، فيصبح الإنسان عبداً لهذه الآفة ، أسيراً لهذه العادة ، لا يملك لها فكاكا ٠

اختلاف العلماء قديماً في حكم التدخين :

لقد ظهرت هذه الآفة منذ حوالي أربعة قرون ، على رأس الألف من الهجرة ، واختلف العلماء عند ظهورها في شأنها ما بين محرّم لها لما يرى ما تجلبه من ضرر ٠٠ ومن قائل بكراهتها ٠٠ ومن مبيح لها يقول : إنّ الأصل في الأشياء الإباحة ، ولم يرد ما يحرّم هذا الأمر ٠

فى عصرنا يجب أن نفتي بالتحريم :

ولكنّنا في عصرنا ينبغي أن نجزم بحكم واحد لا ريب فيه ولا شبهة معه ، هذا الحكم هو تحريم التدخين تحريماً باتًّا ، وذلك لأنّ حكم الفقيه في هذه القضيّة مبنيّ على رأي الطبيب ، فإذا قال الطبيب : إنّ هذا الأمر ضارّ ، وليس فيه نفع ، فينبغي للفقيه أن يقول : إنّ هذا الأمر حرام ولا شكّ فيه ٠

---

(١) للشيخ القرضاوي - حفظه الله - فتوى مطوّلة بعنوان : (أحكام التدخين في ضوء النصوص والقواعد الشرعيّة) تضمّنها الجزء الأوّل من كتـابه (فتاوي معاصر) ص ٦٥٤ - ٦٦٩ ٠

وهذا ما أجزم به ، ويجزم به الفقهاء المحقّقون : أنّ هذا التدخين آفة محرّمة ، وذلك لعدّة أسباب :

التدخين ضدّ الضروريّات الخمس :

أوّلاً : إنّ هذا التدخين ضرر لا شكّ فيه ، ضرر على النفس ، وضرر على العقل ، وضرر على الدين ، وضرر على المال ، وضرر على النّسل ·

ضرر يؤثّر في المصالح التي سمّاها الفقهاء : الضروريّات الخمس ، التي لا تقوم حياة إنسانيّة إلاّ بها ·

التدخين ضرر على النفس والحياة والصّحّة :

هو ضرر على نفس الإنسان وعلى صحّته ، أجمع على ذلك أطباء العالم ، والهيئات العلميّة في العالم ، ولذلك فرضوا على الشركات التي تبيع هذا الدخان - أو التبغ أو التتن أو سمّوه ما تسمّونه - أن تعلن أنّ التدخين ضارّ بالصّحّة ·

هو ضارّ بصحّة الإنسان ، مسبّب لأنواع من السرطانات ، منها سرطان الرئة والمريىء والبلعوم وغير ذلك ، ومسبّب لأمراض تصيب شرايين القلب إلى غير ذلك ·

فهو ضرر على حياة الإنسان ، وعلى صحّة الإنسان ·

صحيح أنّه ليس ضررًا فوريًا ، ولكنّه نوع من الانتحار البطيء · هناك سمّ يقتل في الحال ، وهناك سمّ يقتل بعد سنة أو سنتين أو عشر سنين ·

هو سمّ قاتل ، فيه من هذه المواد : الزفت ، والقطران ، والهباب الأسود ، والنكوتين ، والمراد الكيماويّة ، والمواد السّامّة ، ما يؤثّر في جسم الإنسان على المدى الطويل ·

فالإنسان الذي يتناول هذا الشيء ، يتناول سمًّا بطيئًا ، ينتحر ولكن بالقطّارة ·

فهل يجوز للإنسان أن يقتل نفسه والله تعالى يقول : ﴿ ·· وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (1) ؟!

لقد قرّر العلماء أنّه لا يجوز للمسلم أن يتناول شيئاً يضرّه في الحال أو في

---

(1) النساء : ٢٩ ·

المآل ، ولو كان أكل الطين ، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ . وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [1] ﴿ . . وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[2] ، والنبيّ ﷺ يقول : « لا ضرر ولا ضرار » [3] : لا تضرّ نفسك ولا تضارّ غيرك ، فكيف يجوز للإنسان أن يضرّ نفسه ؟!

وفلسفة الإسلام هنا واضحة كلّ الوضوح ، بيّنة كالشمس في رابعة النّار : إنّ الإنسان ليس ملك نفسه ، بحيث يؤذي نفسه كما يشاء ، ويضرّها كما يشاء ، لا أنت لم تخلق نفسك ، الله هو الذي خلقك : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[4] . كيف تضرّ نفسك باختيارك ؟! هل يفعل هذا إنسان له عقل ؟! لا . فكيف إذا كان المدخّن يضرّ نفسه ويُضارّ غيره ؟!

لقد أثبت لنا العلم ، وأثبت لنا الطب : أنّ المدخّن يؤذي غيره قهراً .

أنا لست مدخّناً ، ولكن إذا جلست في مكان فيه مدخّن ، فإنّي أُصاب - بقدر ما - بما يسمّونه : التدخين القسري ! أي : أنا أدخّن رغم أنفي ، لأنّي استنشق الهواء الذي فيه أثر التدخين .

المدخّن يؤثّر على من حوله : على زوجته . . على أولاده . . على البيئة التي يعيش فيها ، فهو يضرّ نفسه ويُضارّ غيره .

---

(1) البقرة : 195 . (2) النساء : 29 .

(3) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس ، ورواه ابن ماجه عن عبادة ، ورمز له السيوطي بالحسن (الجامع الصغير : 2 / 203) . وقال الهيثمي : رجاله ثقات ، وقال النووي في الأذكار : هو حسن ، وقال الذهبي : حديث لم يصح ، وقال ابن حجر : فيه انقطاع قال : وأخرجه ابن أبي شيبة وغيره من وجه آخر أقوى منه ، ورواه الحاكم والدارقطني عن أبي سعيد وزاد : « من ضرّ ضرّه الله ، ومن شقّ شاقّ الله عليه » ، وفيه عثمان بن محمد ابن عثمان ليّنه عبد الحق ، والحديث حسّنه النووي في الأربعين ، قال : ورواه مالك مرسلاً وله طرق يقوّي بعضها بعضا ، وقال العلائي : للحديث شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المحتج به (فيض القدير : 6 / 431 - 432 برقم 9899) . وقوله : «لا ضرر » : أي لا يضرّ الرجل أخاه فينقصه شيئا من حقه ، « ولا ضرار » أى لا يجازى من ضره بإدخال الضرر عليه بل يعفو . (4) الانفطار : 6 - 8 .

ولذلك نقول : إنّ الضرر على النفس ٠٠ على الصّحّة ٠٠ على الحياة ، من هذه المصيبة ضرر مؤكّد ، لا يجوز لعاقل أن يدخل ، من هذه المصيبة ضرر مؤكّد ، لا يجوز لعاقل أن يدخل هذا السمّ على جسده مختاراً ، وعنده ذرّة من عقل ٠

التدخين ضارّ بالعقل :

الله وهبنا العقول لنفكّر بها ، فكيف يفكّر الإنسان أن يضرّ نفسه مختاراً ولم يكرهه أحد على هذا ؟!

التدخين ضارّ بالعقل ، يؤثّر على العقل ، ففيه نوع من الإسكار ، ونوع من التفتير ، يشعر به الإنسان حينما يتناول أوّل سيجارة ، فيذهل عن نفسه ، ويكفي أن ترى المدخّنين وسلوكهم ، فتستيقن من ذلك ٠

هؤلاء الذين ينفقون أموالهم فيما يضرّهم ، وربّما كانت أسرهم وأطفالهم في حاجة إلى القوت الضروري ، وهم لا يبالون !

هل هذا إنسان عاقل ؟!

لا أحسب هذا إنساناً عاقلاً بحال ، ولا أدري ما يقوله العلم المعاصر والطبّ المعاصر عن تأثير التدخين على مخّ الإنسان ٠

التدخين ضارّ بالدين :

والتدخين كما يضرّ بالنفس ، ويضرّ بالعقل ، يضرّ بالدين ٠

أعرف أناساً لا يصومون رمضان ، لماذا ؟ يقول أحدهم : لا أستطيع أن أستغني عن السيجارة ، إنّها حياتى !

وكثير من النّاس يصوم وأوّل ما يؤذّن المغرب يفطر على هذا الخبث الخبيث ٠٠ على التدخين ٠

ثمّ إنّ التدخين يجرّىء المدخّن على ارتكاب ما نهى الله عنه من التبذير والإسراف ، وإيذاء الغير ، إلى جانب تقصيره فيما أمر الله به من الواجبات الدينيّة والدنيويّة ، فلا يستطيع مدخّن أن يقوم بواجب الجهاد في سبيل الله ، دفاعاً عن الدين أو الأرض ، أو العرض ، لأنّ التدخين يضعفه بدنيًّا ، ويحرمه من القوّة اللاّزمة لأعباء الجهاد ومشتقّاته ٠

التدخين ضارّ بالنّسل :

والتدخين ضرر بالنسل ، فالمدخّن يؤثّر على أولاده ، ويضرّ بأطفاله ، وهذا أمر مؤكّد .

أثبتت أحدث الدراسات أنّ الأولاد والأطفال الذين يترعرعون في بيئة مدخّنة ، ومع أب مدخّن ، أو أمّ مدّخنة ، هؤلاء تكون جدران شرايينهم - شرايين القلب - أضعف من غيرهم ، ويكونون معرّضين لآفات وأمراض لا يعلمها إلاّ الله .

وهؤلاء ما داموا يعيشون مع أب مدخّن أو أمّ مدخّنة ، فهم في بيئة ملوّثة يقيناً ، ويدخّنون قهراً عنهم ، لأنّهم يستنشقون هواء التدخين ، ثمّ بعد ذلك يقلّدون الأب المدخّن ، ويظنوّن أنّ التدخين من علامات الرجولة ، ولذلك كثير من الأولاد الصغار يبدأ التدخين ويمسك بالسيجارة والعلبة ، ليثبت أنّه قد بلغ ، وأصبح رجلاً من الرجال ، والآفة من الأب المدخّن .

التدخين ضارّ بالمال :

التدخين يضرّ بالضروريّات الخمس كلّها ، ومنها : الضرر المالي .

الإنسان المدخّن ينفق ماله فيما لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة ، وقد اتفق العلماء على أنّ إضاعة المال فيما لا ينفع لا في الدنيا ولا في الآخرة حرام ، لا يجوز .

لا يجوز إضاعة المال ، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال ، المال مال الله ، وأنت مُستخلف فيه ، فلا يجوز لك أن تضيّع مالك فيما لا ينفعك : لا ينفع روحك ، ولا ينفع بدنك ، ولا ينفع عقلك ، ولا ينفع نفسك ، ولا ينفع أسرتك ، ولا ينفع أمّتك .

المدخّن يشترى ضرره بحرّ ماله ، يضّر نفسه بالثمن ليته يضرّ نفسه مجّاناً ، يضرّ نفسه بما يدفع .

هل هذا عقل ؟! هل هذا دين ؟!

وممّن يشتري ؟ يشتري من الشركات العالميّة التي تبيع السجاير : شركات (المارلبورو) وغيرها ، التي يعلنون عنها ، وهذه شركات استعماريّة ، يملك الكثير منها اليهود وأشباه اليهود ، تنفق على الدعاية وحدها في السنة عدّة مليارات - لا

أذكرها ، قرأتها قريباً ونسيت العدد ، أرقام ضـــخمة – فكيف بما تكســبه هذه الشركات ؟! تكسب شيئاً هائلاً .

ونحن المسلمين نشتري منها بالمليارات ، وبعض البلاد الإسلاميّة المحدودة الدخل ،والمدينة ، من أكثر البلاد تدخيناً ، مثل الباكستان ومصر ، النّاس يدخّنون بشراهة ، وهم لا يكادون يجدون القوت .

ومن عجب : أن ترى الرجل يشتري السجاير ويدخنّ وأولاده ربّما كانوا في حاجة إلى رطل من اللحم – أو كيلو من الفاكهة – يأكلونه ، وربّما كانوا في حاجة إلى ملابس تستر أجسادهم ، وربّما كانوا في حاجة إلى أدوات مـــدرسيّة .. إلى كتب .. إلى هذه الأشياء الأساسيّة ، فيذهب الرجل يشتري السجاير ويدع أسرته المسكينة تعاني ما تعاني .

هذا ما تقع فيه الأمّة .

نحن إذن ننفّق سلع هذه الشركات العالميّة ، ندفع لها المليارات سنويًّا ، من قوت أولادنا ، وعصارة أرزاقنا !

فهذا هو الضرر المالي .

التدخين ليس من الطيّبات :

ثانياً : الإسلام يكره الإسراف في الحلال : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) ، فكيف بهذا الأمر الذي لا يمكن أن يُعدّ في الطيّبات ؟!

وُصف النبي ﷺ في كتب الأقدمين بأنّه : « يحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث »(٢) ، في أيّ خانة نضع هذه السجاير ؟ في خانة الطيّبات أم في خانة الخبائث ؟ الذي عنده حسّ فطريّ لا شكّ أنّه سيضعها في خانة الخبائث ، لأنّه ليس فيها أيّ شيئ من النفع والطيب .

---

(١) الأعراف : ٣١ .

(٢) في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

لولا اعتياد الناس لها ما تذوّقها الإنسان ، لكرهها ، لرماها ، لكن الإنسان إذا اعتاد شيئاً ولو كان أكل الطين ، فإنّه يسهل عليه ، ويحلو له ، وهذه آفة أيضاً ٠

استعباد إرادة الإنسان :

ثالثاً : من آفات هذا التدخين : إنّه يستعبد إرادة الإنسان ٠

الإنسان المدخّن عبدٌ لهذه الآفة ، عبدٌ لهذه العادة ، ليس حرًّا ، لا يستطيع أن يحرّر نفسه إلاّ بإرادة قويّة ، كأن تكون (حكم الطبيب) ، يقول له : إمّا أن تقلع عن التدخين ، وإمّا أن تعرّض نفسك للموت ، هذا ما رأيناه ، رأينا أناساً بعد أن عاشوا ثلاثين سنة ، وأربعين سنة ، وخمسين سنة ٠

يدخّنون ، بعد إنذار الطبيب أقلعوا عن التدخين ، لأنّه إمّا حياة وإمّا موت ، وهم لا يريدون أن يموتوا ، فيقلعون عن التدخين بعد هذه السنين الطويلة ٠

استعباد الإرادة هذه آفة :

لماذا تعبّد نفسك لغير الله ؟!

لماذا تجعل إرادتك رهناً بشيء ليس هو من الأساسيّات ، ولا من الضروريّات ، ولا الحاجيّات ، ولا التحسينيّات ، شيء يمكن الاستغناء عنه تماماً ؟!

بل هو شيء مؤذٍ وشيء كريه ، رائحته نفسها مؤذية ٠

أنا من النّاس الذين لا يطيقون رائحة التدخين ، ولو ابتليت بإنسان يُدخّن أكاد أختنق ، وأقول له : يا أخي ارحمني ٠

والغربيّون عرفوا هذا الأمر ، فجعلوا في الطائرات أماكن للمدخّنين ، وأماكن لغير المدخّنين ، وكذلك في القطارات وفي الحافلات (الباصات) ، يجعلون هناك عربات أو مقاعد لغير المدخّنين ، حتي لا يؤذوا غيرهم ، وبلادنا قد قلّدتهم وإن كانت - للأسف - لا تلتزم ، كثيراً ما ركبت بعض الطائرات العربيّة ، ورأيت في أماكن غير المدخّنين من يُشعل السيجارة ولا يبالي بالنّاس ٠

رابعاً : هناك أناس يقولون : التدخين مكروه وليس حراماً ، لأنّ التحريم يحتاج إلى نصّ محكم ، ولا نصّ ، وأنا أقول لهؤلاء : النّصّ موجود ، وهو كل ما يحرم إضرار الإنسان بنفسه أو بغيره ، وكلّ ما يحرم الإسراف في المال أو إنفاقه فيما لا ينفع ، وكلّ ما يحرم الخبائث من الأطعمة والأشربة ونحوها ٠

وهب أنّنا سلمنا لهؤلاء المجادلين والممارين بأنّ هذا أمر مكروه ، فهى كراهة

تحريم بلا ريب،وقد قلت لأحدهم يوماً : كم تفعل هذا المكروه في كلّ يوم ؟ فقال : أربعين مرّة أو تزيد! قلت له: إجمعها بعضها على بعض، فلن تقلّ عن حرام بيقين . جاء في الحديث : « إيّاكم ومحقَّرات الذنوب ، فإنّهنّ يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » (١) . وفي حديث آخر : « إيّاكم ومحقَّرات الذنوب ، فإنّما مثل محقَّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإنّ محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » (٢) .

ومثل ذلك يقال في اجتماع المكروهات التحريميّة المتكرّرة أبداً .

هدايا المدخنين غير جائزة :

والتجار - للأسف - يشجّعون المدخّنين ، تجد هناك أشياء كثيرة تتبرّع بها الشركات من أجل التدخين : الأطباق التي توضع في المجالس و (الصالونات) لإطفاء السجاير ، وعلب السجاير ، وقدّاحة لإشعال السيجارة ، وغير ذلك ، وهذا لا يجوز .

لا يجوز للإنسان أن يضع في بيته مطفأة أو (طفّاية) ، من جاء إلى بيته فليحترم البيت ، ولا يدخّن ، حتى لا يؤذى أهل البيت .

لا نشجّع الناس على التدخين بأن نضع لهم (طفّايات) السجاير في بيوتنا ومجالسنا ، ليبوؤوا بإثمه ، إن كان ولا بدّ فليحملوا أوزارهم وحدهم ، ولا يحمّلونا هذه المصيبة .

---

(١) من حديث ابن مسعود الذي رواه أحمد ، والطبراني ، والبيهقي ، كلّهم من رواية عمران القطان وهو ممّن اختلف في توثيقه وتضعيفه ، وبقيّة رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح كما ذكر المنذري والهيثمي ، وقال ابن حجر سنده حسن ، وقال الشيخ شاكر في تخريج المسند : إسناده صحيح ، ورواه أبو يعلى بنحوه من طريق إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، ورواه الطبراني ، والبيهقي أيضاً موقوفاً عليه . ويشهد للحديث حديث سهل بعده (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٧١ برقم ١٤٦٤) .

(٢) من حديث سهل بن سعد الذي رواه أحمد ، ورواته محتجّ بهم في الصحيح ، وقال الهيثمى : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين ، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهّاب بن الحكم وهو ثقة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٧١ برقم ١٤٦٥) .

يا أيها الاخوة :

السجاير هذه آفة ومصيبة ابتلي بها الناس ، لا يوز لنا نحن المسلمين أن نشارك فيها ، بل ينبغي أن نقف ضدّها حرصاً على سلامتنا ، حرصاً على صحّة أجسامنا ، حرصاً على صحّة عقولنا ، حرصاً على صحّة ديننا ، حرصاً على صحّة أولادنا ، حرصاً على صحّة جيراننا ، حرصاً على سـلامة أموالنا ، حرصاً على قوّة مجتمعنا ، فإنّ مردود هذه الآفة في النّهاية هو ضعـف الأمّة ، وإصابتها بضرر عام في الحياة كلّها .

بيع التبغ (الدخان) وزراعته غير جائز شرعاً :

لا يجوز أن ندخّن ، ولا يجوز لنا أن نبيـع السجاير والدخان ، لأنّنا نبيع الحرام ، ومن باع الحرام شارك فيه .

الإسلام حينما حرّم الخمـر لعـن معها عشرة : « عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشتري لها ، والمشترى له » (١) ، كلّ من ساهم فيها من قريب أو من بعيد ملعون على لسان محمد ﷺ .

ولذلك نقول : إنّ زراعة (التبغ) هذا محرّمة ، وللأسف هناك بعض البلاد الإسلاميّة تزرع هذا الدخان .

لا يجوز أن يُزرع ، ولا يجوز أن يُباع ، ولا يجوز أن يُتاجر فيه ، كثير من البقّالات ،والمحلاّت التجاريّة تبيع السجاير لأنّ وراءها مكسباً كبيرا ، ولكنّه كسب من سُحت ، لا يبارك الله فيه ، لأنّه كسب من أذى الناس .. من ضرر الناس .

والله لأن تكسب قليلاً من حلال يبارك الله لك فيه ، خير من أن تكسب الحرام من وراء هذه الآفة .

---

(١) رواه ابن ماجه ، والترمذي واللفظ له ، وأوّله : « لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة ... » . وقال الترمذي : غريب من حديث أنس ، وقال الحافظ المنذريّ : ورواته ثقات . وقد روي نحوه عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن النبي ﷺ ، فالحديث صحيح بشواهده ، وهو يدلّ على القاعدة الإسلاميّة : أنّ الإسلام إذا حرّم شيئاً حرّم كلّ ما يفضي إليه ويساعد عليه (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥٢ برقم ١٤٠١) .

ينبغي للمسلمين - أصحاب البقالات والمحلات التجـاريّة - أن يقاطعـوا السجاير ، ولا يبيعوها ، من يريد أن يشتري السجاير عليه أن يبحث ويتعب ، من أراد أن يدخل جهنم فليدخلها وحده ، لكن إذا كنت أنت حريصاً على الجنّة ، وحريصاً على النجاة من النّار والسلامة من العذاب ، فلا تشارك في هذه الآفة ·

استيراد الدخان لا يجوز :

لو استطعنا أن نمنع استيراد هذه البضاعة الأثيمة ، فلنفعل ، لأنّ استيراد المواد المضرة لا يجيزه شرع ولا قانون ولا أخلاق ، فليت حكوماتنا تحزم أمرها وتمنع هذه السلعة الضارّة ·

منع التدخين في الأماكن العامّة :

لقد سعدت بما صدر من قرارات في دولة قطر تمنع التدخين في مستشفى حمد العام ، وتمنع التدخين في جامعة قطر ، وتمنع التدخين في مدارس وزارة التربية والتعليم ، وتمنع التدخين في الأماكن العامّة ، كما سعدت بمنع التدخين في طائرات الخليج بين دول مجلس التعاون ·

وينبغي أن نوسّع في هذا ما استطعنا ، حتى نضيّق على هؤلاء الذين يؤذون أنفسهم بأنفسهم ، ويؤذون من حولهم بالرغم منهم ·

هؤلاء مرضى ، فينبغي أن لا نمكّنهم من أن يؤذوا أنفسهم ويؤذوا المجتمع من حولهم ·

المشـــكل أنّهم لا يؤذون أنفســـهم فقط ، تبيّن لنا أنّهم يؤذون الغير شاؤوا أم أبوا ·

دعوة المدخّنين إلى وقفة مع النفس :

نحن في حاجة إلى وقفة مع النفس ·

أدعو الإخوة والأبناء الذين ابتلوا بهذه الآفة ، أن يقفـوا مع أنفسهم وقفة حزم ·· وقفة إرادة ، لا يحتاج الأمر إلاّ إلى إرادة ، أليس المسلم يصوم رمضان فيمتنع خمس عشرة ساعة - أو أكثر - في اليوم عن هذه الآفة ولا يحدث له شيء ؟

الإرادة هي التي فعلت هذا·

نحن نريد الإرادة القويّة التي يعزم فيها صاحبها : ألاّ يعود إلى هذه الآفة ·

سيدوخ في أوّل الأمر ، ويشعر بالغثيان ، ولكن ثمن هذا ثمن عظيم : سينجو من هذه الآفة ، سينجو ممّا تسبّبه من أمراض خطيرة ، سينجو هو وأولاده ، سينجو المجتمع من حوله .

نحن في حاجة إلى هذه الإرادة ، وكما يقول الشاعر قديماً :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمـة
فإنّ فســاد الرأي أن تتردّدا
وإن كنت ذا عزم فأنفـذه عاجلاً
فإنّ فســاد العزم أن يتقيدا

هناك من يقول : يمكن أن تأخذ الأمر بالتدريج بعد أن كنت تدخّن ثلاثين سيجارة دخّن عشرين ، ثمّ عشرة ، ثمّ خمسة . . . الخ .

وهناك من يقول : الأمر يحتاج إلى الإرادة الجازمة . . إلى الإرادة القويّة ، وهذا هو الأصوب : ﴿ . . فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ . . ﴾ (١) .

إنّي أدعو إخواني المسلمين ، وأدعو أبنائي المسلمين ، إلى أن يملكوا هذه الإرادة المؤمنة ، أن يملكوا هذه العزيمة الصادقة ، وأن يتوكّلوا على الله ، وينووا ترك هذه الآفة، ويصبروا على ما يصيبهم أيّاماً أو أسابيع، ثمّ يصبح الأمر عاديًّا بعد ذلك .

أمّا النّساء اللاّئي يدخّنّ فهي آفة عظيمة دخيلة على مجتمعنا ، ما كنّا نعرف في بلاد العرب والمسلمين أنّ امرأة تدخّن ، وما أقبح المرأة التي تمسك السيجارة وتدخّن ، وأسنانها صفراء ، ورائحتها كريهة .

النبي عليه الصلاة والسلام قال : « من أكل بصلاً أو ثوماً ، فليعتزلنا ، أو فليعتزل مساجدنا ، وليقعد في بيته » (٢) ، وأمر بعض النّاس أن يخرج من المسجد لسوء رائحته ممّا أكل من الثوم والبصل والكراث وهذه الأشياء(٣) ، مع أنّها نافعة ، فيها (فيتامينات) وغيرها من مواد الغذاء ، ولكن رائحتها كريهة .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنّسائي ، عن جابر رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٦٥ برقم ١٧٨) .

(٣) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه خطب يوم الجمعة فقال في خطبته : ثمّ إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين لا أراها إلاّ خبيثتين : البصل والثوم ، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم =

لا ينبغي للإنسان أن يؤذي غيره ، فكيف يؤذي الرجل امرأته برائحته الكريهة ؟ وكيف تؤذي المرأة زوجها ؟ أو تؤذي أولادها ؟!

كلّ هذا ينبغي أن نقف معه وقفة حازمة ، نراجع فيها أنفسنا ، ونثوب فيها إلى رشدنا ، وننوي نيّة صادقة ألاّ نعود إلى هذه الآفة أبداً : ﴿ .. وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

• الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

كنت أبداً مع اختيار الشعب الجزائري في انتخاباته المعروفة التي ألغيت ، وكنت أرى أنّ من حق هذا الشعب أن يختار من يريد أن يحكمه ، فهو ليس شعباً قاصراً .

من حقّه أن يختار لنفسه كما تختار الشعوب لنفسها ، كما يختار الأمريكان لأنفسهم ، وكما تختار إسرائيل لنفسها وكما يختار الأوربيون لأنفسهم ، وكما يختار الهنود لأنفسهم ، العالم كلّه يختار من يريد .

ومن حقّ الشعوب أن تُحكم بمن يريد ، ولا تُكره على أحد ، الإسلام لا يحب أن يكره الناس حتى على إمام الصلاة ، ومن الثلاثة الذين لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : « رجل أمّ قوماً وهم له كارهون » (٢) .

كنت مع الشعب الجزائرى ، ولكنّي لست مع هذه الجماعات المسلّحة ، التي

= إذا وجد ريحهما من الرجل في المسجد أمر به فأخرج إلى البقيع ، فمن أكلهما فليمتهما طبخا ، رواه مسلم والنسائي وابن ماجه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٦٦ برقم ١٧٩) .

(١) النّور : ٣١ .

(٢) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا : رجل أمّ قومًا وهم له كارهون ، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط ، وأخوان متصارمان » رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، وأورد الشيخ القرضاوي كلام عدد من الأئمة في إسناده ثمّ قال : فالحديث لا ينزل عن الحسن (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٨٢ برقم ٢٢٩) .

تقول إنّها جماعات مسلمة وتقتل البرآء بغير حق ، وبغير ذنب ، وتقتل العزّل من الناس ومن المدنيين ، وتقتل قتلاً عشوائيًّا .

الإسلام يرفض هذا ، الدماء في الإسلام مصونة ، والحياة محترمة ، والقرآن يقرّر ويؤكّد ما جاء في الأديان السابقة أنّ : ﴿ .. مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا .. ﴾ (١) .

ولهذا اقشعرّ بدني ، حينما سمعت قتل الرهبان الفرنسيّين السبعة في الجزائر ، ما صدّقت أن يحدث هذا من مسلم ، الإسلام لا يجيز أن يُقتل الإنسان - في غير حرب - بغير نفس قتلها عمدا ، وبغير فساد في الأرض ، ولم يفعل ما يبيح دمه ، فلماذا يُقتل هؤلاء الرهبان .

الإسلام نهى في الحرب العلنيّة الرسميّة بينه وبين أعدائه أن يُقتل الرهبان ، لا يُقتل إلاّ من يُقاتل .

رأى النبي ﷺ في بعض الغزوات امرأة مقتولة ، فأنكر ذلك ، وقال : « ما كانت هذه لتقاتل » (٢) ، ونهى بعد ذلك عن قتل النساء والصبيان ، كما نهى عن قتل العُسفاء ، أي : الأجراء الذين يعملون بالأجرة .

ونهى الخلفاء الراشدين عن قتل الفلاّحين الذين لا ينصبون للمسلمين في الحرب ، وقال سيّدنا أبو بكر - حينما وجّه جيشاً : ستجدون أناساً في الصوامع ، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له .

هكذا قال أبو بكر ، وأقرّه الصحابة رضوان الله عليهم ، فلماذا يُقتل هؤلاء الرهبان ؟

أخذوهم رهائن ، والإسلام لا يجيز مسألة الرهائن ، لا يجيز أن ترهن إنساناً من أجل وزر إنسان آخر .

---

(١) المائدة : ٣٢ .

(٢) رواه أبو داود برقم (٢٦٦٩) ، وابن ماجه برقم (٢٨٨٢) ، عن رباح بن ربيع ، ونصّه : قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فرأى الناس مجتمعين على شيء ، فبعث رجلاً فقال : « أنظر علام اجتمع هؤلاء » فجاء فقال : على امرأة قتيل ، فقال : « ما كانت هذه لتقاتل » . قال : وعلى المقدمة خالد بن الوليد ، فبعث رجلاً ، فقال : « قل لخالد لا يقتلنّ امرأة ولا عسيفا » .

ما ذنب هذا الإنسان ؟ :

الذين يخطفون الطائرات أو يخطفون السفن ، ويهدّدون الآخرين : إذا لم تسلّموا من عندكم ، أو تسلّمونا كذا ، سنقتل هؤلاء !

ما ذنب هؤلاء المخطوفين ؟

هذا لا يجوز في الإسلام قط .

لا يجوز أن تهدّد إنساناً بريئاً من أجل جرم غيره . الله تعالى يقول : ﴿ .. وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ، وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .. ﴾(1) وهذا أمر مقررّ في الرسالات الإلهيّة جميعاً : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (2) .

وقد روى أهلّ التاريخ : إنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي ، المشهور بالعسف والجبروت ، اعتقل إنساناً ، ثمّ جيء به إليه في مجلس الحكم ، فسأله عن قضيّته ، فقال له : جنى جان من عُرض العشيرة فأخذتُ به - يعني : إنّ أخاه أو ابن عمّه أو واحداً من عصبته جني جناية ، بحثوا عنه فلم يجدوه فأخذوا هذا به - فقال له : أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وقد ... تُعدي الصحاحَ مباركُ الجرب(3) !

ولربّ مأخوذ بذنب عشيرة ... ونجا المقارف صاحب الذنب !

فقال له : أيّها الأمير : إذا كان الشاعر قد قال ذلك ، فإنّي سمعت الله تعالى قال غير ذلك ، قال : ويحك ، وماذا قال الله ؟ قال : قال الله تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾(4) ، صاحب الجريرة يؤخذ بجريرته ولا يؤخذ أحد مكانه .

سمع الحجاج هذه الآية من الرجل فقال : صدق الله وكذب الشاعر ! خلّوا سبيل هذا الرجل .

---

(1) الأنعام : ١٦٤ . (2) النجم : ٣٦ - ٣٨ .

(3) يعني : الأجرب يمكن أن يُعدي السليم . (4) يوسف : ٧٨ ، ٧٩ .

الحجاج الظالم يخضع لنصّ القرآن : ﴿ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾ !

لا يجوز أن نقتل الرهبان من أجل أنّنا نطالب فرنسا بشيء ، ما ذنب هؤلاء الرهبان ؟ وقد قال الله تعالى : ﴿ . . وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾(١) .

لا يجوز أن نظلم أحداً بسبب أحد ، ولذلك سرّني أنّ السياسيّين من جبهة الإنقاذ الذين يعيشون خارج الجزائر أنكروا هذه الجريمة ، وتبرّؤوا منها ، وقالوا : إنّ الإسلام بريء من مثل هذا ، وهذا هو الحقّ الذي ينبغي أن يقال وأن يصرّح به .

ليس هناك أحد أكبر من أن يُلام ، ومن أخطأ ينبغي أن يتحمّل نتيجة خطئه .

الإسلام دين سمح ، ودين عدالة ، ولا يظلم أحدا ، ولا يأخذ أحداً بذنب أحد ، لأنّه يمثّل عدل الله تعالى في الأرض ، والله تعالى هو العدل الذي لا يظلم أحدا .

إيّها الإخوة :

قبل أن أدع مقامي هذا،أحبّ أن أقول كلمة عن نتائج الانتخابات الإسرائيليّة :

العرب كانوا معلّقين كلّ آمالهم على نجاح (بيريز) ، وقد سقط (بيريز) - وهذا ممّا نحمده في إسرائيل ، ونتمنّى أن تكون بلادنا مثلها ، وأن يكون الشعب هو الذى يحكم ، ليس هناك التسعات الأربع (٩٩ و ٩٩) أو التسعات الخمس (٩٩٩و٩٩) التي نعرفها في بلادنا !! إنّ الله تبارك وتعالى وهو خالق الخلق ورازقهم ومدبّر أمرهم لا يأخذ هذه النّسبة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، ولكنّه الكذب والغشّ والخداع - ونحن لا يهمّنا في الحقيقة إن نجح (بيريز) أو نجح (نتنياهو) فكلاهما شرّ ، كما قال أحد الشباب أمس : إنّ كليهما يريد أن يأكلنا ، واحد يريد أن يأكلنا بيديه ، وواحد يريد أن يأكلنا بالشوكة والملعقة ، إنّما نحن المأكـولون ، نجـح (الليكود) أو نجح (العمل) نحن المضيّعون .

ينبغي ألاّ يعلّق الناس أملاً إلاّ على الله عزّ وجلّ .

---

(١) المائدة : ٨٢ . وأوّلها : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا . . ﴾ .

(٢) يوسف : ١٠٣ .

لعلّ الإخوة الفلسطينيين يجمعون صفوفهم ، ويعرفون أنّ هذا السلام الهزيل ، سلام يقوم على ساقين مريضتين ، سلام هشّ لا قيمة له ولا وزن .

ينبغي أن يضعوا كلّهم أيديهم بعضهم في يد بعض .

وينبغي للعرب أن يعودوا إلى أنفسهم ، ويتضامّوا بعد هذه الجفوة التي حدثت ، لا منجي لنا ولا مهرب إلاّ بأن نتحد .. إلاّ بأن نتضامّ .. إلاّ بأن نصبح كتلة واحدة كالبنيان المرصوص .

هذا ما ينبغي أن نفعله .

ليس أمامنا إلاّ بأن نعتصم بحبل الله جميعاً ولا نتفرّق : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع كلمتنا على الهدى ، وقلوبنا على التقى ، وأنفسنا على المحبّة ، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك ، وأصلح لنا شأننا كلّه لا إله إلاّ أنت .

اللهم انصر الإسلام وأعزّ المسلمين ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة أعدائه هي السّفلى ، وانصر إخوتنا المجاهدين في سبيلك حيثما كانوا من أرض الإسلام ، وأنقذ إخوتنا المضطهدين والممتحنين والمأسورين ، اللهم افكك بقوتك أسرهم ، واجبر برحمتك كسرهم ، وتولّ بعنايتك أمرهم .

للهم ولّ أمورنا خيارنا ، ولا تول أمورنا شرارنا ، وارفع مقتك وغضبك عنّا ، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا ، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

اللهم اجعل هذا البلد آمنا مطمئناً ، سخاء رخاء وسائر بلاد الإسلام .

---

(١) آل عمران : ١٠٥ .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(١).

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ .. وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ، وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٣) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .
(٢) الحشر : ١٠ .
(٣) العنكبوت : ٤٥ .

١٨ ـ جولة حول العالم
صورتان متناقضتان

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

كنت في جولة في العالم الإسلامي ، وخارج العالم الإسلامي .

زرت المسلمين في أقطارهم وأوطانهم وزرت - أيضاً - بعض المسلمين خارج الأقطار والأوطان الإسلاميّة ، حين يعيشون أقلّيّات - أو جاليات - في مجتمعات غير إسلاميّة .

والذي خرجت به صورتان متناقضتان :

صورة مشرقة مضيئة ، تملأ النفس بهجة وسروراً .

وصورة أخرى مظلمة معتمة ، تفتّت الأكباد ، وتقطّع نياط الفؤاد .

هاتان الصورتان نطالعهما في كلّ مكان .

صورة معتمة لبعض المسلمين :

صورة بعض أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام ، ويتسمّون بأسماء المسلمين ، وقد نسلوا من بين ظهراني المسلمين ، آباؤهم مسلمون وأمّهاتهم مسلمات ، ولكنّهم يعيشون عيشة بعيدة عن الإسلام ، ويحيون حياة غير إسلاميّة .

هذه الطائفة من الناس نراها في كلّ مكان ، نراها هنا وهناك وهنالك في أرض العرب ، وفي أرض الإسلام .

ترى أولئك الذين يحملون الأسماء الإسلامية ، ولكنهّم لا يحيون الحياة الإسلاميّة .

ترى ذلك الشاب الذي نشأ من بين أبوين مسلمين ، ولكنّه لا يقيم الصلاة .. لا يعظّم شعائر الله .. لا يلتزم بأدب الإسلام ، ولا بخلق الإسلام .. يشرب المسكرات ، ويتناول المخدّرات ، ويمشي وراء الفتيات ، ويعيش عيشة الغربيّين الذين لا دين لهم ، وإن تسمّوا في بعض الأحيان بأسماء المسيحيّة وغيرها .

هذا من ثمار (تيّار التغريب) الذي يعمل عمله منذ مدّة من الزمن في قلب الأمّة الإسلاميّة ·

كان هناك مستعمرون احتلّوا ديار الإسلام حيناً من الزمن ، طال أو قصر ، ثمّ جلت جيوش هؤلاء الأجانب ، رحلت عساكرهم ، ولكن لم ترحل أفكارهم وثقافاتهم وقوانينهم وتقاليدهم ومخطّطاتهم ، بقيت تعمل عملها في الأنفس والعقول والحياة ، وهذا هو الاستعمار الأخطر والأعمق ·

الاستعمار السياسيّ والعسكريّ يحتلّ الأرض ، ولكنّ الاستعمار الفلسفي والفكري والثقافي والاجتماعي يحتلّ نفس الإنسان وعقله وقلبه ، يحتلّ حياته ، ويحتلّ تقاليده وآدابه ومفاهيمه ، وهذا هو الخطر ·

رأينا الاستعمار قد رحل عن بلاد المسلمين ، ولكن ترك وراءه من يعمل عمل المستعمرين ، بل وجدنا من أبناء المسلمين من هو شرّ من المستعمرين ·

كان المستعمرون يستحيون أن يحاربوا الإسلام جهرة وعلانية ، فوجدنا من حكّام المسلمين من يقف جهرة ضدّ الإسلام ·· من يحارب الله -جلّ جلاله- علانية ·· من يتحدّى أحكام الإسلام وشرائعه جهارا ·

هؤلاء بعض من رضع لبان الاستعمار ·· بعض من ربّاهم الاستعمار على يديه ، وصنعهم على عينيه ·

كان من نتيجة هذا أن وجدنا بلاداً إسلاميّة تتنكر للإسلام ، ولا يبقى فيها من الإسلام إلاّ اسمه ، ولا من القرآن إلاّ رسمه ، ووجدنا من أبناء المسلمين من وصفت لكم ، ووجدنا من بنات المسلمين من تخرج من أدبها وزيّها وحجابها ، تخرج تراقص الأجانب ، وتمشي في الطرقات مكشوفة الذراعين والساقين ، بل ما هو فوق الذراعين والساقين ، لا تعترف بخلق إسلامي ، ولا بأدب إسلامي ، من الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ·

رأينا هذا كلّه في بلاد المسلمين ، ورأينا أكثر منه خارج بلاد المسلمين ·

رأينا مسلمين في جاليات قد نسوا إسلامهم ، وبعضهم - ممّن ذكر إسلامه - قد نشأت له ناشئة لا يعرفون عن الإسلام ألفاً ولا باء ·

بعض المسلمين الذين هاجروا إلى ديار بعيدة قد ولد لهم أولاد ·· أبناء وبنات ·· ولكنّ هؤلاء نشأوا في مجتمعات غير إسلاميّة ، ولم يجدوا من الآباء

والأمّهات من يربّيهم على الإسلام ، ومن ينشّئهم على الإيمان والإحسان ، فنشأ ونشأة بعيدة عن المسلمين ، فقدهم أهلوهم ، أصبحوا أناساً آخرين ٠

هذا ما حذّرت منه أولئك المسلمين في تلك البلاد ، وقلت لهم : إن كنتم قد جئتم لتجمعوا الدنيا وتخسروا الدين ، فما أسوأ هجرتكم ، وما أقبح غربتكم ! إذا كسبتم دنياكم وخسرتم أولادكم وذراريكم، ولم تحموهم من النّار، فما كسبتم شيئًا ٠

وجدنا هذا في بلاد كثيرة ٠

صورة معتمة ، صورة مظلمة ، نراها في كلّ مكان ٠

صورة مضيئة لأبناء الإسلام :

ولكن بجوار هذه الصورة المعتمة ٠٠ الصورة السوداء : صورة أخرى مضيئة ، مشرقة بالنّور ، فوّاحة بالعطر ، فيّاضة بالجمال ، موحية بالخير والبركة ، مبشّرة بالظهور والانتصار بإذن الله ٠

هذه الصورة : صورة أبناء الصحوة الإسلاميّة ، صورة الرجعة إلى الإسلام ، صورة أولئك التّوّابين المتطهّرين ، صورة أولئك الذين نراهم في كلّ مكان ، من أبناء الإسلام وبناته ٠

كنت في مدينة (استانبول) التي كانت عاصمة الخلافة الإسلامية العثمانيّة ، فوجدت الصورة المظلمة ، وجدتها في أولئك الذين لا تفرقهم عن الأوربيّين في شيء في بلاد السياحة التي أعمت أعين الناس ، وأصبحت (صنماً) يتعبّد له الكثيرون ٠

ولكن بجوار هذا : تـرى أولئك الذين يعمـرون المساجد ، ويملأونها أيّام الجمع ، فتضيق بهم ، ويصلّون في الشوارع ، وهذه ظاهرة عامّة في بلاد الإسلام ، وهي صورة مضيئة بلا ريب ٠

رأيت في تركيا آلاف المدارس القرآنيّة : البنـين والبنات ، والأطفال من الجنسين ، يقرأون القرآن ويحفظونه ، وقد تجد منهم من يحفظه عن ظهر قلب ، وهو لا يعرف معنى كلمة في اللغة العربيّة ، وهذا من معجزات هذا القرآن العظيم : أن يحفظه من لا يفهم لغته ٠

ازدياد البنوك الإسلاميّة :

كنت في (سويسرا) أحضر اجتماعاً لدار المال الإسلامي في (جنيف) ، ولبنك التقوى في (لوچانو) ، وقلت : سبحان الله ، في وقت من الأوقات كانوا يقولون : إنّه لا يمكن أن تستغني الحياة عن الربا ، الفوائد الربويّة ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة ، الحياة عصبها الاقتصاد ، والاقتصاد عصبه البنوك ، والبنوك عصبها الفوائد الربويّة ، فلا تحلموا ببنوك بغير ربا ٠

هكذا كانوا يقولون لنا في وقت من الأوقات ٠

ثمّ شاء الله أن تتحطّم هذه الأسطورة ، وأن يقف علماء المسلمين من كل الاختصاصات : الاقتصاديّون ، والقانونيون ، والإداريّون ، والمحاسبيّون ، بجوار رجال الفقه والشريعة ، يُجمعون على أنّ الربا والفوائد الربويّة ، وفوائد البنوك هي : الربا الحرام ٠٠ الحرام ٠٠ الحرام [1] ٠

ثمّ بعد ذلك يبحثون عن البدائل الشرعيّة ، فإذا البنوك الإسلاميّة تتعدّى الآن (السبعين) ، والمهمّ أنّها تدخل أوربّا وتدخل بلاد الغرب !

في سويسرا : دار المال وبنك التقوى ، وفي لندن بنوك البركة ، وفي الدنمارك : بيت التمويل الإسلامي ، وهكذا بدأت البنوك الإسلاميّة تغزو عالمنا الإسلامي ، وتخرج من العالم الإسلامي إلى العالم الأوربّي ٠

---

(١) وإذا بنا نفاجأ في صيف عام ١٩٩٠ م بقوم يثيرون قضيّة الفوائد على صفحات الصحف المصريّة من جديد ، بعد أن كانت المجامع والمؤتمرات العلميّة الإسلاميّة قد حسمتها منذ أكثر من ربع قرن ، وحاولوا جاهدين أن يحوّلوا المحكمات إلى متشابهات والقطعيّات إلى ظنّيات ، وبلغت بهم الجرأة أن أفتوا بحلّ فوائد البنوك ، وكأنّه قد كُتب علينا أن نظلّ – كما يقول الأستاذ القرضاوي – ندور حول أنفسنا كالثور في الساقية فلا نحسم معركة يوماً ولا نغلق قضيّة بحال من الأحوال ، وكان الشيخ حفظه الله فى مقدّمة من تصدّى لبيان الحق وكشف الزيف والردّ على الشبهات والأباطيل ، وكان للدراسة الممتعة التي نشرها في كتابه : (فوائد البنوك هي الربا الحرام) صداها القوي في إبلاغ هداية الله وإسماع صوت الحقّ ، فجزاه الله خير ما يجزي العلماء الصادقين ٠

صحيح أنّها تُقاسي وتُعاني وتُحارب من جهات شتّي ، في داخل بلاد المسلمين وخارجها ، ولكنّها تقف على أرض صلبة ، بسبب مؤازرة المسلمين لها .

أصبح هناك شعور إسلاميّ عام يريد أن لا يبوء بلعنة الله ورسوله ، فقد لعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء (١) .

أصبح هناك شعور إسلامي يريد أن لا يأذن بحرب من الله ورسوله ، ولهذا يحرص المسلمون على البحث عن المال الحلال ، والرزق الحلال ، لا يريد أن يدخل جيبه درهم من حرام ، ولا أن يدخل بطنه لقمة من حرام ، ولا أن يغذّى أولاده بالحرام أم يكسوهم من الحرام .

هذا شعور إسلامي عارم عام .

شباب الصحوة الإسلاميّة :

هناك في العالم الإسلامي كلّه : ألوف وملايين الشباب الذين شرح الله صدورهم للالتزام بالإسلام الصحيح علماً وعملا ، يعمرون مساجد الله ، بعد أن كانت شبه مقصورة - قديماً - على الشيوخ الكبار الذين اقتربوا من حافّة القبر ، وهؤلاء الشباب هم الذين يملؤون مواسم الحج والعمرة كلّ عام ، وهم الذين يلتهمون الكتب الإسلاميّة من معارض الكتب ، وهم الذين يسارعون إلى الجهاد كلّما دعاهم داعي الجهاد في سبيل الله .

وبجوار هؤلاء نجد الشابّات المسلمات في الجامعات والمعاهد والمدارس ، وغيرها من المؤسّسات ، يقبلن على (الحجاب) طائعات مختارات ، مستجيبات لأمر الله تعالى للمؤمنات : ﴿ .. وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. ﴾ (٢) .

لقد تمرّدن على أزياء الحضارة الغربيّة المستوردة ، التي توارثنها عن أمّاتهنّ وقريباتهنّ ، والتزمن بأوامر الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم .

هذه بعض معالم الصورة المضيئة .

---

(١) جاء ذلك فى حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال لعن النبى ﷺ آكل الربا ، ومُؤكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : « هم سواء » رواه مسلم ، وغيره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٣٤ برقم ١٠٥٦) .

(٢) النّور : ٣١ .

في (إنجلترا) حضرت هناك مخيّمًا للشباب المسلم في مدينة (ليڤربول) ·
مخيّم الشباب المسلم هذا يجمع صفوة الشـباب الذين ذهبوا إلى تلك البلاد ليدرسوا (البكالوريوس) أو (الماچستير) أو (الدكتوراة) ·

كانوا قديماً يبعثون بالشباب إلى أوربّا وأمريكا ليصنعوا هناك ، ويُصهروا هناك ، ويعودوا بعد مدّة من الزمن خواجات بأسماء مسلمين ، يعودون بوجوه عربية إسلاميّة، وعقول غربيّة أوربيّة ·

اليوم تغيّر الحال ، أصبح كثير من الشباب يذهبـون إلى تلك البلاد ودينهم قليل ، وتدينهم ضعيف ، وصلاتهم خفيفة ، ولعلّه لا صلاة لهم ، فإذا هم هناك يشعرون بالتحدّى للإسلام والمسلمين ، وإذا هم يجدون شباباً قد سبقوهم إلى الإسلام الصحيح ، والالتزام الإسلامي الصادق ، فإذا هم يتأثّرون بهذا الجوّ الإسلامي والمناخ الإسلامي ، ويلتزمون بالإسلام اعتقاداً وفكراً وشعوراً وسلوكاً وعبادة ومعاملة ·

وإذا هؤلاء الشباب يصبحون دعاة إلى الإسلام ، لم يكتفوا بأن يكونوا متديّنين فى أنفسهم ، بل يحملون الإسلام إلى غيرهم ، ويقيمون في ديار الغربة ·· في ديار غير إسلاميّة : مخيّمات ومعسكرات إسلاميّة ، يُكبّر الله فيها ، يُنادى فيها بالإسلام ، يُؤذَّن فيها الأذان ، تُلقى فيها المحاضرات الإسلاميّة ، والأناشيد الإسلاميّة ، وتُعقد فيها الندوات الإسلاميّة ، من قبل الفجر وإلى ما بعد العشاء ·

مؤتمرات إسلاميّة في أمريكا :

والله لقد حضرت مخيماً أو مؤتمراً في إحدى مدن أمريكا فرأيت عجبا :

فندقان كبيران قد حُجزا ، أحدهما للرجال ، والآخر للنساء ، الطوابق الثلاثين قد أجّرها الشباب في عيد ممّا يسمّونه (أعياد الكرسمس) ، الناس يأخذون الإجازات في تلك الفترة ليشربوا الخمور ويمارسوا الفجور ، وهؤلاء الشباب استغلّوا هذه الفترة ليستأجروا فنادق يقيمون فيها دينهم !

من قبل الفجر بساعة تسمع في الحجرات دويًّا بالقرآن كدويّ النَّحل ، حتى إذا

جاء الفجر الصادق سمعت الأذان يؤذنّ في قلب أمريكا : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إلّه إلاّ الله ، فإذا جاء الصباح رأيت التمرينات الرياضيّة ، ثمّ رأيت الأناشيد الإسلاميّة ، ثمّ رأيت حلقات القرآن ودراسة الحديث والسيرة ، وحلقات للفقه وتعلّم الأحكام ، ثمّ رأيت المحاضرات والنّدوات والمناقشات .

حياة إسلاميّة لعدّة أيّام .

قلت لهم : والرجل صاحب الفندق رضى بهذا ؟ قالوا : نعم ، وفرح به ، لأنّه يؤجّره للمسيحيّين في مثل تلك الفترات فيكسرون الأطباق ، ويخرّبون الأشياء ، ولكنّه يأخذ الأشياء منّا بعد رحيلنا أفضل ممّا كانت !

نماذج وضاءة .. نماذج مسلمة ، تقرّ بها الأعين ، وتنشرح بها الصدور ، وتبتسم لها الثغور .

إذا كانت هناك صورة مظلمة معتمة ، فبجوارها صورة مضيئة مشرقة في كلّ مكان .

صحوة في أستراليا :

فى (أستراليا) بجوار أولئك الذين ذابوا في المجتمع غير المسلم ، وذاب أبناؤهم وبناتهم وضاعوا ، وجدنا آخرين حريصين علي دينهم ، غيورين على أبنائهم وبناتهم ، يربّونهم على الإسلام ، وينشّئونهم على القرآن منذ الصغر ، فمن شبّ على شيىء شاب عليه ، ومن شاب على شيىء مات عليه .

رأينا هؤلاء يتجمّعون في المساجد في كلّ حين ، خاصّة فى أيّام الجمع والسبت والأحد ، ليعلّموا أبناءهم القرآن والسيرة النبويّة والفقه وغير ذلك من أحكام الإسلام ، ويجتمعون في حلقات وفي أسر ليبقوا على حياتهم الإسلاميّة .

وهم فى تلك البلاد لا ينسون إخوانهم في البلاد الإسلاميّة الأخرى .

أعجبني بعد أن خطبت الجمعة في أحد المساجد فى مدينة (مربول) - وفيها جالية إسلاميّة وعربيّة كبيرة وخاصّة من اللبنانيين - بعد الصلاة تنادوا بالتبرّع لإخوانهم فى السودان !

كانت أنباء الفيضانات في السودان على أشدّها ، فهم تنادوا بالتبرّع للسودان ، رغم بُعد الشقّة ، ورغم طول المسافة ، هم يشعرون بأنّهم جزء من الأمّة الإسلاميّة : « من لا يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم ٠٠ » (١) .

صورة من الصور المضيئة : دُعيت هناك إلى مؤتمر إسلاميّ فى تلك المدينة ، همّه ومحوره : البحث عن حلول لمشكلات المسلمين المغتربين هناك ٠

فهم يريدون أن يحيوا بالإسلام ، وأن يحيوا للإسلام ، وأن يموتوا على الإسلام ، كما قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٢) .

حكوا لي : إنّه قبل أكثر من قرن – حوالي قرن ونصف استدعي إخوان لهم من أفغانستان ، بإبلهم وجمالهم ، ليجوبوا الصحراء ، ويكتشفوها ، وينتفعوا بها ، ولكنهم ذهبوا بغير زوجاتهم ، فتزوّجوا من أهل استراليا نفسها ، واستطاع الجيل الأوّل أن يحتفظ بإسلامه ، ولكنّ الأجيال التالية بعد ذلك لم تستطع أن تحتفظ بإسلامها ، فتاهت وذابت وماعت في المجتمع الكبير ، وهذا هو الخطر ، وقالوا : لا نريد أن تتكرّر التجربة ، نريد أن نحتفظ بأبنائنا مسلمين وبناتنا مسلمات ٠

هذه هي الروح الإسلاميّة ، هذه هي الصورة المضيئة التي لمسناها هناك ٠

في (أندونيسيا) وجدنا هناك تيّارات ٠٠ تيّارات كبيرة ٠٠ تيّارات تريد أن تسلخ هذا البلد الكبير ٠٠ أكبر بلد إسلامي ٠٠ مائة وستون مليوناً ٠٠ حوالي (٩٠ ٪) أو ما يقرب من (٩٠ ٪) منهم مسلمون ٠

هناك تيّارات التنصير تعمل عملها ، على قدم وساق ، من أوربّا وأمريكا ، ومن كلّ بلاد التنصير تجيء الإرساليات ٠

إندونيسيا مجموعة من الجزر تبلغ ثلاثة آلاف جزيرة ، المسلمون يتصلون بهذه الجزر عن طريق القوارب ، أو السفن الشراعيّة ، أو البخاريّة على أقصى تقدير ، ولكن هذه الإرساليّات التبشيريّة التنصيريّة تملك أكثر من خمسين مطارا ! بالطائرات

---

(١) رواه الطبراني في الكبير من حديث حذيفة من رواية عبد الله بن أبى جعفر وهو مختلف فيه ، فبعضهم ضعّفه ، وبعضهم وثّقه ، منهم أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان٠ أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : حديث ٩٩٧) والهيثمي (١ / ٨٧) ٠

(٢) آل عمران : ١٠٢ ٠

تنتقّل بين الجزر .. إمكانات هائلة أعطيها هؤلاء .. إنّهم يريدون أن يعملوا عملهم في ذلك البلد الكبير .

وللأسف أقول لكم بصراحة : لقد بدأت نسبة المسلمين في التناقص ، يجب أن نصارح أنفسنا ، وهذا ما قاله لي الإخوة المسؤولون عن الدعوة هناك ، وعلي رأسهم الأخ الكبير الدكتور محمد ناصر رئيس وزراء اندونيسيا الأسبق . قالوا لي : إنّ النّسبة بدأت تتناقص لحساب التبشير ، ليس تناقصاً كبيراً .. أقل من (١ ٪) ، ولكن (١ ٪) فى هذا التعداد الضخم يساوي مليوناً وستمائة ألف ، و (١/٢ ٪) معناها ما يقارب المليون ، وهذا خطر .

الإسلام بطبيعته يزحف وينتشر ، ولكن إذا وُجد في مثل هذه الظروف التي يُستغلّ فيها ثالوث(الفقر والجهل والمرض)، فإنّ هؤلاء القوم يستطيعون أن يؤثّروا .

إن للتبشير وللتنصير في البلاد العربيّة هدفاً ، وإنّ له في خارج المنطقة العربيّة هدفاً آخر .

هدفه في المنطقة العربيّة - منطقة اللسان العربيّ الذي نزل به القرآن - أن يزعزع المسلمين عن الإسلام،وليس هدفه أن يدخلهم في النصرانيّة ، فهو يجد هذا شيئاً بعيداً .

أمّا خارج هذه المنطقة حيث يوجد الفهم الضعيف للإسلام - توجد عاطفة إسلاميّة،ولا يوجد فهم إسلاميّ صحيح..لا توجد مناعة..لا توجد حصانة إسلاميّة - فهم يعملون على إخراج المسلم من دينه،وإدخاله في الدين الآخر، وخصوصاً من الأطفال والفقراء والمشرّدين والضعفاء واليتامى وغيرهم،هم يبحثون عن مثل هؤلاء ويأخذونهم من أوّل الأمر ومنذ نعومة الأظفار ليعلّموهم ويلقّنوهم دينهم .

بجوار هذه الصورة ، هناك سعي دؤوب من الدعاة ، ومن المجلس الأعلى للدعوة الإسلاميّة ، ومن الغيورين على الإسلام ، للمقاومة وللحفاظ على الذات ، وللإبقاء على الشخصية الإسلاميّة التاريخيّة لإندونيسيا .

صنفان من المسلمين متقابلان :

الإسلام في كلّ مكان يجد هذين الصنفين :

صنف المتغربّين الذين انخلعوا من أصولهم ، وقطعوا من جذورهم، وسلخوا

من جلدهم ، أو من ذاتيّتهم الإسلاميّة ، هؤلاء الذين يتسمّون بأسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين .

ويجد الصنف الآخر : الصنف الذي يأبي إلاّ أن يعيش مسلماً ويموت مسلماً ، الذي جعل الإسلام أكبر همّه ، ومحور حياته ، ومدار تفكيره وسعيه .

ونحمد الله أنّ هذا الصنف بدأ يزداد يوماً بعد يوم ، بفضل هذه الصحوة الإسلاميّة التي نرى آثارها ونلمس مظاهرها في كلّ مكان من أرض الإسلام ، وخارج أرض الإسلام .

صحيح أنّ أعداء الإسلام لها بالمرصاد ، وأنّ أجهزة الرصد ترصدها وترقبها ، وترصد الملايين لدراستها ، لكي تعمل على وأدها ، فإمّا أن تتآكل من الداخل ، وإمّا أن تُضرب من الخارج ، تريد أن تشغلها بنفسها ، وتشغل فئاتها بعضهم ببعض ، وتقيم بينها وبين الحكام عداوات وجفوات ، وتقيم بينها وبين المجتمع فجوات وفجوات ، وهكذا أعداء الإسلام بالمرصاد للصحوة الإسلاميّة .

واجب أبناء الصحوة :

وينبغي على أبناء الصحوة الإسلاميّة أن يفوّتوا على هؤلاء مقاصدهم ، إذا وعوا دورهم وعيًا صحيحاً ، إذا اهتمّوا بالكلّيّات قبل الجزئيّات ، وبالأصول قبل الفروع ، وبالقضايا الكبيرة قبل الأمور الصغيرة ، وبالقضايا الكلّيّة قبل المسائل الجزئيّة والخلافيّة التي يستحيل أن ينتهي الخلاف فيها بين الناس .

يجب على الصحوة الإسلاميّة أن تدرك هذا الدور ، وتدرك كيد الأعداء الذين يسعون سعيهم في تمزيق الصف الإسلامي عن طريق نشر ضلالات وبدع وانحرافات يروّجون لها ، فلا بدّ لأبناء الإسلام الواعين أن يعرفوا كيد القوم ، وأن يحبطوا مكرهم ، ويردّوا سهامهم المسمومة إلى صدورهم: ﴿ .. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

إنّ الصورة المضيئة تزداد والحمد لله ، وعندنا أمل كبير أن ينصر الله الإسلام ويعزّ دينه ، وعندنا بشائر من القرآن والسنّة : أنّ هذا الدين منصور ، وأنّ رايته مرفوعة وأنّه ظاهر على الدين كلّه ولو كره المشركون ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

---

(١) الأنفال : ٣٠ .

﴿ هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (١) ، وصدق رسوله ﷺ إذ قال : « ليبلغنّ هذا الأمر [أى أمر هذا الدين] ما بلغ الليل والنّهار ،و ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر [أي في البادية أو الحضر] إلاّ أدخله الله هذا الدين ، بعزّ عزيز ، أو بذلّ ذليل ، عزًّا يعزّ الله به الإسلام ، وذلاّ يذلّ الله به الكفر » (٢) .

وإنّا لهذا اليوم - يوم عزّ الإسلام وذلّ الكفر - إن شاء الله لمنتظرون : ﴿ .. وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللهِ ، لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

أقول قولي هذا أيّها الإخوة ، واستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

• الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة :

هناك أمور ثلاثة ، أحبّ أن أنبّه عليها :

الأمر الأوّل : أنّ إخوة لكم في (بنجلادش) - ذلك البلد الإسلامي السّنّي العريق ، الذي يضمّ حوالي تسعين مليوناً ، معظمهم مسلمون سنّيّون - يتعرّضون لأزمة شديدة ، نتيجة الفيضانات التي شرّدت الملايين ، وهدّمت البيوت ، وغرّقت الناس . فهم بحاجة إلى المعونة : « .. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » (٤) .

---

(١) التوبة : ٣٣ . الصّفّ : ٩ .

(٢) رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح . أنظر (المبشّرات بانتصار الإسلام للقرضاوي : ص ٢٧) ط . مكتبة وهبة بالقاهرة . (٣) الروم : ٤ - ٦ .

(٤) قطعة من حديث رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذيّ وحسّنه ، والنّسائي ، وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، عن أبى هريرة ﷺ ، وهو الحديث السادس والثلاثون من أحاديث الأربعين النووية ، ونصّ الحديث كما رواه الترمذي : « من نفّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر في الدنيا يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر علي مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : برقم ٤٧٢ ، ١٣٨٥ ، ١٥٧٠) .

لقد رأيتم إخوانكم في (استراليا) يهتمون بإخوانهم في السودان ، ونحن أولى أن نهتمّ بإخواننا في ذلك البلد المسلم - في بنجلادش - الذي يتعرّض لغزو تبشيريّ تنصيريّ أيضاً ، حرام علينا أن تذهب أولئك الفئات الذين يمثلون الجهات المسيحيّة ، ولا توجد الجهات الإسلاميّة ممثّلة تمثيلاً قويًّا ٠

جزى الله دولة (قطر) خيراً ، حيث بادرت بإرسال المعونة ، وذهبت أوّل طائرة تحمل المعونات الطبية والغذائيّة إلى ذلك البلد ، ونحن باعتبارنا مسلمين أفراداً علينا أن نقوم بهذا الأمر ٠

لقد قام الكثيرون بواجبهم نحو إخوانهم في السودان ، حتى قال لي بعض الإخوة السودانيّين : إنّ السودان وجد الكثير من المعونات من (قطر) جزاها الله خيراً ، والآن علينا جميعاً أن نوجّه المساعدة إلى (بنجلادش) ، وسنفتح - إن شاء الله - حساباً في مصرف قطر الإسلامي تحت اسم (الهيئة الخيريّة الإسلاميّة) لمساعدة الإخوة في هذا البلد الإسلامي ٠

نسأل الله أن يعينهم علي أزمتهم ، وأن يخرجهم من كربتهم ، وأن يكشف غمتهم ٠

الأمر الثاني : أنّنا ودّعنا - في هذه الأيام - أخاً كريماً من الدعاة إلى الله ، الذين طالما استمعنا إليهم وزارونا في أكثر من مناسبة ، خاصّة في رمضان ، وفي رمضان الماضي كان هنا - في الدوحة - وحدّث الإخوة في الجامع الكبير ٠

ذلكم هو الأخ الداعية الدكتور : يوسف حامد العالم [1] ، أحد الدعاة في السودان ، توفّي إلى رحمة الله تبارك وتعالى ، نسأل الله أن يتقبّله في الصالحين ، ويغفر له ، ويرحمه ويجزيه عن الدعوة الإسلاميّة والعمل الإسلامي خير الجزاء ٠

الأمر الثالث : أنّ الله سبحانه وتعالى شرّف (قطر) ، بأن تضمّ قافلة الشهداء في أفغانستان أوّل شهيد من أبناء هذه البلاد ، هو ذلكم الشاب الصالح الغيور المتحّمس ابن الثامنة عشرة : أحمد عبد الله صالح الخليفي ، الذي أخذ إجازة من عمله ، ولكنّه استغلّ هذه الإجازة ليذهب إلى أفغانستان هناك ، ويخوض المعارك ، ويطلب الشهادة ٠

---

(١) عميد سابق لكلّيّة القرآن الكريم بالخرطوم ، وهو صاحب كتاب (المقاصد العامّة للشريعة الإسلاميّة) الذي أعدّه لنيل درجة الدكتوراة في الفقه وأصوله من كلّيّة الشريعة والقانون بجامعة الأزهر عام ١٣٨١ هـ / ١٩٧١ م ٠

صحيح أنّه كان يتمنّى ويدعو الله أن يردّه - بعد أن يأخذ الخبرة من أفغانستان - لتكتب له الشهادة في أرض (فلسطين) لتحرير المسجد الأقصي .

كان يدعو بذلك ولكنّ الأجل وافاه ، وكل إنسان يذهب إلى موتته حيث أراد الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ .. وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ (١) .

مشيناها خُطى كُتبت علينـــا ... ومن كُتبت عليه خُطى مشاها

ومن كانت منيتـــــه بأرض ... فليس يموت في أرض سواها

استشهد هذا الشاب الصالح المجاهد ، وضُمّ إلى قافلة الشهداء الأبرار ، في أشرف قتال من نوعه في تلك الأراضي حيث يدافع المسلمون عن دينهم وأرضهم وعرضهم ، في مقاومة تلك القوّة الشيوعيّة الملحدة الطاغية .

نسأل الله الذي هيّأ لإخواننا في أفغانستان هذا الجهاد وهذا الشرف ، أن يهيىء أمثاله لأبناء الإسلام على أرض النبوّات .. على أرض المقدّسات في فلسطين ، وأن يهييّء الله النصر للمسلمين في كلّ جهاد يجاهدونه ، إنّه سميع قريب .

اللّهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين ، اللّهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى .

اللّهمّ أعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن .

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا .

اللّهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقلّ من ذلك .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) لقمان : ٣٤ . (٢) آل عمران : ١٤٧ .

(٣) الحشر : ١٠ .

عباد الله : يقول الله تبارك وتعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) ، اللّهمّ صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿ . . وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) الأحزاب : ٥٦ .   (٢) العنكبوت : ٤٥ .

١٩ ـ خطبة عيد الفطر

أُلقيت في ميدان عابدين بالقاهرة سنة ١٤٠١ هـ

الحمد لله ، الحمد لله ربّ العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، خصّنا بخير كتاب أنزل ، وأكرمنا بخير نبيّ أرسل ، وجعلنا به خير أمّة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ونؤمن بالله .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا . . ﴾ (١) .

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، أدّى الأمانة ، وبلّغ الرسـالة ، ونصح للأمّة ، وجاهد في الله حقّ جهاده ، وتركنا على المحجّة البيضاء ، على الطريقة الواضحة الغرّاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاّ هالك ، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينا .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم ، وارض اللهم عن آله وصحابته ، وأحينا اللهم على سنّته ، وأمتنا على ملّته ، واحشرنا في زمرته ، مع الذين أنعمت عليهم من الصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

يوم التكبير والمقصود منه :

هذا يوم العيد ، هذا يوم التكبير : الله أكبر ، الله أكبر، الله أكبر . الله أكبر ، الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، الله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

الله أكبر من كل قوة تظهر في هذا الوجود ، الله أكبر من طغيان الطاغين ، ومن استكبار المستكبرين ، الله أكبر من كل من يطغيه المال أو يطغيه السلطان .

إذا رأيت الدنيا برقت أمامك ، وسال إليها لعابك ، فاذكر أنّ الله أكبر ، إذا رأيت طاغية من الطغاة ، وأردت - أو خطر ببالك حينا - أن تطأطـيء له الرأس ، أو تحني له الظهر ، فاذكر أنّ الله أكبر .

---

(١) المائدة : ٣ .

علّمنا الإسلام التكبير : إذا أذّنّا كبّرنا الله ، وإذا أقمنا كبّرنا الله ، وإذا دخلنا في الصلاة كبّرنا الله ، وإذا وُلد المولود كبّرنا الله ، وإذا ذبحنا الذبيحة كبّرنا الله ، وإذا خضنا المعارك كبّرنا الله ، وإذا جاء يوم العيد رفعنا أصواتنا وقلنا : الله أكبر الله أكبر ، لا إلّه إلاّ الله ، الله أكبر . الله أكبر ولله الحمد .

فرحة العيد ، ولماذا نفرح ؟ :

أيّها الإخوة :

هذا يوم العيد ، هذا عيد الفطر ، أفطرنا وفرحنا فرحة الصائم عند فطره ، وننتظر الفرحة الكبرى عند لقاء ربنا : « للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه »(١) .

« فرح بفطره » فرحة طبيعيّة لأنّه حصل على حرّيّته ، أبيح له ما كان حراماً عليه . و « فرح بفطره » فرحة دينيّة ، لأنّه وُفّق إلى أداء واجبه نحو ربه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١) .

وهو يفرح هذه الفرحة كلّ يوم بعد الغـروب ، حين يفطر ويقول : ذهب الظمأ ، وابتلّت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله .

ويفرحها بعد انقضاء شهر رمضان ، وما وفّقه الله فيه من الصيام والقيام ، فيقول : الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

لقد مضى رمضان إمّا شاهداً لنا وإمّا شاهداً علينا ، مضى رمضان شفيعاً لقوم أحسنوا الصيام وأحسنوا القيام ، إيماناً واحتساباً ، فغفر لهم ما تقدّم من ذنوبهم .

ولكنّه سيشهد على قوم لم يحسنوا الصيام ولم يحسنوا القيام ، فليس لهم من صيامهم إلاّ الجوع والعطش ، وليس لهم من قيامهم إلاّ التعب والسهر .

فما بالكم بأقوام لم يصوموا ، ولم يقوموا ، وهم في بلاد الإسلام وينتسبون إلى المسلمين ؟! « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض ، لم يقض عنه صوم الدهر كلّه وإن صامه »(٣).

---

(١) من حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري - واللفظ له - ومسلم وانظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٠٧ برقم ٥٠٥) .

(٢) يونس : ٥٨ .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه الترمذي ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه وأحمد =

مضي رمضان شهيداً لنا أو شهيداً علينا ، وإنّا لنرجو أن يكون شهيداً لنا ، وأن يشفع لنا مع القرآن : « الصيــام والقــرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيــام : أي ربّ منعته الطعام والشهوة فشفّعني فيه ، ويقــول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيــه ، قال : فيشفّعان »(١) ، نرجوا الله أن يشفع لنا القرآن ويشفع لنا الصيام .

مضي رمضان ، وستمضي الشهور كلّها ، وستمضي الأعوام ، وتنقضي الأعمار هكذا .

يفرح الناس بانقضاء شهر مضي ، ولا يدرون أنّ هذا الشهر إنّما هو صفحات من كتاب حياتهم طُويت ، إنّما هي أوراق ذبلت من شجرة العمر .

وما المرء إلاّ راكـب ظهر عمره ... على سفـر يفنيه باليوم والشهر !
يبيت ويُضحـي كلّ يوم وليلة ... بعيداً عن الدنيـا قريباً إلى القبر !

كلّ يوم يمضي يقرّبك خطوة إلى قبرك ، يقرّبك مسافة إلى نهاية أجلك .

ونفـــرح بالأعوام إمّا تصرّمت ... على أنّها من عمـــــرنا تتصرّم !

يفرح الإنسان بانقضاء الأيام والشهور ، وما دروا أنّها حياتهم تنقضي بها .
يقول الحسن رحمه الله : يا ابن آدم إنّما أنت أيام مجتمعة ، كلّما ذهب يوم ذهب بعضك !

من كان يعبد رمضان فإنّ رمضان قد مات :

هناك بعض الناس يُقبلون على الله في رمضان ، فإذا ما انتهى رمضان انتهى ما بينهم وبين الله ، قطعوا الحبال التي بينهم وبين الله ، لا تراهم يرودون المساجد ، لا تراهم يفتحون المصاحف ، لا تراهم يرطّبون ألسنتهم بالذكر والتسبيح ، كأنّما يُعبد الله في رمضان ولا يُعبد في شوّال وسائر الشهور .

= والدارمي ، والدارقطني ، من حديث أبي هريرة ، وعلّقه البخاري بصيغة التمريض (شرح السنة للبغوي بتحقيق شعيب الأرناؤوط : ٦ / ٢٩٠ برقم ١٧٥٣) (فيض القدير للمناوي : ٦ / ٧٧ برقم ٨٤٩٢) . والحديث - كما قال البغوي - على طريق الإنذار والإعلام بما لحقه من الإثم وفاته من الأجر .

(١) رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ، ورواه الطبراني في الكبير ورجاله محتج بهم في الصحيح ، قال الهيثمي : رجال الطبراني رجال الصحيح (المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٠٩ برقم ٥٠٩) .

من كان يعبد رمضان فإنّ رمضان قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت ، كان بعض السلف يقولون : بئس القوم قوم لا يعرفون الله إلاّ في رمضان ، كُن ربانياً ولا تكن رمضانياً ·

كن ربانياً : أي كن مع الله ربك في كلّ أوان ، اتق الله حيثما كنت · · ولا تكن رمضانيا : تصطلح على الله في رمضان ، ثمّ تبارزه بالغفلة والمعصية بعد رمضان ·

ربّ رمضان ربّ الشهور كلّها ·

صيام ستة من شوّال وحكمته :

إنّ الإسلام شرع لنا بعد رمضان صيام ستّ من شوّال ، ليكون المسلم على موعد مع الله دوماً ، يفرغ من عبادة ليدخل في عبادة ، وتنقضي طاعة ليبدأ طاعة ، ليضع يده دائماً في يد الله : « من صام رمضان ، ثمّ أتبعه ستًّا من شوّال كان كصيام الدهر »[1] أي : كأنّما صام السنة كلّها ، صيام شهر - أي رمضان - بعشرة أشهر ، وصيام ستة أيام بشهرين ، الحسنة بعشر أمثالها ، وبهذا كأنّما صام السنة ، فإذا حافظ على هذه الست بعد رمضان مباشرة ، أو خلال شوّال كلّه ، فكأنّما صام الدهر كلّه ·

أوّل عيد في قرن هجري جديد :

يا أيّها الاخوة :

انقضى رمضان ، وها نحن الآن نستقبل العيد ، نستقبل عيداً له معنى خاص ، وله عنوان خاص ، هذا أوّل عيد في قرن جديد ، هذا هو العيد الأوّل في القرن الخامس عشر الهجري ، أوّل عيد تستقبله أمتّنا بعد أن قطعت في عمرها أربعة عشر قرنا ، منذ جاء الإسلام في المدينة وهاجر النبي عليه الصلاة والسلام ، وقامت دولة الإسلام في المدينة ·

---

(١) من حديث أبى أيوب الذي رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والطبراني وزاد : قال : قلت : بكلّ يوم عشرة ؟ قال : « نعم » · ورواته رواة الصحيح كما قال المنذري والهيثمي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣١٥ برقم ٥٢٣) ·

قرون حافلة بالمحن والأمجاد :

أربعة عشر قرنا انقضت على هذا الإسلام حقّق فيها انتصارات وإنجازات هائلة ، كما لقي فيها مصاعب ومحناً قاتلة .

انتصارات الإسلام وإنجازاته :

حقق الإسلام انتصارات وإنجازات أشبه بالمستحيلات ، لم يحققها دين غيره ، ولا أمّة غير أمتّه .

وحّد العرب بعد فرقة وشتات ، وهداهم من ضلالة ، وأخرجهم من الظلمات إلى النّور ، وجعل منهم خير أمّة أخرجت للنّاس .

وانتصر على أميرا .. الفرس والرومان ، وهما القوتان اللتان كانتا تتنازعان السيادة على العالم القديم ، قوة الفرس في الشرق ، وقوة الروم في الغرب ، قد ورثهما الإسلام وحملة رسالته ، وأنفقوا كنوزهما في سبيل الله .

وصل الإسلام في أقل من قرن من الزمان إلى الصين شرقاً ،وإلى الأندلس في أسبانيا غرباً ، وكاد يدخل فرنسا وأوربا الغربية لولا ما قدر الله في معركة (بوأتيه) .

كان الفتح الإسلامي فتح تمدين للبلاد ، وإصلاح للعباد ، ولم يكن كالفاتحين القدامى ﴿ .. إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. ﴾ [1] ، ولذا قال المؤرّخون بحق : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب ، يعني : المسلمين .

لقد حكم المسلمون الناس بالعدل والإحسان ، فشعر الناس بالأمان والاطمئنان ، مسلمين وغير مسلمين ، وأقام المسلمون حضارتهم المتميزّة المتوازنة المتكاملة ، التي جمعت بين العلم والإيمان ، ومزجت بين الروح والمادّة ، وربطت الأرض بالسماء ، ووفّقت بين الإبداع المادي والسموّ الروحي والأخلاقي ، وكانت الأمّة المسلمة هي الأمة الأولى ، وحضارتها هي السائدة لعدّة قرون في العالم كلّه .

محن ينتصر فيها الإسلام :

ومع هذه الانتصارات والإنجازات ، فقد لقي الإسلام خلال تاريخه شدائد ومحنا لو أصيب بها غيره لهلك وضاع ، لقد لقي فيها الإسلام ما لقى ، وقاسى فيها

---

(١) النّمل : ٣٤ .

ما قاسى ، ولكنّه صبر وصابر ، وصمد وثابت ، على رغم قسوة الخطوب ، التي أحاطت به في مختلف العصور ، كان الناس يظنّون بعدها أنّ الإسلام لن يُرفع له علم ، ولن يقوم له شأن ، ولن تعلو له كلمة ، ولكنّ الإسلام العظيم - بقوّته الذاتية - تغلّب على المحن كلّها .

انتصار الإسلام على المرتدين :

في فجر الإسلام ارتدّ العرب وقالوا : إنّما كنّا نتبع محمدا ، ولا نتبع من بعده ، وتبع بعضهم المتنبئين - أمثال : مسيلمة الكذاب ، وسجاح بنت الحارث ، والأسود العنسي ، وغيرهم - عصبيّة لهم ، حتى قال قائلهم : كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر !

وهناك من قوتلوا حينما أنكروا الزكاة ، وقالوا : نؤديّ الصلاة ولا نؤتي الزكاة ، وأبى خليفة رسول الله أبو بكر إلاّ أن يقاتلهم ، وقال : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عناقا - عنزاً صغيرة - أو عقال بعير ، كانوا يؤدونه لرسول الله ، لقاتلتهم عليه ما استمسك السيف بيدي ، وجهّز أحد عشر لواءً لمقاتلة المرتدين ومانعى الزكاة .

وكان هذا أوّل حاكم يعرفه التاريخ يعلن الحرب ، ويجيّش الجيوش ، من أجل انتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء الأشحّاء .

قبل أن تعرف الدنيا الاشتراكيّة والشيوعيّة والماركسيّة ، قاتل الإسلام من أجل الفقراء ، لم يطالب الفقراء بحقوق لهم ، لم يعقدوا مؤتمراً ، لم يسيّروا مظاهرة ، ولكنّ الإسلام ضمن لهم حقوقهم التي قررها لهم ربهم في أموال الأغنياء :
﴿ وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِم حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١) .

وانتصر الإسلام على المتنبئين ، وانتصر الإسلام على مانعى الزكاة ، وانتشر نور الإسلام من جديد ، وأصبح كثير من الذين ارتدّوا وقاتلوا الإسلام يقاتلون نصراً للإسلام ، ودفاعاً عن الإسلام ، في فتوح فارس والروم .

انتصار الإسلام علي التتار :

وجاءت حروب التتار ، ودخلوا بغداد وحطّموا الخلافة العباسيّة ، وذبّحوا

---

(١) المعارج : ٢٤ ، ٢٥ .

المسلمين تذبيحاً ، حتى كانت الميازيب - التي جعلت للأمطار فوق سطوح المنازل - تسيل دماء من دماء المسلمين ، وحتى أصبحت هناك أسطورة القوّة التي لا تُقهر ، فقد قال المثل السائر : إذا سمعت أنّ التتار قد انهزموا فلا تصدّق !

وجاء من هزم التتار ، وجاءت حملة خرجت من مصر بقيادة المظفّر (قطز) في شهر رمضان من سنة ٦٥٨ هـ - أي بعد سقوط بغداد بسنتين فقط - وكانت معركة (عين جالوت) التي دارت الدائـرة فيـها أوّل الأمـر على المسـلمين ، فصاح السلطان قطر صيحته التاريخيّة المعروفة - وألقى بخوذته إلى الأرض - وقال : وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! وا إسلاماه ! هناك أقبل المدبر ، هناك ثبت المتردّد ، هناك تشجّع الجبان ، هناك هجم المسلمون كالأسود الكاسرة ، وكانت الدائرة للمسلمين وعلى أعداء المسلمين ، وانتصر المسلمون في عين جالوت على التتار ، ولم تقم لهم قائمة .

انتصار الإسلام على الصليبيّين :

وجاء الصليبيّون بقضّهم وقضيضهم ، وثالوثهم وصليبهم ، جاءوا يرفعون الصلبان من أوربّا ، باسم المسيح وقبر المسيح ، والمسلمون في غفلة ، متمزّقون شذر مذر ، لا رابطة ولا راية تجمعهم ، الخلافة ممزّقة .

في هذه الحالة استطاعوا أن يدخلوا أرض فلسطين . . أرض النبوات ، وأن يستولوا على بيت المقدس ، وأن يقيموا لهم أمارات وممالك ظلّت نحو قرنين من الزمان ، حتى قيّض الله رجالاً للإسلام أمثال : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود الشهيد ، وتلميذه القائد صلاح الدين الأيّوبي .

قيض الله للإسلام أمثال هؤلاء الذين أبوا إلاّ أن ينصروا الإسلام ، وأن يعيشوا للإسلام ، وأن ينفخوا في الأمّة الروح .

أبى صلاح الدين ومن قبله نور الدين محمود إلاّ أن ينفخوا في الأمّة من روحها ، وأن يعيدوا إليها حيويّتها ، بتجديد الإيمان فيها ، وبصناعة السلاح .

وهكذا قامت المعارك بين المسلمين وبين الصليبيّين ، وانتصر الإسلام ، انتصر المؤمنون ، انتصر الصائمون القائمون .

كان صلاح الدين يمرّ على خيام جنـوده بالليل ، فإذا رأى فى الخيمة من يصلّي . . من يقرأ القرآن . . من يسبّح . . من يستغفر أو يذكر الله ، قال : من هنا

يأتي النصر ، وإذا رأى أهل الخيمة جميعاً نياماً .. يغطّون في نوم عميق ، قال : أخشى أن تأتي الهزيمة من هنا ، من النائمين الغافلين .

بالصائمين القائمين المسبّحين الذاكرين انتصر صلاح الدين ، وكانت معركة حطّين ، وكان فتح بيت المقدس ، بعد أن ظلّ تسعين عاماً في يد الصليبيّين .

انتصر الإسلام خلال القرون على أعدائه ، رغم ما كان فيه من وهن ظاهريّ ، ولكنّها القوّة الذاتيّة للإسلام تظهر ساعة الشدائد .. ساعة المحن ، فيبدو أصلب عوداً ، وأصفي جوهراً ، وأقوى شوكة ، من كلّ ما يظنّ الظانّون .

استعمار البلاد الإسلامية :

وفي العصر الحديث ، في هذا القرن الذي انقضى وودّعناه ، في القرن الرابع عشر الهجري ، ابتليت بلاد الإسلام بالاستعمار لم تنج إلاّ جزيرة العرب ، أمّا بلاد المسلمين فتقسّمتها دول الاستعمار فيما بينها ، التهمتها التهاماً ، جزّأتها لقيمات وابتلعتها ، الإنسان لا يستطيع أن يبتلع (كيلو) من اللحم في لقمة ، أو رغيفاً كاملاً ، ولكنّه إذا قطّعه تقطيعاً استطاع أن يأكله .

قُطّعت بلاد الإسلام وأُكلت ، ووزّعت بين انكلترا وفرنسا وإسبانيا وهولندا وغيرها ، حتى هولندا التي كانت نحو خمسة ملايين في ذلك الوقت ، كانت تحتل بلداً إسلاميًّا يبلغ سكانه أكثر من ثمانين مليوناً في ذلك الوقت وهو : اندونيسيا .

الاستعمار يحمل روحاً صليبيّة :

احتلّت بلاد المسلمين ، ودخلها الاستعمار ، وهو في الظاهر يحمل اسم (الاستعمار) وفي الباطن يحمل روحاً صليبيّة حاقدة ، لم يستطع القادة العسكريّون أن يخفوها بما يخفيها السياسيّون المداهنون .

لمّا دخل القائد العسكري البريطاني (اللّنبي) سنة (١٩١٧) م إلى القدس ، قال كلمته المعروفة : اليوم انتهت الحروب الصليبية !

ولّما دخل القائد العسكري الفرنسي إلى دمشق ، ووصل إلى قبر القائد المسلم (صلاح الدين) وقف يقول بشماتة : ها قد عدنا يا صلاح الدين !

الاستعمار يلغي الشريعة ويفرض العلمانيّة :

إنّ من أهمّ الأحداث التي حدثت في القرن الرابع عشر هو (الاستعمار) ، الاستعمار الذي دخل بلاد المسلمين وحكمها بغير ما أنزل الله ، حكمها بغير

شريعتها ، طرد الشريعة الإسلاميّة . وأحلّ محلّها القوانين الوضعيّة ، لأوّل مرّة في تاريخ المسلمين .

لم يكن يجرؤ حاكم مهما طغى وتجبر أن يلغي شريعة الإسلام في مجتمع المسلمين لم يستطع ذلك الحجّاج الثقفي ، ولم يستطع ذلك ظالم من الظلاّم ، قد يجور أو ينحرف في حكم من الأحكام ، ولكن أن تُعطّل الشريعة .. أن يُلغى حكم الله ، هذا ما لم يحدث في تاريخ المسلمين إلاّ بعد دخول الاستعمار .

دخل الاستعمار وفرض العلمانيّة بالحديد والنّار .. بقوّة السلاح ، على ديار المسلمين ، علمانية في الحكم والسياسة ، علمانيّة في القانون والتشريع ، علمانيّة في التعليم والتربية ، علمانيّة في الثقافة والتوجيه والإعلام ، علمانيّة في مظاهر الحياة المختلفة ، ومعنى العلمانيّة : فصل الدين عن الدولة وعن المجتمع وعن الحياة .

الإسلام غير النصرانيّة :

طبّقوا هنا ما طبّقوه من قبل في بلادهم ، ولكن بلادنا غير بلادهم ، الإسلام غير المسيحيّة ، والمسجد غير الكنيسة وعلماء الدين غير رجال الكهنوت هناك .

إن الإسلام لم يقف ضدّ العلم كما فعلت الكنيسة في أوربّا ، ولم يقف مع الملوك ضدّ الشعوب ، ولم يقف مع الأغنياء ضدّ الفقراء ، لا ، بل كان الإسلام مع العلم .. مع الشعوب .. مع الفقراء .. مع الفئات الضعيفة دائماً .. مع العدل .. مع القسط بين الناس ، فكيف ساغ أن يُفعل هنا ما فُعل هناك ؟!

إنّ الشعوب هناك ثارت وقالت في صيحاتها المدوّية : اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسّيس ! دلالة على هذا التعاضد والتساند بين الكنيسة وبين الظلاّم من الملوك ، أمّا الإسلام فليس الأمر كذلك .

وليس عندنا ما عند النصارى : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، ليس عندنا قسمة الحياة ، ولا تشطير الإنسان شطرين : شطر لله وشطر لقيصر ، وقسم لله أو للدين ، وقسم للدولة أو للدنيا ، لا ، عندنا : قيصر وما لقيصر لله الواحد القهّار ، لله ما في السموات وما في الأرض ، ولله من في السماوات ومن فى الأرض .

الاستعمار صنع قادة على عينه :

ولكن الاستعمار حين فرض العلمانيّة ، لم يفرضها بالحديد والنّار ، ثم يدع الأمور تجري في أعنّتها، فلو فعل ذلك لنفض الناس أيديهم من العلمانيّة بعد قريب ،

ولكنّ الذي نجح فيه هو : أنّه استطاع أن يصنع علي عينيه ، ويربّي على يديه ، رجالاً من أبناء المسلمين ، علـمانيّين كأسيادهم المستعمرين ، يسيرون في خطّته ، وينهجون نهجه ، ويتبنّون أفكاره ، ويعملون على تنفيذها بعد رحيله .

هكذا صنع الاستعمار .

صنع المدارس التبشيريّة ، والمؤسّسات الأجنبيّة ، وطبخ فيها من يريد طبخه ، صنع الخواجات من أبناء المسلمين في ديار المسلمين ، ولم يكتف بذلك ، فمن لم تنضجه الطبخة في بلاده ، أُرسل إلى هناك .. إلى أوربّا ، ليتمّ إنضاجه ، ويعود بأسماء المسلمين ، ولكنّه يحمل عقل الأوربيّين .

هكذا صنعوا ، ونجحوا فيما صنعوا .

ولم يكتفوا بذلك ، فعلمنوا التعليم ، علمنوا المدارس والجامعات ، وجعلوا من بلاد المسلمين بلاداً أوربيّة الفكر والاتجاه .

القوّة الذاتيّة في الإسلام تبرز المجاهدين المحرّرين :

وظنّوا بعد ذلك أن قد طاب لهم المقام ، ظنّوا أنّه قد تهيّأت لهم السبل ،وأنّ الأمر قد استقرّ لهم في بلاد المسلمين بعد الذي صنعوه .

وما دروا أنّ القوّة الذاتيّة للإسلام كامنة كمون النّار في الكبريت ، كامنة كمون البركان تحت الرماد ، وإذا بهم يرون هذه النارّ تشتعل من جـديد في كلّ بلاد الإسلام ، يحرّكها صوت الإسلام ، تحرّكها كلمة : الله أكبر ، يحرّكها الإيمان ، تحرّكها كلمات : هبّي يا رياح الجنّة .

ظهر المجاهدون ، والراغبون فيما عند الله من الشهادة في سائر بلاد الإسلام ، وظهرت حركات وثورات جهاديّة في كلّ البلاد تقاوم الاستعمار ، تقاتل وتجاهد وتدافع ، حتى استطاع المسلمون أن يحرّروا بلادهم من الاستعمار العسكري ، ورحلت عساكر الاستعمار من بلاد المسلمين ، ولكن آثار الاستعمار بقيت للأسف .

المجاهدون يزرعون والعلمانيوّن يحصدون :

إنّ الثورات التى قامت باسم الإسلام ، وتحرّكت بدوافع الإيمان وأحلام الجنّة ، قد سرقها العلمانيّون ، سرقها اللاّدينيون ،هناك أناس مدرّبون على سرقات الحركات الشعبيّة والثورات الجهاديّة ، قوم يغرسون ويتعبون ويرعون ويتعهّدون ، وآخرون يقطفون الثمرة .

المتدينون يزرعون ، والعلمانيوّن يحصدون !

في تركيا واندونيسيا والجزائر :

في تركيا : قام الشعب التركي باسم الإسلام وراء مصطفى كمال الذي كانوا يسمّونه : الغاري مصطفى كمال ، وظنّ الناس أنّه يحارب عن الإسلام وباسم الإسلام ، ولما انتصر قام المسلمون في كلّ مكان يحتفلون ويقيمون الأفراح ، ويقول الشاعر شوقي في ذلك الوقت :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب !

كانوا يظنّون إنّه خالد الترك ·· خالد الجديد ، بدل خالد بن الوليد ·

وإذا به إنسان دونمي ّ ، . من يهود الدونمة ، إذا بهذا الإنسان يضع في صدر الإسلام خنجراً مسموماً ، ويعلن أنّه ضدّ الإسلام ، يحارب الإسلام فى تشريعه ، وفي توجيهه ، وفي تعليمه ، حتى اللغة التركيّة كانت تكتب بالحروف العربيّة ، فأبى إلاّ أن تكتب باللاّتينية ، حتى الأذان حُرّم على الأتراك أن يؤذّنوا بالعربيّة ·· ألاّ يقولوا : الله أكبر ، وظلّ ذلك إلى عهد قريب ، إلى عهد (عدنان مندريس) الذي أعاد الأذان بالعربيّة ·

وهكذا في كثير من البلاد سرقت الثورات الإسلامية ·

ثورة اندونيسيا التي قامت باسم الإسلام ، سرقها العلمانيّون ، ثورة المليون شهيد في الجزائر قامت باسم الإسلام ، كان الصوت الذي حرّكها هو صوت (جمعيّة العلماء) المسلمين ، صوت الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وهو ينشىء المدارس القرآنيّة ، ويعلّم الجزائريّين ويحفّظهم نشيده المعروف :

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

كانوا يريدون (فرنسة) الشعب الجزائرى ، فرنسة لغته وتعليمه وحياته كلّها ، ولكنّ الإسلام هو الذى قاوم ، كانت جهود ابن باديس ، والإبراهيمي ، والتبسي ، وإخوانهم ، هي البذور التي نبتت منها الثورة ·

فأين هذه الثورة الآن ؟؟

الثورات قامت في كلّ مكان يساندها المسلمون ، ويغذّونها بدمائهم ، ولكن يسرقها العلمانيوّن ·

كان هذا ممّا حدث في هذا القرن ·

الاستقلال والهدف منه :

استقلت بلاد المسلمين ، ولكن ما قيمة الاستقلال ؟ لماذا تستقلّ الأمم ؟ لماذا تستقلّ الشعوب ؟

إنّ الاستقلال ليس غاية في ذاته ، إنّ الأمم لا تعيش لمجرّد أن تستقلّ ، ولكنّها تستقلّ لتعيش ، وإنّما تعيش لرسالة ، الأمّة التي تعيش لرسالتها هي المنتصرة حقًّا ، أمّا إذا عاشت لغير رسالتها فلن تنتصر .

متى تكون الأمّة الإسلاميّة منتصرة حقًّا ؟

إذا حقّقت ذاتها ، إذا حقّقت وجودها ، وإنّما تحقّق ذاتها بالإسلام ، إنّما تحقّق وجودها بقيام دولة الإسلام ، التي تقوم على عقيدة الإسلام ، وعلى تشريع الإسلام ، وتربية الإسلام ، وتوجيه الإسلام ، وحياة الإسلام .

فهل حدث هذا في بلاد المسلمين ؟

أين دولة الإسلام ؟ أين الدولة التي تتبنّى الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً ومنهاج حياة ؟

إنّ بلاد المسلمين إذا قامت فيها دولة رأسماليّة ديمقراطيّة بعد استقلالها ، فهل تُعدّ بهذا قد انتصرت ؟ لا والله ، إنّ الذي انتصر إنّما هو المعسكر الغربيّ .

وإذا قامت في بلاد المسلمين بعد استقلالها دولة اشتراكية ماركسيّة فما انتصر الإسلام ، وإنّما انتصر المعسكر الاشتراكي .

إنّما ينتصر الإسلام حين تقوم في أرض الإسلام دولة الإسلام ، التى ترتفع فيها راية القرآن ، حينما تحلّ حلال الله ، وتحرِّم حرامه ، حينما يكون للمسلمين في بلادهم كيان ، حينما يعيش المسلمون أعزّاء ، لا يُقتلون في مساجدهم بإطلاق النّار ، حينما يعيش المسلمون موفوري الكرامة ، مرفوعي الرؤوس !

أمّا إذا ظلّ المسلمون يعيشون في بلادهم غرباء ، ويعيش الإسلام غريباً في دياره ، مخذولاً بين أنصاره ، فليست هذه هي البلاد المستقلّة التي انتصر فيها الإسلام .

ماذا يراد للمسلمين ؟ :

يُراد للمسلمين دائماً أن يختفوا ، ويراد لإسلامهم أن يضع رأسه في الرمال كالنّعامة .

يُقال للمسلمين إذا كانوا أقلّيّة : ليس لكم حقّ في أن تُحكموا بإسلامكم ، فإنكم أقلّيّة والأقلّيّة تتبع الأكثريّة بحكم الديمقراطيّة ! وإذا كان المسلمون في بلادهم أكثريّة قيل لهم : ألغوا شخصيّتكم باسم الوحدة الوطنيّة ، أتركوا إسلامكم باسم التسامح !!

هل التسامح أن نخفض رؤوسنا ؟!

هل التسامح ألاّ نعيش بإسلامنا ولإسلامنا ؟!

هل التسامح ألاّ نحكم بشريعتنا ؟!

هل التسامح أن نُذيب الفوارق بين الأديان بعضها وبعض بهذا النفاق السياسي والاجتماعي ؟!

لا ، ليس هذا من التسامح في شيء .

في هذا القرن حدثت أحداث ، إنّه قرن الاستعمار والكفاح في مقاومة الاستعمار ، القرن الذي حرّر المسلمون بدمائهم بلادهم من الاستعمار ، ولكن بقيت فيها إلى اليوم آثار الاستعمار ، وقوانين الاستعمار ، وأفكار الاستعمار .

هذا من ملامح هذا القرن .

إلغاء الخلافة :

من ملامح هذا القرن ، بل من كوارث هذا القرن: ما صنعه (كمال أتاتورك) حينما تحكّم في تركيا المسلمة ، أنّه ألغى الخلافة الإسلاميّة (١) ، آخر مظهر لتجمّع المسلمين تحت راية العقيدة ، تحت راية (لا إلَه إلاّ الله محمدّ رسول الله) ، على ما كان به من ضعف ، وعلى ما كان بالخلافة العثمانيّة من عيوب ، فقد كانت تمثّل الوحدة الإسلاميّة ، كانت تمثّل (بُعْبُعًا) يخيف بلاد الاستعمار - ودول الصليبيّين .

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٢٤ م .

ولذلك تآمروا عليها ، كانوا يسمّونها (الرجل المريض) ، ولا بدّ من اقتسام تركة (الرجل المريض) ، وما زالوا بهذا الكيد حتى وجدوا من أبناء المسلمين أو من ينتسب إلى المسلمين من يحقق قول أولئك المبشرين العتاة الذين قالوا : لا يقطع الشجرة إلاّ واحد من أبنائها !هكذا صنعوا ، وتجرّأ ذلك الجبان الملحد العلماني اللاديني - كمال أتاتورك - أن يلغي الخلافة الإسلامية ، وأصبح المسلمون لأوّل مرّة فى التاريخ بلا خلافة ، بلا إمام يجمعهم ويقول : هبّوا للجهاد ، أو هيّا لنصرة الإسلام .

نحن المسلمين الآن نحتاج إلى من يجمع النّاس ، ومن يقول للنّاس : هيّا جاهدوا ، فلا نستطيع .

تآمر اليهود ، وكانوا من وراء إسقاط الخلافة العثمانيّة .

حاول اليهود أن يشتروا هذه الخلافة ، حاولوا مع السلطان عبد الحميد أن يضعوا في جيبه ملايين اللّيرات الذهبيّة في مقابل أن يقطعهم بعض الإقطاعات في فلسطين ، ولكنّه أبى ،فكاد اليهود كيدهم ، حتى كان الذي سلّمه صكّ إسقاط الخلافة هو الذي عرض عليه شراء أرض من فلسطين بالملايين !

سقطت الخلافة بكيد الكائدين ، ومكر الماكرين ، وكان هذا من الكوارث الكبرى في تاريخ الأمّة .

الآن أصبح المسلمون وليس لهم راية ، أصبحوا ممزّقين الآن كما ترون في ظلّ الدول القُطْرية .

يقولون : الكتلة الإسلاميّة ، وأين هي الكتلة الإسلاميّة ؟! وهل هي كتلة فعلاً ؟! .

أين التضامن الإسلامي ؟ :

كانوا يسعون إلى (الوحدة الإسلاميّة) أو (الجامعة الإسلاميّة) ، ثمّ هبطوا ، فسمّوه : (التضامن الإسلامي) ، فأين هو التضامن الإسلامي ، والمسلمون يحارب بعضهم بعضا ؟! .

ما رأينا حرباً أشدّ ضراوة من حرب العراق وإيران ، ما رأينا تلك الجيوش قاتلت في فلسطين مثل هذا القتال .

الله وصف المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ بقوله : ﴿ .. أَشِدَّاءُ عَلَى

الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . ﴾ (١) ، ولكنّ المسلمين الآن : أشدّاء على أنفسهم رحماء بغيرهم ! وصف الله اليهود بقوله : ﴿ . . بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، كأن هذه الأوصاف تنطبق على المسلمين عامّة ، وعلى العرب خاصّة .

« ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون » : لو كانوا يعقلون ، لعلموا أنّه في ساعة الشدائد يجب أن تُنسى الخصومات ، وتُنسى كلّ الخلافات الجانبيّة ، وأن يقف الجميع صفّاً واحداً في مواجهة العدّو الواحد ، وصدق الله العظيم إذا يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (٣) .

أين الصف الواحد ؟ أين البنيان المتراص ؟

لا نرى إلاّ تفرّقاً وتمزّقا .

ولابدّ من هذا التفرّق والتمزّق ، ما دام لا يوجد هناك حبل واحد يُعتصم به ، ليس هناك منهج واحد يُتبع ، هناك مناهج ، وهناك طرق شتّى : هذا يسلك سبيل الاشتراكيّة ، وهذا يسلك سبيل الرأسماليّة ، وهذا يسلك سبيل الديمقراطيّة ، وهذا يسلك سبيل الدكتاتوريّة العسكريّة ، وهذا . . وهذا . . فكيف يلتقون ؟!

روى ابن مسعود رضي الله عنه قال (٤) : خطّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً [كان يعلّمهم بوسائل الإيضاح ، ووسائل الإيضاح المتوافرة في ذلك الوقت : الرمل ، يرسم ويخطّ فيه] ثمّ قال : هذا سبيل الله [هذا صراط الله المستقيم] ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله [متعرّجة وملتوية] وقال : هذه سبل ، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه ، وقرأ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٥).

---

(١) الفتح : ٢٩ . (٢) الحشر : ١٤ .

(٣) الصف : ٤ .

(٤) إسناده حسن ، أخرجه الإمام أحمد ، والطبري ، والحاكم وصحّحه ، وأقرّه الذهبي (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ٢ / ١٩٦ - ١٩٧ برقم ٩٧) .

(٥) الأنعام : ١٥٣ .

المسلمون الآن انقسموا ، ما داموا قد تركوا الإسلام فقد اتجه بعضهم إلى اليمين واتجه بعضهم إلى اليسار ، واليمين درجات واليسار درجات ، هناك يمين اليمين ووسط اليمين ويسار اليمين ، وهناك يسار اليسار ووسط اليسار ويمين اليسار ، وبين هذه وتلك درجات ودرجات ، وهناك الموالي لموسكو ، والموالي لبكّين ، والموالي لبلغراد ، والموالي لواشنطن ، والموالي للندن ، والموالي لباريس ·

تركوا القبلة الواحدة ، فصاروا إلى قبلات مختلفة ، وتركوا المنهج الواحد فتفرّقت سبلهم : ﴿ · · وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِه ﴾ [1] ·

تمزّق المسلمون ولم يعد لهم خلافة تجمعهم ، وهذا من شرّ ما حدث في هذا القرن ·

قيام إسرائيل :

ومن شرّ ما حدث في هذا القرن بعد الاستعمار ، وبعد سقوط الخلافة ، وتمزيق الأمّة الإسلاميّة ، حدث خطير لم يكن أحد يتوقّعه ، إنّه : قيام إسرائيل ، قيام دولة لليهود ، بعد أن تمزّقوا في الأرض ، وقطّعهم الله فيها أمماً ، قام لهم كيان ، وقامت لهم دولة ، وأين ؟ في قلب بلاد العروبة والإسلام ، في أرض النبوّات والمقدّسات ، الأرض التي بارك الله فيها للعالمين ·

حول المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ، قامت لليهود دولة ، ظللنا سنوات ونحن نطلق عليها - في الصحف والمجلاّت والإذاعات - اسم : (إسرائيل المزعومة) ·

ولكن هذه (المزعومة) ظلّت تناوش وتضرب وتلطم وتؤدّب وتعاقب هذه الجبهة وتلك ، حتى أوشكنا أن نكون نحن (المزعومين) ، فتركنا كلمة (المزعومة) واستحيينا من أنفسنا ·

من كان يظنّ أنّ اليهود الذين عاشوا في ذمّة المسلمين ، وتحت سلطانهم ، وفي كنف أمانهم - بعد أن كانوا يُذلّون ويُقهرون في أنحاء العالم ، ولا يجدون صدراً حنوناً إلاّ فى قلب بلاد الإسلام - أنّهم يقلبون للمسلمين ظهر المجن ، ويديرون عليهم الدوائر ، وينقلبون عليهم ·

---

(١) الأنعام : ١٥٣ ·

هكذا صنعوا ، واستنسر البغاث ، وتذأبت النّعاج ، وأصبح اليهود يقتّلون المسلمين ، ويذبّحون المسلمين ، وأصبح اسمهم : القوّة التي لا تُقهر ·

هذه - أيّها الإخوة - أهمّ أحداث هذا القرن المنصرم ·

ظهور الحركات التجديديّة الإسلاميّة :

وأحبّ أن أقول هنا شيئاً مهمًّا : إنّ هذا القرن المنصرم - أيضاً - قد تميّز بحركات إسلاميّة ، قام بها مجددون أصلاء في أنحاء الديار الإسلاميّة ، فاستطاعوا أن يُحيوا الأمّة من موات ، وأن يجمعوها من شتات ، وأن ينادي مناديهم في المسلمين ، أن يتهيّأوا من جديد لمعركة المستقبل ، وأن يجعلوا الإسلام مرجعهم ومحور حركتهم ، وأساس نهضتهم ·

فقامت جماعات وحركات إسلاميّة تجدّد الإسلام ، تجمع المسلمين على (لا إله إلاّ الله ، محمدّ رسول الله) ، وترفع راية التوحيد من جديد ·

بروز الصحوة الإسلاميّة المعاصرة :

ونحن الآن نشهد ثمار هذه الحركات في هذه الصحوة ·· الصحوة الإسلاميّة ، المتمثّلة في هذه الحركات وفي هذه الجماعات الإسلاميّة ، جماعات الشباب الإسلامي التي انطلقت في كلّ مكان من بلاد الإسلام ·

زرت الشرق والغرب فوجدت - فيما وجدت - هذه الصحوة المباركة ·

صحيح أنّي وجدت مآسي ومشكلات في كل بلد إسلامى حكمه الاستعمار ، ولكن - بجوار هذا - وجدت الصحوة الإسلاميّة ·

في (ماليزيا) التي كانت تسمىّ قديماً (الملايو) : كان الملاويون في العادة مسلمين ، فإذا بالمكايد تعمل عملها ، وتدبّر تدبيرها ، فأدخل الإنجليز المستعمرون عليهم مهاجرين من الصينيّين الذين يسمّونهم (يهود الشرق الأقصى) ، وقد تكاثروا وازدادوا قوّة بمساندة الإنجليز ، وهاهم - بعد رحيل الإنجليز - يتسلّطون على رقاب أهل ماليزيا ، ويستولون على اقتصادها ، ويكوّنون عدداً ضخماً نحو الثلث ، ثمّ يستولون على (سنغافورة) ويقتطعونها من ماليزيا ، ثمّ يستولون على العواصم مثل (كوالمبور) ، بحيث تجد أكثر من (٨٠ ٪) من الثروات في يد هؤلاء ·· يهود الشرق الأقصى ·

ولكن مع هذا هناك الصحوة الإسلاميّة،هناك حركة الشباب الإسلامي(أپيم) ·

في كلّ مكان نجد صحوة إسلاميّة ·

بل وجدت هذه الصحوة وراء البحار ، في أوربا ، في أمريكا ، وجدت هؤلاء الشباب الصوّامين القوّامين ، الذين يصومون الاثنين والخميس ، ويستغفرون بالأسحار ، ويصلون الفجر في المساجد ·

وجدت هؤلاء الفتيات اللآتي آلين إلاّ الحجاب ، إلاّ أن يأتمرن بأمر الله ، وينتهين عن نهي الله ، ويتحدّين المجتمعات ، بل يتحدّين الأسر أحياناً والآباء والأمّهات ·

هؤلاء الفتيات أصبحن بالألوف ، ومئات الألوف ، في كلّ بلد إسلامي ·

كنّا نسير في الستينيات في بلد مثل (القاهرة) هذه ، فلا نكاد نرى فتاة محجبة ، حتى العجوز الشمطاء التى أكل الدهر عليها وشرب ، كانت تمشي بما يسمّى (الجابونيز) أو نحو ذلك ·

الآن سر في الشوارع ، سترى هذه الظاهرة ، أُدخل الجامعات والمدارس ، سترى ظاهرة الفتيات المحّجبات ·

الحمد لله ، صحوة إسلاميّة في كلّ مكان ، علم الإسلام يرتفع ، صوت الإسلام يدوّي ·

وقد ساعد على ظهور هذه الصحوة وقوّتها : إخفاق (الحلول المستوردة) من الشرق والغرب ، من اليمين ومن اليسار ، فهي لم تحقّق للأمّة هدفاً كانت تصبو إليه : لا نصراً عسكريًّا ، ولا رخاء اقتصادياً ، ولا استقراراً سياسيًّا ، ولا تماسكاً اجتماعيًّا ، ولا انضباطاً أخلاقيًّا · بل فشلت فشلاً ذريعاً في كلّ هذه الميادين ·

واجبنا حراسة الصحوة من كيد أعدائها :

هذه الصحوة - أيها الإخوة - يجب أن نحافظ عليها ، نحافظ عليها ونحرسها من أعدائها ·· من خصومها ، حتى لا يضربوها من داخلها ، حتى لا يغزوها من الداخل بواسطة المخرّبين ·· بواسطة العابثين ·

يجب أن نحافظ على هذه التجمّعات الإسلاميّة ، ونسير بالحكمة ، وندعو بالموعظة الحسنة ، ونجادل بالتي هي أحسن ، لا بالتي هي أخشن ·

المحافظة على الصحوة من أبنائها أنفسهم :

ويجب أن نحافظ على هذه الصحوة الإسلاميّة من ناحية أخرى : من ناحية أبنائها أنفسهم .

أريد من شباب الإسلام أن يقلعوا عن التوافه ، ألاّ يشغلوا شباب هذه الأمّة بالخلافات الجانبيّة والمعارك الجزئية عن المعارك المصيريّة الكبرى ، وألا تشغلهم الفروع عن الأصول ، ولا الجزئيّات عن الكلّيّات ، ولا الشكل عن الجوهر ، ولا الأطراف عن القلب ، ولا المختلف فيه عن المتفق عليه .

بل يجب عليهم أن يركّزوا انتباههم على الأمّة الإسلاميّة ومعاركها ومآسيها وقضاياها الكبرى ، وما تتعرّض له من فتن ، ومؤامرات تهدف إلى إبادتها معنويًّا ، إن لم تمكن إبادتها مادّيًّا وجسديًّا .

إخواننا في أفغانستان يقاتلون ، إخواننا في سوريّا يُذبّحون ، بالمئات . . بالآلاف ، يأتي الطغاة الباطنيّون النّصيريّة - الذين قال علماء المسلمين عنهم : إنّهم أشدّ كفراً من اليهود والنصارى - فيقتلون المسلمين السّنّيّين ، جهاراً نهارا ، عياناً بيانا ، يُؤتى بالابن ليقتل أمام أبيه ، وبالأب ليقتل أمام بنيه ، وبالمرأة لتقتل أمام زوجها ، وبالزوج ليذبح أمام زوجته ، وهكذا ، قتل في حماة - من بعض الأسر - تسعة أشخاص من أسرة واحدة ، هُدّمت المساجد في سوريّا ، وضُربت بالقنابل .

هل هناك من رفع صوتا ؟ أو من حرّك ساكنا ؟

هناك تعتيم إعلاميّ من بلاد العرب .

بل هناك بلاد عربيّة إسلاميّة لها مكانتها عند المسلمين ، تسند هؤلاء صراحة ، وتمدّهم بالملايين بل بالملايير !

مليارات الدولارات تُدفع لهؤلاء الباطنيّين إتاوة أو جزية عن يد وهم صاغرون ، لكي يبقى نظامهم الجائر ، ولكي لا يقوم للإسلام عَلَمٌ في هذه الديار .

هذا ما يحدث في بلاد العرب والمسلمين .

إخوانكم يقاتلون من سنوات في الفلبين ، والعرب المسلمون يؤيّدون (ماركوس) ويصادقونه ، ويعقدون معه الصداقات ، ويمدّونه بالبترول ، والمسلمون يصرخون ولا من مُصرِخ ، ولا من مغيث .

إخوانكم في اريتريا ، إخوانكم فى تشاد ، إخوانكم في الصومال ، إخوانكم في كلّ مكان ٠

المسلمون أصبحوا أضيع من الأيتام في مأدبة اللّئام ، ولا يملكون إلاّ أن يشكوا لمجلس الأمن ٠٠ للأمم المتحدة ورحم الله القائل الذي قال :

في كلّ محكمة قضيّة مسلم يشكو بليّته لغير المسلم

عضّوا على إسلامكم بالنواجذ :

يا أيها الإخوة ٠٠ يا شباب الإسلام :

عضّوا على إسلامكم بالنواجذ ، كونوا يداً واحدة ، تفقّهوا في الإسلام ، اعرفوا الإسلام من أصوله ٠٠ من مصادره الحقيقيّة ، تتلمذوا على علماء الإسلام الثقات ، اعرفوا الكتب الإسلاميّة الأصيلة ، ارجعوا إلى المصادر ، افهموا الإسلام فهماً شموليّا ٠

الإسلام ليس في المسجد فقط ، الإسلام ليس عبادة فقط ، الإسلام ليس عقيدة فقط ، الإسلام ليس أخلاقاً فقط ٠

الإسلام عقيدة وتوحيد ، وعبادة وصلاة ، وهو كذلك أخلاق وآداب ، ومعاملة وتشريع ، ونظام حياة ٠

الإسلام رسالة تشمل الزمن كلّه ، وتشمل العالم كلّه ، وتشمل الإنسان كلّه ، وتستوعب الحياة كلّها ، وصدق الله العظيم : ﴿ ٠٠ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) ٠

الاستبشار بمستقبل الإسلام :

إنّنا نستبشر بمستقبل الإسلام ، إنّنا نعتقد أنّ بعد الليل فجرا ، وأنّ مع العسر يسرا ، وأنّ هذا الإسلام سينتصر ، وأنّ الله تعالى يقول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٢) ٠

---

(١) النّحل : ٨٩ ٠

(٢) التوبة : ٣٣ ، الصف : ٩ ٠ وفي الآية (٤٨) من سورة (الفتح) : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ،وكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ ٠

إنّ الإسلام سينتصر إن شاء الله ، وقـد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « ليبلغنّ هذا الأمر [يعني : أمر هذا الدين] ما بلغ الليل والنّهار [أي : ليعمّنّ الكرة الأرضيّة كلّها]ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر[أي: في بادية أو حضر]إلاّ أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز، أو بذلّ ذليل، عزًّا يعزّ الله به الإسلام، وذلاً يذلّ الله به الكفر »(١) .

إنّما النّصر بالمؤمنين :

ولكن - أيّها الإخوة - جرت سنّة الله : إنّه لا ينصر الرسالات إلاّ بأهلها ، إنّ الله تعالى خاطب رسوله بقوله : ﴿ .. هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) .

نريد المؤمنين المؤتلفين ، فأتلفوا على الإسلام ، ترابطوا على الإسلام ، قفوا صفًّا واحداً وراء الإسلام .

مهما قالوا إنّكم متعصّبون ، تعصّبوا لإسلامكم ، نحن في حاجة إلى شيء من التعصّب ، إذا سمّي الاستمساك بالحق والاعتزاز بالدين تعصّبًا ، فنحن أوّل المتعصّبين : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ الْمُبِينِ ﴾(٣) ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٤) .

إذا سمّي هذا التوكّل وهذا الاستمساك وهذا الاعتزال تعصّباً ، فلنتعصّب ، وإلاّ أُكلنا ، وإلاّ ضعنا في بلاد دينها الإسلام ، في بلاد أكثريّتها المسلمون .

آن للمسلمين أن يثبتوا وجودهم ، وأن يعرفوا حقيقتهم ، وأن يميّزوا صديقهم من عدّوهم ، وأن ينظّموا أنفسهم ، وأن يتراصّوا وراء الحق : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٥) .

---

(١) رواه أحمد في مسنده ، وأورده الهيثمي في المجمع ، وقال : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح . أنظر (المبشرات بانتصار الإسلام للقرضاوي : ص ٢٧) ط . مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) الأنفال: ٦٢ - ٦٣ . (٣) النّمل: ٧٩ . (٤) الزخرف: ٤٣ . (٥) الصفّ : ٤ .

إذا لم يفعل المسلمون ذلك ، فإنّ العاقبة وخيمة ، وإنّ الشرّ ينتظرهم ، والقرآن قد حذّرهم بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ (١) .

الكفّار بعضهم أولياء بعض ، والكفر كلّه ملّة واحدة ، ولذلك نرى الشيوعيّين ، والرأسماليّين ، واليمينيّين واليساريّين ، يتفقون فيما بينهم إذا كان العدوّ هو الإسلام ، وإذا كان الهدف هو ضرب المسلمين .

فإذا لم نفعل ذلك ، ولم يوال بعضنا بعضا ، ويتكتلّ بعضنا مع بعض ، ويساند بعضنا بعضا « تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

لا حياة بغير الإسلام :

أيّها الإخوة : هذه خواطر في يوم العيد ، أوّل عيد في القرن الخامس عشر الهجري .

آن لنا أن ننفض غبار النّوم، آن لنا أن نعرف أنفسنا، آن لنا أن نكتشف ذاتنا، نحن مسلمون قبل كلّ شيء، نحن بالإسلام كلّ شيء، وبغير الإسلام لا شيء .

نحن لا نريد اعتداء على أحد ، وإنّما نريد أن نعيش مسلمين ونموت مسلمين ، ولا نريد لأحد أن يمنعنا من هذه الحقيقة .

لا نقبل من أحد أبداً أن يقول لنا: عيشوا بغير الإسلام، لا نقبل هذا من حاكم ، ولا نقبل هذا من محكوم ، ولا نقبل هذا من أحد في الداخل أو في الخارج .

إنّنا مسلمون ، نعتزّ برسالة الإسلام ، نعيش بها ، ونعيش لها ، ونموت عليها ، ونعلنها على الملأ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

أيها الإخوة : إنّي داع فأمّنوا :

اللهم أكرمنا ولا تهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنّا وأرضنا .

---

(١) الأنفال : ٧٣ .　(٢) فصّلت : ٣٣ .

(٣) آل عمران : ١٠٢ .

اللهم اجعل كلمة الإســلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السّفلى .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللهم إنّا ندرأ بك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم ردّ عنّا كيدهم ، وفلّ حدّهم ، وأدل دولتهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

اللّهّم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا ، وكرّه إلينا الكفر ، والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين .

اللهم تقبلنا في جندك الصادقين ، وحزبك الغالبين ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

اللهم أعل بنا كلمة الإسلام ، وارفع بنا راية القرآن .

اللهم أيدّ إخواننا المجاهدين في أفغانستان ، وأيدّ إخواننا المجاهدينَ في لبنان ، وأيدّ إخواننا المجاهدين في سوريّا ، وأيدّ إخواننا المجاهدين في اريتريا ، وأيدّ إخواننا المجاهدين في الصومال ، وأيدّ إخواننا المجاهدين في الفلبين ، وأيدّ إخواننا المجاهدين في بلاد الإسلام حيثما كانوا .

اللهم أيّدهم بملأ من جندك ، اللهم أمدّهم بروح من عندك ، اللهم احرسهم بعينك التي لا تنام ، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمد ، وعلى آله وصحبه .

وتقبّل الله منّا ومنكم ، وكلّ عام وأنتم بخير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .　　(٢) الحشر : ١٠ .

٢٠ - خطبة عيد الأضحى

أُلقيت في الأستاد الرياضي بالاسكندريّة سنة ١٤٠٧ هـ

الله أكبر · الله أكبر · الله أكبر ، الله أكبر · الله أكبر ، الله أكبر · الله أكبر · الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، الله أكبر · الله أكبر · ولله الحمد ·

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات ، الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله ·

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، خصّنا بخير كتاب أُنزل ، وأكرمنا بخير نبيّ أُرسل ، وأتمّ علينا النعمة بأعظم دين شُرع ، دين الإسلام : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ·· ﴾ (١) ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) ·

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، أدّى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح للأمّة ، وجاهد في الله حقّ جهاده ، وتركنا على المحجّة البيضاء ·· على الطريقة الواضحة الغرّاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاّ هالك ، فمن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فلا يضرّ إلاّ نفسه ، ولا يضرّ الله شيئاً : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ·· ﴾ (٣) ، ﴿ ·· وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (٤) ·

اللّهمّ صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم ، وعلى آله وصحابته ، وأحينا اللّهمّ على سنّته ، وأمتنا على ملّته ، واحشرنا في زمرته ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا ·

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

فهذا يوم العيد ، عيد الأضحى ، هذا يوم الحج الأكبر ، يوم المؤتمر العظيم ،

---

(١) المائدة : ٣ ·
(٢) آل عمران : ٨٥ ·
(٣) الإسراء : ٧ ·
(٤) النّمل : ٤٠ ·

الذي يقف فيه المسلمون محرمين متجرّدين لله تعالى ، ملبّين مهلّلين : لبّيك اللهم لبيّك ، لبيّك لا شريك لك لبيك ، إنّ الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

يوم الحج الأكبر ، هذا هو العيد الثاني للمسلمين .

وللمسلمين عيدان لا عيد بعدهما ،ربط الله كلاً منهما بعبادة من عباداته الكبرى ، وبشعيرة من شعائر الإسلام العظمي .

العيد الأوّل يأتي بعد عبادة الصوم ، تأتي فرحة الفطر ، و « للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربّه فرح بصومه » (١) . إنّه يفرح كلّ يوم عند الإفطار بما وفّقه الله إليه من طاعة ، ثم يفرح الفرحة الكبرى فى الدنيا حينما يتم صيام الشهر ، فتأتي فرحة العيد .

وأمّا العيد الثاني فيأتي بعد عبادة الحج ، بعد أن يؤدّي الناس هذه الفريضة ، أو هذه الشعيرة ، بعد أن يقفوا في عرفات ، بعد أن خرجوا من أوطانهم وغادروا أهليهم وأحبّاءهم مهاجرين إلى الله تبارك وتعالى .

فكأنّ العيد هنا وهناك ، في الفطر وفي الأضحى : جائزة أو مكافأة من الله تبارك وتعالى لعباده ، كأنّه منحة ربانية لهم ، علي ما أدّوه من إحسان فريضة الصيام وإحسان فريضة الحج .

المعنى الرباني والمعنى الإنساني في أعياد الإسلام :

هذه هي الأعياد عندنا نحن المسلمين ، يتجلّى فيها المعنى الرباني كما يتجلّى فيها المعنى الإنساني .

يتجلّى فيها المعنى الرباني بربطها بعبادات الإسلام ، ويتجلّى فيها هذا المعنى أيضا : إنّ العيد عيد صلاة وتكبير .

عرف الناس بعض الأعياد : انطلاقاً للشهوات ، وركضاً وراء الملذّات ، ولكن عيدنا نحن المسلمين يبدأ بالتكبير .. يبدأ بالصلاة ، يوم العيد يوم صلاة لله تعالى قبل كلّ شيء .

هذه أعيادنا نحن المسلمين ، نكبّر الله ونصلّى له ، لا نهتف باسم مخلوق وإنّما

---

(١) مرّ تخريجه في صفحة (٢٧٧) .

نهتف باسم الله وحده ، إذا هتف الناس باسم المخلوقين - صغروا أم كبروا - فالمسلمون في أعيادهم يقولون : الله أكبر الله أكبر .

هذا هو زينة الأعياد : « زيّنوا أعيادكم بالتكبير » (١) .

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إلَه إلاّ الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

في عيد الفطر قال الله تعالى في ختام آية الصيام : ﴿ .. وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢) ، وفي عيد الأضحى شرع لنا النبى ﷺ التكبير عقب الصلوات منذ فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيّام التشريق (ثلاث وعشرين صلاة) .

في ثلاث وعشرين صلاة يكبّر المسلم كلّما أدّى الصلاة : الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إلَه إلاّ الله والله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

هكذا يتجلّي فى أعيادنا نحن الأمّة الإسلاميّة المعنيان الكبيران :

المعني الرباني : فالعيد مرتبط بهذه المعاني الإيمانيّة .

المعنى الإنساني : ألاّ ينسى الإنسان أخاه ، ألاّ يفرح وحده ، ألاّ يكون أنانيًّا .

فرض زكاة الفطر في عيد الفطر :

هنا شرعُ الإسلام في عيد الفطر : زكاة الفطر ، صدقة الفطر فرضها رسول الله ﷺ على الصغير والكبير والذكر والأنثى والحرّ والعبد من المسلمين ، فرضها صاعاً من طعام (٣) ، طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة

---

(١) رواه الطبراني في الصغير عن أنس ، ورمز له السيوطي بالحسن (الجامع الصغير : ٢ / ٢٨) ، وفي نسخة: عن أبى هريرة ، وفي سنده عمر بن راشد وقد ضعّفه أحمد وابن معين والنّسائي ، وفيه بقيّة وقد رمي بالتدليس ، قال ابن حجر : وعمر ضعيف ولا بأس بالباقين وبقيّة وإن كان مدلّساً فقد صرح بالتحديث ، ينظر (فيض القدير للمناوى : ٤ / ٦٨ - ٦٩ برقم ٤٥٧٨) .

(٢) البقرة : ١٨٥ .

(٣) في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر قال : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر ، أو صاعاً من شعير على الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير من المسلمين ، وأمرنا أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة » ، ينظر : (شرح السنة للبغوي : ٦ / ٧١ برقم ١٥٩٤) .

للمساكين [١]، وإغناءً لذوي الحاجة عن السؤال والطواف في هذا اليوم [٢] .

ليس من الإسلام أن تأكل ملء بطنك ، وتضحك ملء سنّك ، وتنام ملء جفنك ، وتجمع على موائدك ما لذّ وطاب من الطعام والشراب ، وبجوارك أناس لا يجدون ما يمسك الرمق أو يطفىء الحرَق ، من يئنّ من الجوع أنين الملسوع ، ولا يجد شيئاً يُقدّم إليه .

لئن جاز هذا في أيّ وقت - وهو غير جائز - لا يجوز في أيام الفرحة .. في أيّام العيد ، لهذا شرع الإسلام في عيد الفطر زكاة الفطر،إسعافاً للفقراء وإغناء لهم .

الأضحية في عيد الأضحى :

وشرع في عيد الأضحى الأضحية ، جعلها سنّة من سننه ، بل رآها الإمام أبو حنيفة واجباً من الواجبات على أهل القدرة واليسار .

يضحّي المسلم ليوسّع على نفسه وأهله ، وليوسع على جيرانه وأحبابه، ثمّ ليوسّع بعد ذلك على الفقراء من حوله ، فلا عاش من يأكل وحده .

لا يجوز للناس أن يعيشوا في دائرة مغلقة على أنفسهم ، وإنّما ينبغي أن يبحثوا عن أهل الفقر والحاجة ، وخصوصاً في أيّام الأعياد ومواسم الخيرات .

---

(١) هذان الهدفان الأساسيّان لزكاة الفطر حدّدهما ابن عباس رضى الله عنهما في حديثه الذي رواه أبو داود وسكت عليه هو والمنذري ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ووافقه الذهبي ، ونصّه : « فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث ، وطعمة للمساكين ، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة ، ومن أدّاها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات » ، ينظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٣١ برقم ٥٧١) ، وينظر أيضاً : (فقه الزكاة : ٢ / ٩٢١ - ٩٢٢)ط . مؤسّسة الرسالة ببيروت ، كلاهما للشيخ القرضاوي .

(٢) كما في حديث ابن عمر الذي رواه ابن عدي والدارقطني : « أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم » ، ينظر : (سبل السلام : باب صدقة الفطر) ، وأخرج البيهقي والدارقطني عن ابن عمر قال : فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال : « اغنوهم في هذا اليوم » وفي رواية البيهقي : « اغنوهم عن طواف هذا اليوم » ، وأخرجه أيضاً ابن سعد في الظبقات من حديث عائشة وأبى سعيد (نيل الأوطار : باب زكاة الفطر) .

قرّر هذا الإســـلام قبل أن تعرف الدنيـــا ما يسمّى الاشتراكيّة أو الشيوعيّة أو غير ذلك .

إنّما يريد الإسلام أن يكون الناس إخوة متحابّين ، ولا أخوّة ولا تحاب بين إنسان عنده كلّ شيىء وإنسان ليس عنده شيىء ، لا أخوّة بين ظالم ومظلوم ، لا أخوّة بين من يضع يده على بطنه يشكو زحمة التخمة ، ومن يضع يده على بطنه يشكو عضّة الجوع !

إنّما الأخوّة الحقيقيّة حينما يتراحم الناس .. يتكافل الناس ، يكفل بعضهم بعضا ، يصبّ الغنيّ على الفقير ، يأخذ القويّ بيد الضـعيف : ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (١) .

في العيد يتجلّى المعنى الإنسانيّ : أن يهنىء كلّ مسلم أخاه المسلم ، أن يزيل الفجوة أو الجفوة بينه وبينه ، أن يقطع الخصومة ويصلح ذات البين ، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة ، أما إنّها لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين (٢) .

لئن جاز للناس أن يتخاصموا أو يتدابروا في أيّام أخرى - وهذا غير جائز في أيّ وقت - فلا يجوز لهم أن يتدابروا ويتقاطعوا ويتخاصموا في أيّام الأعياد .

ابحث عن قريبك .. عن أخيك .. عن رحمك .. عن جيرانك .. عمّن حولك ، صل من قطعك ، وابذل لمن منعك ، وأعط من حرمك ، واعفو عمّن ظلمك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، فهذه مكارم الأخلاق التي بُعث النبي ﷺ ليتمّمها : « إنّما بعثت لأتمّ مكارم الأخلاق » (٣) .

---

(١) البلد : ١١ - ١٨ .

(٢) عن أبى الدرداء ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ » قالوا : بلى ، قال : « إصلاح ذات البين ، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة » رواه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والتـرمذى وقال : حديث صحيح . قال : ويروي عن النبى ﷺ أنّه قال : « هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٧٣٨ برقم ١٦٩٥) .

(٣) أورده مالك في الموطأ بلاغاً عن النبي ﷺ ،وقال ابن عبد البر:هو متـصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره مرفـوعا.أنظر: (تمييز الطيب من الخبيث : ص ٣٧) ط . دار الكتاب العربي ببيروت،و(المقاصد الحسنة:برقم٢٠٤)، و (كشف الخفاء : برقم ٦٣٨) .

عيد ولا فرحة من الأعماق :

أيها الإخوة : من شأن يوم العيد أن يكون يوم فرح ، ويوم سرور وابتهاج ، بل قالوا : إنّما سمّى العيد عيدا ، لأنّ السرور يعود فيه ويتكرّر .

ولكنّنا - للأسف الشديد - نحن المسلمين تأتي علينا الأعياد عيداً بعد عيد ، نحاول أن نفرح ، نحاول أن نبتهج ، نحاول أن نبتسم ابتسامة تخرج من أعماق قلوبنا ، ولكنّا إذا نظرنا في حال المسلمين تقطّعت أكبادنا ، ودمي فؤادنا ، حسرة على ما وصل إليه حالنا .

نحاول أن نفرح ، وكيف نفرح وهذا حالنا ، قديماً قال أبو الطيب المتنبي في أحد الأعياد :

عيدٌ بأيّة حـــال عُدت يا عيد ؟ بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ ؟
أمّا الأحبّةُ فالبيـــــداءُ دونهم فليت دونـــك بيداً دونها بيدُ !

كان همّ المتنبي في هذا العيد الذى لم يفرح به : بُعْدُ الأحبّة عنه ، ولو كانت مصيبتنا (بعد الأحبة) لهان الأمر .

لا زالت قضايانا معلّقة :

إنّ مصيبتنا كبيرة نحن المسلمين ، لازالت قضايا معلقة ، لا زلنا نشكو ممّا أصاب الأمّة الإسلاميّة .

الصهيونيّة وفلسطين :

لا زال الصهاينة يحتلّون فلسطين، لا زال المسجد الأقصى أسيراً فى أيديهم، لا زالوا يخطّطون لهدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان، لا زالوا يعملون ليل نهار، يخطّطون ويدبّرون لتمزيق أمتنا العربية والإسلاميّة ، وهم للأسف ينجحون يوماً بعد يوم .

كنّا نظنّ أمرهم هيّنا ، وكنّا نعتقد أنّ وجودهـــم سحابة صيف ، أو إقامة ضيف ! وأنهم لن يستمرّوا طويلاً ، ولكنّهم استمروا وكثروا ، لماذا ؟ لا لأنّهم أصحاب حق ونحن أصحاب باطل ، لا ، ولكن لأنّهم خططوا وارتجلنا ، وعملوا وتكاسلنا وتجمّعوا على باطلهم ، وتفرّقنا عن حقّنا !

ثمّ إنّنا أهملنا مصدر قوتنا .. سرّ قوّتنا ، وصانع النصر في تاريخنا ، وهو : التمسّك بالإسلام .

تمسّكوا هم باليهوديّة ولم نتمسّك نحن بالإسلام ، دخلنا المعارك نحن وهم ، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن ، دخلوا المعارك ومعهم إيمان بالتراث والتلمود ، ونحن نهزأ من البخاريّ ومسلم ·

لهذا كانت النتيجة : أن ظلّوا إلى اليوم فى فلسطين ، بل يحلمون بإسرائيل الكبرى ، من الفرات إلى النيل !

لا زالت قضايا معلقة ·

لبنان والحرب الأهليّة :

لا زال لبنان يعاني ممّا يعاني من الصراع الداخلي ، والحرب الأهليّة ، لا زال المسلمون الصادقون يعانون الجراح ، لا زالت الصهيونيّة وعملاؤها تخرّب فى لبنان ، وتبعث عملاءها يُقتّلون ويُذبّحون ·

لقد بلغ بأهل المخيمّات من أبناء فلسطين الذين طال عليهم الحصار شهراً بعد شهر ، واشتد عليهم الجوع - والجوع كافر - أن أفتاهم من أفتاهم بأن يأكلوا لحوم الموتى !

أين المسلمون ؟ أين أهل النّجدة ؟

أجل ، لا زالت قضايا معلّقة ·

الجهاد في أفغانستان والفلبين وإريتريا :

في أفغانستان يجاهد إخواننا هناك جهاد الأبطال ، يبذلون الأرواح ، يريقون الدماء ، يقفون في وجه القوة العاتية الكبرى بما لديهم من إمكانات صغيرة ، ولكنهم استطاعوا أن يقهروا هؤلاء ، وأن يستولوا على معظم أراضي أفغانستان (1) ·

ولكنّ القضيّة لازالت تحتاج إلى وقود دائم من الرجال والأموال والسلاح ·

لا زال إخواننا يقاتلون فى الفلبين ، لا زال إخواننا يقاتلون في اريتريا ، لا زالت الأقليّات الإسلاميّة تُضطهد هنا وهناك ·

---

(1) ونحن اليوم - إزاء ما يحدث بينهم من اقتتال دام مرير لامبرّر له قلب العرس إلى مأتم - لا نملك إلاّ أن ندعو الله أن يجمع قلوبهم ، ويحقن دماءهم ، ويلهمهم الرشاد ، ويقيهم شرور أنفسهم والكائدين من حولهم ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ·

المسلمون في الهند :

تصوّروا : المسلمون في الهند يُعتبرون أقليّة ، ولكنّهم أكثر من مائة مليون مسلم ، ومع هذا نقرأ ونسمع ما بين آونة وأخرى مجازر بشريّة تقام للمسلمين ، يُذبّحون فيها ذبح الأغنام أو البقر ، لا ، فإنّ البقر لا تُذبّح بل تُعبد هناك ، والأغنام لا تُذبّح .

لا يذبح هؤلاء شيئاً فيه روح ، لا يذبحون دجاجة ، بل لا يستخدمون شيئاً ممّا يبيد الحشرات .

دخلت بعض الفنادق هناك ، وكنّا نشكو من البعوض ولكنهم لا يسمحون بشيىء يقتل البعوض لأنّه ذو روح ، الشيىء المستباح هناك هو دماء المسلمين ، كأنّ المسلمين أناس ليس لهم أرواح !

هذا ما يحدث لإخوتنا من أهل الإسلام .

مليار من المسلمين ، ولكنهم كغثاء السيل :

المسلمون في كلّ مكان مضطهدون ، لماذا ؟ ألأنّ المسـلمين قلّة في العـدد ؟ لا .. والله ، لقد زادوا على المليار .. على الألف مليون ، تُقدّر الإحصاءات المسلمين اليوم بألف وثمانين مليوناً (١٠٨٠) أو تزيد .

ولكن ما قيمة أعداد هي كثرة كغثاء السيل كما سمّاها النبى ﷺ ؟!

في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان رضي الله عنه : « يوشك الأمم أن تُداعى عليكم كما تُداعى الأكلة إلى قصعتها . قال قائل : يا رسول الله ومن قلّة يومئذ ؟ قال : لا بل أنتم كثير ، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم ، ولتعرفنّ [في أبو داود : وليقذفنّ الله] فى قلوبكم الوهن . قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حبّ الدنيا وكراهية الموت »[(١)] .

الأمّة في مرحلة الغثاء والوهن النفسى :

نحن الآن - للأسف - في مرحلة الغثائية : « غثاء كغثاء السيل » ، أمّة بالملايين ولكنّها كالغثاء ، والغثاء : ما يحمله السيل من القشّ والورق والحطب

---

(١) ينظر (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٥ / ١٦ ، الحديث ٤٢٢٤) .

والعيدان ، أشياء تجمعها الخفّة والسطحيّة ودعم التجانس وأنّه لا هدف لها ، السيل ليس له هدف ، النهر له هـدف ومجـرى ومصبّ ، ولكن السيل لا هدف له ولا مجرى .

الأمّة في هذه المرحلة « غثاء كغثاء السيل » ولذلك طمع فيها من لا يدفع عن نفسه ، غلبها كُلُّ مُغَلَّب ، تجرّأ عليها الجبان ، تعزّز عليها الذليل .

أرأيتـم أذلّ مـن اليهـود ؟ ﴿ أَحْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ (١) ، الذيـن ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ (٢) ، الذين عاشوا طويلاً في رحاب المسلمين وفي كنف الإسلام ، يوم طردتهم الدنيا من شرق وغرب ، لم يجدوا صدراً حنوناً إلاّ صدر الإسلام في دار الإسلام .

انقلب هؤلاء علينا ، واحتلّوا ديارنا ، وأخرجوا أهلها من أرضهم وديارهم .

لم هذا كلّه ؟

إنّه العامل النفسي .. الوهن .. حبّ الدنيا وكراهية الموت .

إنّنا إذا أردنا أن نخرج من مرحلة الغثاء إلى مرحلة التأسيس والبناء ، فينبغي علينا أن نبني الإنسان ، بناء الإنسان هو الحلّ الذي لا حلّ غيره .

إنّ المسلمين يشكون في كل مكان ، يشكون من التخلّف ، يشكون من التشتّت والتفرّق ، يشكون من انهيار الأخلاق ، يشكون من فساد السياسة والاقتصاد ، يشكون من فساد الإدارة ، يشكون ويشكون .

كلّما جلست في منتدى - صغير أو كبير - وجدت النّاس يشكون ، في مصر يشكون ، في الخليج العربي يشكون ، خارج العالم العربي يشكون .

الناس هنا يشكون ، يشكون من الغلاء ، يشكون من سوء الحال ، يشكون من الديون ، يشكون من اضطراب الأمن ، يشكون من ضياع الأخلاق ، يشكون من كذا وكذا .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ... ﴾ (البقرة : ٩٦) .

(٢) قال تعالى : ﴿ .. وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّين بِغَيْرِ الحَقِّ ، ذَلِكَ بِمَا عَـصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ٦١] .

أوّل العلاج بناء الإنسان :

ولكن ما علاج هذا كلّه ؟ وما قيمة الشكوى بلا عمل ؟

الناس يشكون ولا يتقدمون للعمل والبناء ، ينبغي أن تقترن الشكوى بالعمل ، بل أن ندع الشكوى ونبدأ العمل ، وأوّل العمل : بناء الإنسان .

الإنسان - بإذن الله - هو الذي يحيي البلد الميّت ، ويخضّر الحياة اليابسة ، الإنسان هو الذى يصنع الحضـــارة ، هو الذي يُنشىء النهضة ، هو الذى يقوّم الأعوج ، ويصلح الفاسد ، بدون الإنسان لا يمكن أن يقوم بناء حضاريّ ، لا يمكن أن تقدّم أمّة .

وضعنا بين الأمس واليوم :

نحن العرب والمسلمين صرنا اليوم في ذيل القافلة البشريّة ، كنّا في مطلع القافلة .. في مقدّمتها .. في مأخذ الزمام منها ، قروناً طويلة ، قُدنا الحضارة ، كنّا أمام البشريّة ، أقمنا حضارة ربانية .. إنسانيّة .. أخلاقيّة .. عالميّة ، اجتمع فيها العلم والإيمان ، توازنت فيها الروحية والمادية ، وتكامل فيها نور الوحي ونور العقل ، كما التقى فيها الإبداع المادي والرقيّ الأخلاقي .

أقمنا حضارة متوازنة ، حضارة وسطا ، لأمّه وسط ، ذات منهج وسط .

كانت الحضارة الإسلاميّة هي الحضارة الوحيدة في العالم ، كانت اللغة العربية هي لغة هذه الحضارة ، كانت الجامعات الإسلاميّة هي موئل طلاّب العلم من أوربّا وغيرها ، كانت الكتب الإسلاميّة هي مراجع الدارسين في أنحاء الدنيا ، كانت أسماء علماء المسلمين ألمع الأسماء في عالم العلم .

بلغنا من القوّة - في وقت من الأوقات - أن سمع عمر بن عبد العزيز بأسير مسلم أُهين في بلاد الروم ، فكتب إلى ملك الروم : أما بعد ، فقد بلغني أنّك أهنت مسلماً كتب الله له الكرامة والعزّة ، فإذا بلغك كتابي هذا فخل سبيله ، وإلاّ غزوتك بجنود أوّلها عندك وآخرها عندي .

ولم يسع هذا الملك إلاّ أن يطلق سراح الأسير المسلم .

بلغ مجدنا أن جلس هارون الرشيد يوماً ، فرأى سحابة في السماء ، فقال : أيتها السحابة ، شرّقي أو غرّبي ، وأمطري حيث شئت ، فسيأتي خراجك إلى بيت مال المسلمين .

إذا أمطرت في بلاد المسلمين جاءت الزكاة لبيت مال الزكاة ، وإذا أمطرت في بلاد غير المسلمين جاء الخراج للمسلمين ·

كنّا سادة الدنيا يوم كنّا متمسّكين بالإسلام ·

والناظر في التاريخ الإسلامي ·· في الامتداد والانكماش ·· في المدّ والجزر ·· في النصر والهزيمة ·· في القوة والضعف ، يجد أنّنا ننتصر ، ونقوى ، ونعتزّ ، ونسود ، ويعمّنا الرخاء والازدهار ، حين نقترب من الإسلام ونضعف ، ونذلّ ، ونُهزم ، ونصبح مضغة في أفواه الأمم ، يوم نبتعد عن الإسلام ·

أنظر أيام الراشدين ، أنظر أيام عمر بن عبد العزيز ، أنظر أيام الرشيد والمأمون ، أنظر أيام نور الدين محمود وصلاح الدين الأيّوبي ، كلّما وجدت اقتراباً من الإسلام الحقيقي ، وجدت القوة والنهضة والازدهار والعزّة والنصر ·

حتى إذا تركنا الإسلام تركنا الله عزّ وجلّ ووكلنا إلى أنفسنا ، وإذا وكل الله امرءًا إلى نفسه فهيهات أن يتحقق له نصر ، أو يتحقق له سيادة ·

إذا أردنا حلّ مشكلاتنا ، فلا حلّ لمشكلاتنا إلاّ بالعودة إلى الإسلام ·· كلّ الإسلام ·

ليس الإسلام هو الحدود :

ليس الإسلام - أيّها الإخوة - كما يتصوّر بعض الناس - ومنهم بعض الدعاة إلى الإسلام - محصوراً في إقامة الحدود ، في أن تقطع يد السارق ، أو تجلد السكّير أو الزاني ، أو تقيم الحدّ على المرتدّ ·

لا ، ليس هذا هو كلّ الإسلام ، بل هذه الأشياء من أواخر ما نزل في الإسلام ، معظم الحدود نزلت في سورة (المائدة) وهي من أواخر ما نزل من القرآن ·

إنّما قبل أن نقيم الحدود ، نريد أن نربي الناس على الإسلام ، نريد أن ننشىء الإنسان المسلم ، نريد أن نزيل العوائق من طريق الإسلام ، العوائق التي تحول بين الناس وبين الرجوع إلى الله تبارك وتعالى ·

نريد إعلاماً إسلاميًا ، نريد تعليماً إسلاميًا ، نريد ثقافة إسلاميّة ، نريد فنوناً إسلاميّة ، نريد أسرة إسلاميّة ، نريد تقاليد إسلاميّة ، ثمّ نريد - بعد ذلك - قوانين إسلاميّة ·

إنّ تطبيق الشريعة الإسلاميّة - الذي أصبح مطلباً جماهيرياً في ديار الإسلام - لا يعني مجرّد تغيير القوانين المستوردة بقوانين إسلاميّة ، القوانين وحدها لا تصنع المجتمعات ، ولا تحيي ضمير الإنسان ، وخاصّة قانون العقوبات ٠

إنّما الذي يصنع الإنسان هو التربية المستمرّة ، هو التوجيه الدائم ، يقوم عليه البيت ، والمدرسة ، والجامعة ، والمسجد ، والإذاعة ، والتلفاز ، وكلّ أجهزة التوجيه والتثقيف والترفيه والإعلام والتعليم ٠

نريد الإنسان المؤمن :

إنّ حلّ مشكلاتنا إنّما يمكن في بناء الإنسان المؤمن ، إذا بنيت هذا الإنسان المؤمن فهو المفتاح الذي به يُفتح كلّ مُغلق ، وبه يعالج كلّ داء ، وبه تنحلّ كلّ مشكلة ٠

هيهات أن يجد النّاس حلاًّ لما يعانون ، ما دام أولئك الذين نراهم في كلّ مكان عن يمين وشمال ، من موتى الضمائر الذين لا يبالون ما أكلوا ، من حلال كان أم من حرام ، الذين لا يبالون أن يبنوا قصوراً ولو من جماجم البشر ، وأن يزخرفوها بدماء خلق الله ٠

هؤلاء لا تصلح بهم دنيا ، ولا ينهض بهم دين ٠

هؤلاء الذين يتاجرون في السموم ٠٠ في المخدرات ، من أجل أن يكسبوا أموالا ، ولو على حساب إخوانهم وأهليهم وجيرانهم ، يريد كل منهم امتلاك ثروة طائلة ، ولو قتل الألوف والملايين من الناس ٠

تجّار المخدّرات ٠٠ تجار الأغذية الفاسدة ٠ ٠ تجار الجنس ٠٠ تجار العملة ٠٠ تجار السوق السوداء ٠٠ الذين يقبلون الرشوة ٠٠ الذين يفسدون الحياة ، كلّ هؤلاء إنّما حدث منهم ما حدث لفقدان الإيمان ، هذه الجمـــرة المتقدة في الصدور قد انطفأت ، الشعور برقابة الله تبارك وتعالى لم يعد قائما ٠

نريد الإنسان الذي يشعر برقابة الله عليه قبل رقابة النّاس ، الذي يقول ما قالته تلك الفتاة الصغيرة : إذا كان أمير المؤمنين لا يرأنا فإنّ ربّ أمير المؤمنين يرانا ، الذي يقول ما قاله ذلك الراعي العبد المملوك لعمر بن الخطاب حينما جاع في طريقه إلى الحج ، فوجد راعياً يرعي غنما ، فذهب إليه وقال له : يا هذا بعنا شاة من غنمك ، فقال : يا صاحبي إنّها ليست غنمي ، أنا مملوك ولا أملك منها شيئا - وهو لا يعرف

عمر ، فلم يكن مع عمر ما يدلّ على أنّه أمير المؤمنين ، لا جنود ولا خدم ولا هيل ولا هيلمان - فأراد عمر أن يختبره فقال له : خذ ثمنها وقل لسيّدك : أكلها الذئب ، فقال : يا هذا فأين الله ؟! أى : إذا قلت هذا لسيدى الأصغر ، فماذا أقول لسيّدى الأكبر ؟! إذا استطعت أن أكذب على المخلوق ، فكيف لي أن أكذب على الخالق ؟!

عبد مملوك قال هذا لعمر فسأل عمر عن سيّده واشتراه منه وأعتقه ، وقال له : أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا من الرّقّ ، أرجو أن تعتقك في الآخرة من النّار ·

متى تكتمل فرحتنا بالعيد ؟ :

يا أيها الإخوة : إنّ يوم العيد يوم فرحة وسرور ، وكان بودّنا أن نفرح بعيدنا ، ولكن آلام المسلمين تُدمي القلب ، ولا تجعل الفرحة تغمر أفئدتنا كما ينبغي ·

نحن نفرح حقاً يوم تعلو كلمة الإسلام في دنيا النّاس ، يوم تحكم شريعة الخالق دنيا الخلق ، يوم تشرق أنوار السماء على ظلمات الأرض ، يوم تكون كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى : ﴿ ·· وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ ·· ﴾ (١) .

وقبل ذلك ستظلّ الأعياد باهتة لا معني لها ، لأنّ الأمّة لم تعد لها هويتها الحقيقيّة ، سنظلّ نردّد قول الشاعر (محمود غنيم) رحمه الله في أحد الأعياد في قصيدة له :

قالوا : عجبنا ما لشعرك باكيا   في العيد ؟ ما هـــذا بشأن معيّد !
ماحيلة العصـفور قصّوا ريشه   ورموه في قفص ، وقالوا : غرّد ؟!

نحن هذا العصفور المهيض الجناح، المنتوف الريش ، لا نستطيع أن نغرّد في الأعياد ، حتي نرى أمّتنا كما أراد الله لها : تتبوأ مكانتها تحت الشمس ·

صحوة الشباب المسلم هي الأمل :

ولكن الذي يعزّينا ، ويملأ قلوبنا بالثقة ، وأفئدتنا بالأمــل والرجــاء ، هو هذه (الصحوة الإسلاميّة) التي نراها في كلّ مكان ، صحوة أبناء الإسلام وخصوصاً من الشباب والشابّات ، هؤلاء الذين نهضوا بعد ركود ، وتحرّكوا بعد جمود ، واستيقظوا بعد رقود ، وعرفوا أنّ الإسلام حق ، فاستمسكوا بعراه - بالعروة الوثقى لا انفصام

---

(١) الروم : ٤ - ٥ ·

لها ، تمسّكوا بالإسلام : عقيدة وشريعة ، وأخلاقاً وحضارة ، ورابطة وأخوّة ، ومنهاجاً شاملاً للحياة ، تمسّكوا بالإسلام : عملاً به ، وعملاً له ، ودعوة إليه ، وجهاداً في سبيله ٠

هذا الشباب - كما قلت وأقول دائماً - هو أثمن ما في البلاد الإسلاميّة ، وأنفس ما فيها ٠

إذا كان في البلاد الإسلاميّة : ذهب أسود يتمثّل في النّفط ، أو ذهب أبيض يتمثّل في القطن ، أو ذهب أصفر ، أو غير ذلك ، فأغلى من الذهب وأنفس من الجواهر هو : هذا الشباب ٠٠ هؤلاء الربّانيّون ، الصوّام القوّام ، الذين رأيتهم في الشرق والغرب : توّابين متطهرين ، راكعين ساجدين ، آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر ، حافظين لحدود الله ٠

أنظر إلى المساجد ، من يعمّرها ؟

كان الذين يرتادون المساجد قديماً : الشيوخ الكبار ، الذين أحيلوا على المعاش، الذين أكل الدهر عليهم وشرب ، فأرادوا أن يختموا الحياة برجعة إلى الله ٠

كنت قلّما تجد شاباً ٠

روّاد المساجد الآن معظمهم من (الشباب) ٠

أنظر مواسم الحج ومواسم العمرة : كان الناس قديماً يختمون حياتهم بالحج ، إذا اقترب الإنسان من القبر قال : الحج هو تمام الأمر وختام العمر !

الآن معظم الذين يزحمون مواسم الحج والعمرة من (الشباب) ٠

(الشباب) الآن هو الذي يقاتل في أفغانستان ، هو الذي يقاتل في الفلبين ، هو الذي يعمل لإعلاء كلمة الإسلام ٠

الذين ينادون بالشريعة الإسلاميّة هم (الشباب) ٠

(الشباب) هم عماد الأمّة ، هم ذخيرة مستقبلها ، هم الذين يصدق فيهم قول الله تبارك وتعالى :﴿ ٠٠ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[1] ٠

إنّ الصحوة الإسلاميّة هي أملنا ، هي رجاؤنا ، هي غدنا إن شاء الله ٠

---

(١) الكهف : ١٣ ٠

الفقه المنشود لشباب الصحوة :

كلّ ما نرجوه من أبناء هذه الصحوة أن يُحسنوا فقه الإسلام وفقه الواقع ، أن يعرفوا أحكام الله في شرعه ، وسنن الله في خلقه ، ألاّ يتعجّلوا ، ألاّ يقطفوا الثمرة قبل أوانها ، ألاّ يستخدموا العنف في غير حاجة إليه ·

العنف مرفوض :

لماذا يفكّر بعض الشباب في العنف ؟

إنّما يستعمل العنف (اليائس) الذي لا يجد استجابة ولا تجاوباً من النّاس ، ولكنّنا - بحمد الله - نجد الإسلام ينتشر وينتشر ، والدعوة إليه تمتد وتمتد ، والمقبلين عليه يزيدون ويزيدون ، يوماً بعد يوم ·

المستقبل لنا ، الشعوب معنا ، الجماهير معنا ، فلماذا نتحاور بالسلاح ، ولا نتحاور بالكلمات ؟! ·

إنّ الذي يستخدم منطق القوة ، هو الذي يعجز عن قوّة المنطق · والدعاة إلى الإسلام معـــهم المنطق الذي لا يُغلب ، والحجّة التي لا تُدحض ، والنّور الذي لا يُطفأ ·

نحن معنا الحق الذي قامت به السموات والأرض ، معنا الله ، معنا ملائكته ، معنا المؤمنون ، معنا الشعوب ·

الشعوب بفطرتها مع الإسلام ، فلماذا نستعجل ؟

والله إنّ المستقبل مستقبل الإسلام ·

لو أحسنّا الصبر ، وأحسنّا العمل ، وصبرنا على طول الطريق ، فسنجد هذه الأمّة معنا ·

المستقبل للإسلام في مصر :

إذا كان هذا صادقاً في كلّ الشعوب الإسلاميّة ، فهو أصدق ما يكون في بلدنا هذا ·· في مصر · مصر مسلمة بفطرتها ·· بتاريخها ، لا يحرّكها شيىء كما يحرّكها الإسلام ، لا ينفذ إلى قلوبها شيىء كما تنفذ إليها كلمة الإيمان ، لا تُقاد بشيىء كما يقودها المصحف ·

حينما نادى المنادون بشعارات القوميّة والاشتراكيّة والماركسيّة وغيرها ، هل وجدوا استجابة ؟ هل وجدوا من يجيبهم ؟ هل انتصروا في معركة ؟ لا ·

ولكن يوم رُفع شعار (الله أكبر) ماذا صنعت هذه الأمّة ؟ ماذا صنع هذا الشعب ؟ صنعوا العجائب .

(الله أكبر) هي التي تقود هذه الأمّة .

فيا شباب الإسلام .. يا شباب الصحوة .. يا أبناء الدعوة .

افقهوا هذا جيّداً ، تعاملوا مع هذه الأمّة برفق : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴾ (١) .

ارفقوا ، فـ « إنّ الله يحبّ الرفق في الأمر كلّه » (٢) ، وما دخل الرفق في شيىء إلاّ زانه ، ولا نُزع من شيىء إلاّ شانه (٣) .

عليكم بالاعتدال .. بالوسطيّة ، فهي إحدى خصائص الإسلام الكبرى .

ابتعدوا عن الإفراط وعن التفريط ، عن الغلّو وعن التقصير ، والزموا المنهج الوسط ، الذي سمّاه الله تعالى : الصراط المستقيم ، وعلّمنا أن ندعو إليه دائماً في كلّ يوم في صلواتنا : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (٤) .

إنّ مصر تظلّ في الطليعة من ديار الإسلام ، ويجب أن تظلّ في الطليعة ، ففيها الحركة الإسلاميّة الأمّ ، وفيها (الأزهر) العتيد ، وفيها التديّن الأصيل ، وإنّنا لواثقون أنّها ستقود - بإذن الله - مسيرة الإسلام الصحيح .. الإسلام العملي .. الإسلام الواقعيّ .. الإسلام الوسطي ، وإنّنا لمنتظرون هذا اليوم الذي تسود فيه أحكام الله ، وتعلو فيه شرعة الله ، وتجتمع الأمّة على كلمة الله .

لا ندعو إلى عصبيّة ولا طائفيّة :

إنّنا حين ندعو إلى الإسلام ، لا ندعو إلى عصبيّة ، ولا إلى طائفيّة ، بل ندعو

---

(١) النّحل : ١٢٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب ، ومسلم في السلام (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٣ / ٧٣) .

(٣) روى مسلم في صحيحه عن عائشة عن النبى ﷺ أنّه قال : « إنّ الرفق لا يكون في شيىء إلاّ زانه ، ولا يُنزع من شيىء إلاّ شانه » (شرح السنة للبغوي : ١٣ / ٧٥ برقم ٣٣٩٣) .

(٤) الفاتحة : ٦ - ٧ .

إلى المثل العليا ، إلى القيم الرفيعة ، التى جاءت بها النبوّات جميعا ، جاء بها موسى وعيسى والنبيون من قبل ، ولأن يحكم الإنسان المسيحىّ شرعة منبثقة من دين ، خير له من أن يحكمه قانون لا مكان للدين فيه .

إنّ الإسلام هو دين الإنسانيّة كلّها ، فحين ندعو إليه ، ندعو إلى خير وطننا ، وخير أمّتنا العربيّة ، وخير أمّتنا الإسلاميّة، وخير الإنسانيّة كلها، وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

يا أبناء الصحوة الإسلاميّة :

هذا يومكم .. يوم العيد ، وهذا غدكم المأمول ، أنتم - إن شاء الله - طلائع النصر .. طلائع البعث ، أنتم المرجون للغد ، المأمولون للمستقبل ، فكونوا عند حسن الظنّ بكم والثقة فيكم ، أهلاً للعمل والدعوة والجهاد في سبيل الإسلام ، حتى يعلي الله كلمته ، وينجز وعده : ﴿ وَعْدَ اللهِ ، لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

وصلّ اللّهمّ على سيّدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وسلّم .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، وتقبلّ الله منّا ومنكم ، وكلّ عام وأنتم بخير .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) الروم : ٦ - ٧ .

(٣) آل عمران : ١٤٧ .

(٤) الحشر : ١٠ .

الفهـــرس

مؤلفات الشيخ القرضاوى

- فى الفقه وأصوله :

١ – الحلال والحرام فى الإسلام ،

٢ – فتاوى معاصرة ج ١ ،

٣ – فتاوى معاصرة ج ٢ ،

٤ ، تيسير الفقه : فقه الصيام ،

٥ – الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية ،

٦ – مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية

٧ – من فقه الدولة فى الإسلام ،

٨ – نحو فقه ميسر معاصر ،

٩ – الفتوى بين الانضباط والتسيب ،

١٠ – عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية ،

١١ – الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد

١٢ – الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط ،

- فى الاقتصاد الإسلامى :

١ – فقه الزكاة (جزءان)

٢ – مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ،

٣ – بيع المرابحة للآمر بالشراء ،

٤ – فوائد البنوك هى الربا الحرام ،

٥ – دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى ،

- فى علوم القرآن والسنة :

١ – الصبر فى القرآن ،

٢ – العقل والعلم فى القرآن ،

٣ – كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟

٤ – كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟

٥ – تفسير سورة الرعد ،

٦ – المدخل لدراسة السنة

٧ – المنتقى من الترغيب والترهيب(جزءان)

٨ – السنة مصدرا للمعرفة والحضارة ،

- عقائد الإسلام :

١ – وجود الله ،

٢ – حقيقة التوحيد ،

● فى فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة :
١ - الحياة الربانية والعلم ،
٢ - النية والإخلاص ،
٣ - التوكل ،
٤ - التوبة ،
● فى الدعوة والتربية :
١ - ثقافة الداعية ،
٢ - التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا ،
٣ - الرسول والعلم ،
٤ - الوقت فى حياة المسلم ،
٥ - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد
● فى ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية :
١ - الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى ،
٢ - أين الخلل ،
٣ - أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة ،
٤ - فى فقه الأولويات ،
٥ - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ،
٦ - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
٧ - ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده ،
٨ - غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ،
٩ - شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ،
١٠ - الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم ،
١١ - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ،
١٢ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ،
● سلسلة : حتمية الحل الإسلامى :
١ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ،
٢ - الحل الإسلامى فريضة وضرورة ،
٣ - بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين ؛
● نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :
١ - شمول الإسلام ،
٢ - المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة ،
٣ - موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى،ومن التمائم والكهانة والرقى
● إسلاميات عامة :
١ - الإيمان والحياة ،
٢ - العبادة فى الإسلام ،

٣ – الخصائص العامة للإسلام ،
٤ – مدخل لمعرفة الإسلام ،
٥ – الإسلام حضارة الغد ،
٦ – الناس والحق ،
٧ – جيل النصر المنشود ،
٨ – درس النكبة الثانية ،
٩ – خطب الشيخ القرضاوى ج ١ ،
١٠ – خطب الشيخ القرضاوى ج ٢ ،
١١ – لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر ،
١٢ – قضايا معاصرة على بساط البحث ،
١٣ – قطوف دانية من الكتاب والسنة ،

● شخصيات إسلامية :

١ – الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه ،
٢ – الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن ،
٣ – نساء مؤمنات ،

● فى الأدب والشعر :

١ – نفحات ولفحات – ديوان شعر ،
٢ – المسلمون قادمون – ديوان شعر ،
٣ – يوسف الصديق – مسرحية شعرية ،
٤ – عالم وطاغية – مسرحية تاريخية ،

● رسائل ترشيد الصحوة :

١ – الدين فى عصر العلم ،
٢ – الإسلام والفن ،
٣ – النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه ،
٤ – مركز المرأة فى الحياة الإسلامية ،
٥ – فتاوى للمرأة المسلمة ،
٦ – جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة ،
٧ – الأقليات الدينية والحل الإسلامى ،
٨ – المبشرات بانتصار الإسلام ،
٩ – مستقبل الأصولية الإسلامية ،
١٠ – القدس ،
١١ – ظاهرة الغلو فى التكفير ،

● محاضرات الدكتور القرضاوى :

١ – لماذا الإسلام ؟
٢ – الإسلام الذى ندعو إليه ،

٣ – واجب الشباب المسلم ،
٤ – مسلمة الغد ،
٥ – الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير ،
٦ – قيمة الإنسان وغاية وجوده فى الإسلام
٧ – لكى تنجح مؤسسة الزكاة فى التطبيق المعاصر ،
٨ – التربية عند الإمام الشاطبى ،
٩ – السنة والبدعة ،
١٠ – مع المصطفى فى بيته ،

* * *